

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

# الموسم في القرآن الكريم خصائص السورة

المجلد الرابع

إعداد

جعفر شرف الدين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري





دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

# الموسوعة كثر القرآن

## حِصَّةُ الرُّسُلِ

شبكة كتب الشيعة

المجلد الرابع

إعداد

جعفر شرف الدين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

مراجعة

د. محمد توفيق أبو علي

الأستاذ أحمد حاطوم



# دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون ٣٥٠٧٢١/٢ (٠١)

تلفون + فاكس : ٦٠٢٠٢٩ - ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)

e-mail: allprints@netgate.com.lb

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

الإخراج الفني: زاهية عاصي

# سورة يونس





## أهداف سورة «يونس» (\*)

الأرض، والعظة بالقرون الخوالي ومصائرهما، وعرض بعض القصص من هذا الجانب الذي تبرز فيه العظة واللمسات الوجدانية، التي تنتقل بالإنسان من آيات الله في الكون إلى آياته في النفس، إلى مشاهد القيامة المؤثرة، إلى قصص الماضين ومصائرهم، كأنها جميعاً حاضرة معروضة للأنظار.

وهذه السورة تتضمن شيئاً من هذا كله، ويتنقل السياق فيها من غرض إلى غرض، بمناسبات ظاهرة أو خفية بين مقاطعها، ولكن جوهرها كله هو هذا الجوّ، حتّى لَيَضَعُ الفصل بين مقطع ومقطع فيها، في أغلب الأحيان.

نزلت سورة يُؤنِّسُ بعد سورة الإسراء، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة، فتكون سورة يونس من السور التي نزلت بين الإسراء والهجرة، فهي سورة مكية من أواخر ما نزل من القرآن بمكة.

وقد سميت بهذا الاسم لذكر قصة يونس فيها، وتبلغ آياتها تسعاً ومائة آية.

## أهدافها الإجمالية

موضوعات هذه السورة هي موضوعات السور المكية الغالبة، وهي الجدل حول مسائل العقيدة والتوجيه إلى آيات الله الكونية، وسنن الله في

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب «أهداف كل سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحات، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ - ١٩٨٤.

## الدرس الأول:

### مظاهر قدرة الله

يبدأ القسم الأول من السورة بأحرف ثلاثة هي ألف، لام، راء، كما بدأت سورة البقرة وسورة آل عمران بأحرف مشابهة، ذكر العلماء أنها أسماء للسورة أو إشارة إلى أسماء الله تعالى وصفاته، أو هي لبيان إعجاز القرآن الكريم، أو هي مما استأثر الله تعالى بعلمه. ثم تأخذ السورة في عرض عدة أمور، هي بيان حكمة القرآن وطريقته في تنبيه الغافلين إلى تدبر آيات الله سبحانه، في صفحة الكون وتضاعيفه: في السماء والأرض، وفي الشمس والقمر، وفي الليل والنهار، وفي مصارع القرون الأولى، وفي قصص الرسل فيهم، وفي دلائل القدرة الكامنة والظاهرة في هذا الوجود.

ثم تشرح السورة، الحكمة في الإيحاء إلى رجل من البشر، يعرفه الناس ويطمثون إليه، ويأخذون منه، ويعطونه، بلا تكلف ولا جفوة ولا تحرج، وتذكر الحكمة من إرسال الرسل.

فالإنسان بطبعه مهيناً للخير والشر، وعقله هو أداته للتمييز. ولكن هذا

العقل في حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائماً كلما اختلط عليه الأمر وأحاطت به الشبهات وجذبت التيارات والشهوات. وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعته.

وتلفت سورة، النظر إلى خلق السماوات والأرض وتدبير الأمور فيهما، وإظهار قدرة الله تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ السَّمَاءَ وَالْقَمَرَ ثَوْرًا وَجَدَرًا مَنَازِلَ﴾ [الآية ٥].

وقدر اختلاف الليل والنهار، وخلق هذا ودبره، فهو سبحانه الذي يليق أن يكون رباً يعبد، ولا يشرك به شيء من خلقه.

إن هذا الليل المظلم، الساكن إلا من دبيب الرؤى والأشباح، وهذا الفجر المتفتح في نهاية الليل كابتسامة الوليد، وهذه الحركة التي يتنفس بها الصبح فيدب النشاط في الحياة والأحياء، وهذا الطير الرائح الغادي القافز الواثب الذي لا يستقر على حال، وهذا النبات النامي المتطلع أبداً إلى النمو والحياة، وهذه الخلائق الذاهبة الآية في تدافع وانطلاق، وهذه الأرحام التي تدفع، والقبور التي تبلع، والحياة ماضية في طريقها كما شاء الله.

## الدرس الثاني : الأدلة على وجود الله

يستهل الدرس الثاني من سورة يونس، بإعلان جزاء المؤمنين، وعاقبة المكذبين، حيث يقول سبحانه :

﴿أَمْشَوْا لِمَنْشَقِّ وَزِيَادَةٍ﴾ (الآية ٢٦).

فالجزاء الحق من جنس العمل، فمن عمل صالحاً في الدنيا، أدخله الله الجنة ومثمه بالطيّات، ونجّاه من النار.

ثم تستمر الآيات في بيان عقوبة المكذّبين، وجزاء الخائنين؛ وتسوق السورة عدداً من الأدلة والبراهين تنتهي كلها إلى هدف واحد، هو إشعار النفس بتوحيد الله وصدق الرسول، واليقين باليوم الآخر، والقسط في الجزاء.

تلمس الأدلة أقطار النفس، وتأخذ بها إلى آفاق الكون في جولة واسعة شاملة، جولة من الأرض إلى السماء، ومن آفاق الكون إلى آفاق النفس، ومن ماضي القرون إلى حاضر البشر، ومن الدنيا إلى الآخرة.

وقد لاحظنا في الدرس الماضي لَمَسَات من هذه، ولكنها في هذا الدرس أظهر. فمن معرض الحشر،

إن هذا الحشد من الصور والأشكال، والحركات والأحوال والرواح والذهاب والبلى والتجدد والذبول والنماء، والميلاد والممات، والحركة الدائبة في هذا الكون الهائل التي لا تنسى ولا تتوقف لحظة من ليل أو نهار. إن هذا كله ليستنهض كل همة في كيان البشر، للتأمل والتدبر والتأثر، حتى يستيقظ القلب ويفتح لمشاهدة الآيات المبسوثة في ظواهر الكون وحنياه. والقرآن الكريم يعمد مباشرة إلى إيقاظ القلب، لتدبر هذا الحشد من الصور والآيات، وتأمل قدرة الله في اختلاف الليل والنهار، بالطول والقصّر، فيطول الليل في الشتاء، ويقصّر في الصيف، ويطول النهار في الصيف، ويقصّر في الشتاء. ووراء كل إبداع يد الله القدير، الذي رفع السماء وزينها بالنجوم وحفظها من التصدع والوقوع، وبسط، سبحانه، الأرض وثبتّها بالجبال، وزينها بالنبات، وأحياها بالمطار.

﴿إِنَّ فِي أَنْفُسِكُمُ الظِّلِّ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١).

إلى مشاهد الكون، إلى ذات النفس، وإلى التحدي بالقرآن، إلى التكبير بمصائر المكذابين من الماضين، ومن ثم لمحة عابرة عن الحشر في مشهد جديد، إلى تخويف من المفاجأة بالعذاب، وإلى تصوير علم الله الشامل الذي لا يند عنه شيء، إلى بعض آيات الله في الكون، إلى الإنذار بما ينتظر المفترين على الله يوم الحساب.

إنها مجموعة من اللمسات العميقة الصادقة، لا تملك نفس سليمة التلقي، صحيحة الاستجابة ألا تستجيب لها، وألا تتذاب الحواجز والموانع فيها، دون هذا الفيض من المؤثرات المستمدة من الحقائق الواقعة، ومن فطرة الكون وفطرة النفس، وطبائع الوجود. لقد كان الكفار صادقين في إحساسهم بخطر القرآن على صفوفهم، وهم يتناهون عن الاستماع إليه، خيفة أن يجرفهم بتأثيره ويزلزل قلوبهم، وهم يريدون أن يظلوا على الشرك صامدين.

وإن سورة واحدة كهذه، أو بعض سورة، لتحمل من المؤثرات النفسية والعقلية، ما لا يحمله جمع كبير من قوى الشرك والانحراف والفسوق.

لقد أخذ القرآن على النفوس كل

مسلك، ليسير بها نحو الإيمان، وساق إليها أدلة محسوسة ملموسة حيث يقول سبحانه:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾  
[الآية ٣١].

من المطر الذي يحيي الأرض وينبت الزرع ومن طعام الأرض ونباتها وطيورها وأسماكها وحيوانها؛ فمن سطح الأرض أرزاق، ومن أعماقها أرزاق، ومن أشعة الشمس أرزاق، ومن ضوء القمر أرزاق، حتى عفن الأرض كشف فيه عن دواء وترياق.

﴿أَمَّنْ يَلْلَهُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ [الآية ٣١].

يهبهما القدرة على أداء وظائفهما أو يحرمهما، ويصححهما أو يمرضهما ويصرفهما إلى العمل أو يلهيها. وإن تركيب العين وأعصابها، وكيفية إدراكها للمرئيات، أو تركيب الأذن وأجزائها، وطريقة إدراكها للذبذبات، لعالم وخذة يدير الرؤوس عندما يقاس هذا الجهاز أو ذاك، إلى أدق الأجهزة التي يعدها الناس، من معجزات العلم الحديث.

﴿وَمَنْ يُخْرِجَ النَّعَى مِنَ النَّعْيِ وَمَنْ يُخْرِجَ النَّعَى مِنَ النَّعَى﴾ [الآية ٣١].

## الدرس الثالث: قصص الأنبياء

اشتملت الآيات (٧١ - ٩٣) من سورة يونس على ذكر طرف من قصة نوح (ع) مع قومه وقصة موسى (ع) مع فرعون وملئه. وقد تحقق فيهما عاقبة المكذبين، وهلاك المخالفين لأوامر الله وهدى رسله، والقصاص في القرآن يجيء في السياق ليؤدي وظيفة فيه، ويتكرر القصاص في المواضيع المختلفة بأساليب تتفق مع مواضعه من السياق والحلقات التي تعرض منه في موضع تفي بحاجة ذلك الموضع. وتلاحظ فيما عرض من قصتي نوح وموسى (ع) هنا، وفي طريقة العرض، مناسبة ذلك لموقف المشركين في مكة من النبي (ص) والقلة المؤمنة معه، واعتزاز هذه القلة المؤمنة بإيمانها في وجه الكثرة والقوة والسلطان، كما تلاحظ المناسبة الواضحة بين القصص والتعقيبات التي تتخلله وتتلوه.

### قصة نوح

بدأت قصة نوح (ع) من الحلقة الأخيرة، حلقة التحدي الأخير بعد الإنذار الطويل والتذكير والتكذيب،

أي النور من الظلام، والظلام من النور؛ والنهار من الليل، والليل من النهار؛ والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والنبئة من الحبة، والحبة من النبتة؛ والفرخ من البيضة، والبيضة من الفرخ... إلى آخر هذه المشاهدات العجيبة، وإلا فأين كانت تكمن السنبلة في الحبة؟ وأين كان يكمن العود، وأين كانت الجذور والساق والأوراق؟.

### ﴿وَمَنْ يُدْبِرِ الْأُمُورَ﴾

كله في هذا الذي ذكر، وفي سواء من شؤون الكون وشؤون البشر؟ من يدبر الناموس الكوني الذي ينظم حركة هذه الأفلاك على هذا النحو الدقيق؟ ومن يدبر السنن الاجتماعية التي تصرف حياة البشر.

### ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

أفلا تخشون الله الذي يرزقكم من السماء والأرض، والذي يملك السمع والأبصار، والذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، الذي يدبر الأمر كله في هذا وفي سواء.

### ﴿فَلْيَذْكُرُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الآية ٣٢].

هو سبحانه صاحب الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

ولا يذكر في هذه الحلقة موضوع السفينة ولا من ركب فيها ولا الطوفان ولا التفصيلات الواردة في سُور أخرى. لأن الهدف هنا هو إبراز التحدي الذي واجه نوحاً (ع) من قومه، واستعانت به الله تعالى، ونجاته ومن معه وهم قلة، وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة. لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة التي يقصها إلى حلقة واحدة، ويختصر تفصيلات الحلقة الواحدة إلى نتائجها الأخيرة وهي نجاة نوح (ع) ومن آمن معه في السفينة واستخلافهم في الأرض على قتلهم، وإغراق المكذبين على قوتهم وكثرتهم. قال تعالى:

﴿كَذَّبُوا فَتَبٰىنَهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلَيْنِ جَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٧٣﴾﴾

وأما قصة موسى (ع)، فيبدأه السياق من مرحلة التكذيب والتحدي، وينتهيها عند غرق فرعون وجنوده، وإذا كانت قصة نوح (ع) قد ذكرت في أربع آيات فقط، هي الآيات [٧١ - ٧٤] من سورة يونس، فإن قصة موسى (ع) قد ذكرت على نطاق أوسع خلال ثماني

عشرة آية، هي الآيات [٧٥ - ٩٣]. وقد ألفت قصة موسى بالمواقف ذات الشبه، بموقف المشركين في مكة من الرسول (ص) وموقف القلة المؤمنة التي معه. وهذه الحلقة المعروضة هنا من قصة موسى (ع)، مقسمة إلى ثلاثة مواقف يليها تعقيب يتضمن العبرة من عرضها في هذه السورة، على النحو الذي عرضت به. وهذه المواقف الثلاثة تتابع في السياق على هذا النحو:

أولاً: وصول موسى (ع) إلى فرعون ومعه آيات تسع ذكرت في سورة الأعراف، ولكنها لم تذكر في سورة يونس، ولم تفضل لأن السياق لا يقتضيها، والإجمال في هذا الموضوع يُغني، والمهم هو تلقي فرعون وملأه لآيات الله، لقد استقبلوها بالظلم والاستكبار قال تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾

ادعى فرعون أن معجزة موسى سحر ظاهر، وجمع له كبار السحرة، وأرادوا أن يغرِقوا الجماهير في صراع السحر،

ومن آمن معه وهم قليل، وهذه إحدى  
عبر القصة المقصودة:

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ  
عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ  
يَفْتِنَهُمْ﴾ [آية ٨٣].

وفي هذا الموضع تفيد الآيات، أن  
الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم إلى  
موسى (ع) من بني إسرائيل، كانوا هم  
الفتيان الصغار لا مجموعة الشعب  
الإسرائيلي، وأنهم تعرضوا للارهاب  
من فرعون، ولكن موسى ثبتهم على  
الإيمان، ودعا موسى ربه أن ينجي  
المؤمنين، وأن يهلك الكافرين،  
فاستجاب الله دعاءه، وجاء الموقف  
الحاسم. والمشهد الثالث والأخير في  
قصة التحدي والتكذيب، هو غرق  
الطغاة الظالمين، ونجاة من آمن  
بالمرسلين.

\*\*\*

بأن تعقد حلقة للسحر يتحدثون بها  
موسى، وما معه من آيات، تشبه  
السحر في ظاهرها، ليخرجوا منها في  
النهاية بأن موسى ليس إلا ساحراً  
ماهرًا.

والموقف الثاني موقف المبارزة بين  
السحرة وموسى (ع)، فقد ألقى السحرة  
حبالهم وعصيتهم، وتحركت الحبال  
والعصي فَبَهَرَت جميع الناس  
وأرهبتهم، ثم ألقى موسى عصاه في  
الأرض، فانقلب حية هائلة لها شفتان  
طويلتان، شفة في الأرض تبتلع جميع  
الحبال والعصي التي ألقاها السحرة،  
وشفة مرفوعة إلى أعلى. ثم أمسك  
موسى (ع) بعصاه فعادت كما كانت،  
وَبَطَّل السحر وعلا صوت الحق.  
ولكن السياق يختصر المشاهد هنا لأنها  
ليست مقصودة في هذا المجال،  
وَيُسَدِّل الستار ليرفع على موسى (ع)



## ترابط الآيات في سورة «يونس» (\*)

### تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة يُونس بعد سورة الإسراء، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة، فتكون سورة يونس من السور التي نزلت بين الإسراء والهجرة.

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لذكر قصة يونس (ع) فيها، وتبلغ آياتها تسعاً ومائة آية.

### الغرض منها وترتيبها

يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن، وهي في هذا تنقسم إلى أربعة أقسام: أولها في إبطال شبههم عليه، وثانيها في تحديدهم به، وثالثها في دعوتهم إلى تصديقه بطريق الترغيب

والترهيب، ورابعها في خاتمة تناسب مقام هذه السورة.

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة التوبة لأنها خُتمت كما سبق بترغيبهم في الإيمان برسول جاءهم من أنفسهم، وقد ابتدأت هذه السورة بإنكار تعجبهم من أن يوحى إلى رجل منهم، وهذا إلى أن هذه السورة أولى السور المبين، وهي التي تأتي في الترتيب بعد السبع الطوال.

### إبطال شبههم على القرآن

الآيات [١ - ٣٦]

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَلِكْ أَتَيْتُ أَنْكُتِبَ أَنْفَكِي﴾ (١) فأقسم بهذه الحروف أن ما أنزله هو آيات الكتاب الحكيم، ثم

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعدي، مكتبة الآداب بالجميزة المطبعة النموذجية بالحكمة الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

ذكر شبهتهم الأولى على تنزيله، وهي استنكارهم أن ينزل على رجل منهم، لينذرهم بما جاء فيه من البعث والعقاب والثواب، وزعمهم أن هذا سحر باطل لا حقيقة له؛ ثم أجابهم بإثبات قدرته على بعثهم وعقابهم وثوابهم، فذكر، سبحانه، أنه هو ربهم الذي خلق السماوات والأرض ثم استوى على العرش يدبر أمره وحده، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه؛ ولا بُد من رجوعنا إليه ليجزي المؤمنين بالقسط، ويعاقب الكافرين على كفرهم؛ ثم ذُكر أنه هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلم عدد السنين والحساب، وأن في اختلاف الليل والنهار، وما خلقه في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون. ثم أوعد الذين لا يؤمنون ببلقائه بأن مأواهم النار، ووعد المؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار في جنات النعيم ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا مَسْكَنَةً إِلَهُهُمْ وَجَنَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَجْرُهُمْ دَعْوَتُهُمْ أَلَّا يَلْعَنُوا فِيهِ رَبِّي الْمَلَكُوتُ﴾.

ثم ذكر، جلّ شأنه، أنه لو يُعجل لهم العقاب في الدنيا، كما يعجل لهم الخير فيها، لعجل بهلاكهم، ولكنه لم

يرد هذا ليذرهم في طغيانهم يعمهون. ويكون عقابهم، بعد إمهالهم، قطع عذرهم؛ ثم ذكر أنه إذا مس الإنسان ضرّاً، من جنس ما يُنذر به دعاه إلى كشفه، فإذا كشفه عنه، عاد إلى كفره وتبيّ دعاءه له، ليثبت بهذا أن تعجيل العذاب لهم لا يؤثّر فيهم؛ ثم ذكر أنه قد عجل العذاب لمن كفر قبلهم، فلم يؤمنوا وأصرّوا على كفرهم، وأنه جعلهم خلائف في الأرض، من بعدهم، لينظر كيف يعملون.

ثم ذكر تعالى شبهتهم الثانية على تنزيل القرآن، وهي أنهم إذا تئلى عليهم آياته، يطلبون أن يأتيهم بقرآن غير هذا، أو يُبدله لهم، ثم أمره أن يجيبهم بأنه لا يمكنه أن يفعل ذلك من نفسه، لأنه لا يتبع إلا ما يوحى إليه، ويخاف عذاب يوم عظيم إن عصى ربه، وبأنه قد لبث فيهم عمراً من قبله، لا يتلو عليهم كتاباً ولا يجلس إلى معلّم، فلا يمكن أن يكون هذا القرآن منه؛ ثم ذكر أنه لا يوجد من افترى عليه كذباً أو كذب بآياته كما يفعلون، وأوعدهم على هذا، بأنهم لا يفلحون؛ ثم ذكر أنهم يعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويزعمون أنهم شفعاؤهم عنده،

فيمنعون ما يوعدون به من ذلك، وأمره أن يجيبهم بأنهم يخبرونه بشفعاء لا يعلمها في السماوات ولا في الأرض؛ وذكر أن الناس كانوا أمة واحدة على التوحيد، فاختلّفوا فيه بعد اتفاقهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١٧﴾.

ثم ذكر شبهتهم الثالثة على تنزيل القرآن، وهي طلبهم آية عذاب تدل على تنزيله، ثم أمره أن يجيبهم بأن هذا من الغيب الذي لا يعلمه إلا هو، وأمرهم أن ينتظروه لأنه ينتظره ولا يشك في وقوعه؛ ثم ذكر أنه إذا أتاهم بآية عذاب، ثم أذاقهم رحمة بعدها، مكروا فيها ولم يؤمنوا بها، فهكذا يكون حالهم إذا أجيّبوا إلى ما طلبوه منها، وهذّدهم على ذلك بأنه أسرع مكرراً منهم. وبأن رسله يكتبون ما يمكرون ليحاسبهم عليه؛ ثم ضرب لهم مثلاً على مكروهم في هذا، فذكر أنه هو الذي يسيرهم في البر والبحر، حتى إذا كانوا في الفلك، وجرت بريح طيبة، وفرحوا بها، جاءتها ريح عاصف، وجاءهم الموج من كل مكان، وظنّوا أنهم أحيط بهم دعوهم مخلصين ﴿لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَٰذِهِ

لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٨﴾ فلما أنجاهم عادوا إلى بغيتهم ونسوا دعاءهم له؛ ثم ذكر أن بغيتهم لا يعود إلا على أنفسهم، وأنهم يتمتعون به في هذه الحياة ثم إليه مَرْجِعُهُمْ فبينهم بما كانوا يعملون، ثم ضرب لهم مثلاً في شأن هذه الدنيا التي يبغون فيها وينسون الآخرة معها؛ فذكر أن مثلاً كما أنزله من السماء فاختلط به نبات الأرض، حتى إذا أخذت به زُخْرُفُهَا ﴿وَأَزَيَّنَّتْ وَظَلَّتْ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِيرُونَ عَلَيْهَا﴾ ﴿١٩﴾ [الآية ٢٤]، أتاهم أمره ليلاً أو نهاراً فجعلها حصيداً كأن لم تكن بالأمس؛ ثم ذكر أنه يدعو إلى دار السلام التي لا يزول نعيمها كما يزول نعيم الدنيا، وأنه يهدي من يشاء إلى طريق يوصل إليها، وأن للذين أحسنوا في دنياهم الحسنى في تلك الدار وزيادة، والذين كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جزاؤهم سيئة فيها بمثل سيناتهم؛ ثم أمره أن يذكر لهم يوم يَحْشُرُهُمْ جميعاً، ثم يأمرهم أن يلزموا مكانهم هم وشركاؤهم، فيقطع بينهم ويتبرأ شركاؤهم من عبادتهم، وَيُشْهِدُونَ الله على أنهم كانوا عنها غافلين؛ ثم ذكر أنه هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت، وَيُرَدُّونَ إليه وحده، ويضل عنهم آلهتهم.

ثم أمره أن يسألهم من يرزقهم من السماء والأرض؟ ومن يملك السمع والبصر؟ ومن يُخرج الميت من الحي؟ ومن يدبر الأمر؟ وذكر أنهم سيقولون الله، وأنه يجب عليهم حينئذ أن يتقوه، وأن من يكون هذا شأنه يكون ربهم الحق، وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال فأنى يضرّفون؟ ثم أمره أن يسألهم هل من شركائهم من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ وأن يجب عنهم بأنه هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى يؤفكون، ثم أمره أن يسألهم هل من شركائهم من يهدي إلى الحق؟ وأن يجب عنهم بأنه سبحانه هو الذي يهدي للحق، وحينئذ يكون هو الأحق بأن يتبع ممن لا يهدي إلا أن يهدي فما لهم كيف يحكمون ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٧).

### تحديهم بالقرآن

[الآيات ٣٧ - ٥٦]

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨) فانتقل من إبطال

شبههم على القرآن إلى تحديهم به، وذكر أنه ما كان أن يفترى من دونه، ولكنه تصديق لما قبله من الكتاب وتفصيل له، وأنه لا ريب في تنزيله من عنده، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله، وأن يدعوا من استطاعوا من دونه ليساعدهم على الإتيان به؛ ثم ذكر أنهم يكذبون به من غير أن يحيطوا بعلمه، ومن قبل أن يأتهم تأويله، فكذبوا به جهلاً وعناداً، كما كذب الذين من قبلهم؛ ثم ذكر أن منهم من يؤمن به وينكره عناداً، ومنهم من لا يؤمن به جهلاً، وأنه أعلم بهم ومجازيهم على كفرهم، ثم أمره إن كذّبوه بعد تحديهم وعجزهم أن يتركهم ولا يطمع في إيمانهم، لأن منهم من يستمعون إليه فلا يسمعون، ولا يمكنه أن يسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون، ومنهم من ينظر إليه فلا ينظر، ولا يمكنه أن يهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون؛ ثم ذكر أنه لم يظلمهم بهذا، ولكن أنفسهم يظلمون.

ثم أتبع ذلك بوعيدهم، فذكر، سبحانه، أنه يوم يحشرهم يكون حالهم كحال من لم يلبث إلا ساعة من النهار في الدنيا، لأنهم لم ينتفعوا بما مكثوه

والأرض، دليلاً على قدرته على تحقيق وعيده لهم، ولكن أكثرهم لا يعلم ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٥٦).

### دعوتهم إلى تصديق القرآن بالتربيع والترهيب الآيات [٥٧ - ٩٨]

ثم قال تعالى ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) فذكر أنه موعظة منه وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين؛ وأمرهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم به، لأنه خير مما يجمعون، ثم أمرهم أن يخبروه عما رزقهم به، فجعلوا منه حراماً وحلالاً، أكان بإذنه أم كان افتراء عليه؟ ليبين حاجتهم إلى هدايته؛ وذكر أنه إذا كان افتراء عليه، فما يكون جزاؤهم عليه يوم القيامة؟ وأنه ذو فضل عليهم بإنزاله هذا القرآن، الذي يبين لهم حرامه وحلاله، ولكن أكثرهم لا يشكرون، ثم أخذ في وعد النبي (ص) والمؤمنين على الإيمان بما أنزله إليهم، فذكر أنه ما يكون في شأن وما يتلو منه من قرآن إلا كان شاهداً عليهم، وأن كل صغيرة وكبيرة ثابتة عنده في كتاب مبين؛ ثم

فيها، وأنهم يتعارفون بينهم ليوبخ بعضهم بعضاً؛ ثم ذكر أنه إما يرئيه بعض الذي يعدهم من العذاب في الدنيا، أو يتوفايته قبل أن يريه له، فإليه، تعالى، مرجعهم ثم هو شهيد على ما يفعلون، وأن لكل أمة رسولا لا تعذب قبله: ﴿إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٨).

ثم ذكر أنهم سألوا مستهزئين: متى هذا الوعد بالعذاب؟ وأمر النبي (ص) أن يجيبهم بأن أمر ذلك مفوض إليه، جل جلاله، وحده، لأنه لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، ولكل أمة أجل لا تتأخر عنه ولا تتقدم، وبأن يسألهم عن فائدتهم في استعجال هذا العذاب، لأنهم إذا آمنوا عند وقوعه يكون إيمانهم بطريق الإلجاء ولا ينفعهم، ثم يقال لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْفُلْكِ هَلْ تُجِزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٥٩).

ثم ذكر أنهم سألوه عن ذلك العذاب مرة أخرى: أحق هو؟ وأمره أن يجيبهم بأنه حق، وأنهم لا يُغْفَرُونَهُ إذا أراد عذابهم، وأنه إذا أتاهم وكان لهم ملك ما في الأرض لافندوا به؛ ثم ذكر أن له، سبحانه، ما في السماوات

ذكر أن أولياءه منهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٧٦).

ثم نَهَى النبي (ص) أن يحزن لتكذيبهم لما أنزل عليه، لأن العزة له وحده، جَلَّتْ قدرته، وهو يسمع ويعلم تكذيبهم، وله من في السماوات ومن في الأرض، وما يتبعون من دونه شركاء فيه، وإنما يظنون أنهم شركاء من غير أن يكون لهم دليل عليه؛ ثم ذكر أنه سبحانه، هو الذي جعل الليل سكناً والنهار مبصراً، وأن في هذا آية لمن يسمع على أنه لا شريك له، وأنهم زعموا أنه اتخذ ولداً يشاركه في ملكه، وأبطل هذا بأنه هو الغني الذي له ما في السماوات وما في الأرض، فلا يشاركه فيه ولد ولا غيره؛ ثم أمر النبي (ص) أن يخبرهم بأن الذين يفترون عليه الكذب من الولد وغيره لا يفلحون ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٧).

ثم أخذ السياق في ترهيبهم بما حصل للمكذبين قبلهم، فأمر تعالى النبي (ص) أن يتلو عليهم نبأ نوح (ع) وما حصل لقومه من هلاكهم

بالطوفان، وقد سبقت قصتهم في سورة الأعراف، ولكن ما هنا يخالف ما هناك في السياق والأسلوب والزيادة والنقص؛ ثم ذكر أنه بعث من بعده رسلاً إلى قومهم، فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل، وأنه كذلك يطبع على قلوب المعتدين؛ ثم ذكر أنه بعث من بعدهم موسى وهارون، إلى فرعون وقومه، وأنهم لم يؤمنوا به فأغرقهم في البحر، وقد سبقت هذه القصة في سورة الأعراف أيضاً، ولكن ما هنا يخالف ما هناك في السياق والأسلوب والزيادة والنقص، وقد حُتِمت هنا بأنه، سبحانه، بُوِّأ بني إسرائيل مُبْشِراً صَدَقَ من الأرض المقدسة، بعد أن نجاهم من فرعون وقومه؛ وذكر أنهم لم يختلفوا في دينهم حتى جاءهم العلم، وأنه، جلَّ جلاله، يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

ثم أمر النبي (ص) على سبيل التعريض إن كان في شك من هذا القصص أن يسأل أهل الكتاب عنه، ونهاه أن يكون من الذين يكذبون بآياته؛ ثم ذكر أن الذين حقت عليهم كلمته من الأولين لا يؤمنون ولو

جاءتهم كل آية حتى يروا عذابه، وأنه كان عليهم أن يؤمنوا لينفعهم إيمانهم، ثم استثنى منهم قوم يونس (ع) ﴿لَمَّا مَأْمُرُوا كُفُّوا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿١٠٩﴾.

### الخاتمة

### الآيات [٩٩ - ١٠٩]

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠٩﴾ فذكر للنبي (ص) أنه لو شاء، سبحانه، لأمن بما أنزل إليه من في الأرض جميعاً، وأنه لا يصح أن يُكْرِهَ الناس حتى يكونوا مؤمنين، ثم أمرهم أن ينظروا في آياته في السماوات والأرض ليؤمنوا بالنظر فيها؛ وذكر أن هذا لا يُغني عنهم لأنهم لا يريدون الإيمان، وإنما

ينتظرون مثل أيام العذاب التي أهلك فيها الأولين، ثم نتجى رسله والذين آمنوا معهم، ثم أمره إن استمروا بعد هذا على شكهم في دينه، أن يخبرهم بأنه لا يعبد ما يعبدون من دونه، ولكن يعبد الذين يتوفاهم، وبأنه أمر أن يكون من المؤمنين، وأن يقيم وجهه للمدين حنيفاً ولا يكون من المشركين؛ ثم نهاه أن يدعو من دونه ما لا ينفعه ولا يضره، وذكر له أنه إن يَمْسَسْهُ بَصْرٌ فلا كاشف له إلا هو، وإن يُرْذَهِ بخير فلا رادُّ له، ثم أمره أن يذكر لهم أنه قد جاءهم الحق (القرآن) منه، وأن من اهتدى فلفسه ومن ضلَّ فعليها، وأنه ليس عليهم بوكيل ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يوحىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿١٠٩﴾.



## أسرار ترتيب سورة «يونس» (\*)

أقول: قد عرف وجه مناسبتها فيما تقدم في سورة الأنفال. ونزيد هنا: أن مطلعها شبيه بمطلع سورة الأعراف، وأنه سبحانه قال فيها: ﴿أَنذِرِ النَّاسَ وَبِئْسَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الآية ٢] فقدم الإنذار وعممه، وأخر البشارة وخصصها. وقال تعالى في مطلع الأعراف: ﴿إِنذِرْ بِهِ وَذَكِّرْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. فخص الذكري وأخرها، وقدم الإنذار وحذف مفعوله ليغم.

وقال هنا: ﴿إِنَّا رَعَىٰكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الآية ٣]. وقال في الأوانل، أي أوانل الأعراف مثل ذلك<sup>(١)</sup>.

وقال هنا: ﴿يَذُرُّ الْأَمْثَرَ﴾ [الآية ٣]. وقال هناك: ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف/٥٤].

وأيضاً فقد ذكرت قصة فرعون وقومه في الأعراف، فاختصر ذكر عذابهم، وبسط في هذه السورة أبلغ بسط<sup>(٢)</sup>. فهي شارحة لما أجمل في سورة الأعراف منه.

(١) انقضى هذا المبحث من كتاب «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دلو الاعتصام، الطبعة الثانية، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يَكْفُرُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُبْشِرُ الْغُلَّامَ الْفَتَىٰ﴾ [الأعراف/٥٤].

(٣) في عذاب فرعون قال تعالى في الأعراف: ﴿وَأَنفَقْنَا بَيْنَهُمْ مَّاءَ وَغَرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَمْرِهِ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَفَرُوا بِهَا فَبَدَّلَ اللَّهُ عَذَابَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَوَعَدَ اللَّهُ لَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ مَا عَاهَدَ لَهُ فِي الْأَمْنِ أَنَّهُ لَأَكْبَرُ لِلْعَذَابِ﴾ [يونس/٦٢]. وقال في يونس: ﴿وَأَنفَقْنَا فِرْعَوْنَ وَجُودُهُ مَكِيدًا وَعَدْنَا عَنَّا بِمَا كَفَرَ لَمَّا كَذَّبَ الْفِرْعَوْنُ قَالَ لَأَمْلَأَنَّ لَكَ الْقَبْرَ نَجْمًا﴾ [يونس/٩٠ - ٩١].



(\*) مكنونات سورة «يونس»

قال قتادة: بالشام. أخرجه ابن المنذر<sup>(٢)</sup>.

٥ - ﴿إِلَّا ذُرِّيَّتَهُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأنبياء ٨٣].

قيل: الضمير لفرعون. و(الذرية): مؤمن آل فرعون، وامرأة فرعون، وخازنه<sup>(٣)</sup>. وامرأة خازنه.

٦ - ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [الأنبياء ٩٨].

هم أهل قرية «يننوى» بشاطئ دجلة من بلاد الموصل.

أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي وغيره.

١ - ﴿قَدْ صَدَّقَ﴾ [الأنبياء ٢].

قال مقاتل: هو محمد؛ شفيع صدق. أخرجه ابن أبي حاتم.

٢ - ﴿فَكَذَّبْتَ بِكُفْرِكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ [الأنبياء ١٦].

قال قتادة: أربعين سنة. أخرجه ابن أبي حاتم.

٣ - ﴿يَمُضِرْ يُيُوتَا﴾ [الأنبياء ٨٧].

قال مجاهد: يَمْضِرُ الإسكندرية. أخرجه ابن أبي حاتم<sup>(١)</sup>.

٤ - ﴿مُبَوَّأٌ صِدْقٍ﴾ [الأنبياء ٩٣].

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب «مفجعات الأقران في منبهات القرآن» للسبوطي، تحقيق إيد خالد الطباع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) الطبري ٦٨/١١.

(٢) الطبري ١٠٧/١١.

(٣) ١١٤/١١.



## لغة التنزيل في سورة «يونس» (\*)

١ - وقال تعالى: ﴿وَيَبْرِئَ الْيَرَيْنِ مَآسَرًا  
أَنْ لَّهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الآية ٢].

المراد بقوله تعالى: ﴿قَدَمٌ صِدْقٍ﴾ السابقة والفضل والمنزلة الرفيعة، وقد سُمِّيت السابقة «قَدَمًا»، لأن السعي والسبق بالقدَم، كما سُمِّيت النعمة يدًا، لأنها تُعطى باليد، وباعاً لأن صاحبها يبيع بها، ف قيل: لفلان قَدَمٌ في الخير. وإضافته إلى ﴿صِدْقٍ﴾ دلالة على زيادة فضل، وأنه من السوابق العظيمة، وقيل: مقام صدق.

٢ - وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَيِّنَ لَكُمْ مِنْ بَلَدٍ قَدِ انْتَبَهَ لَكُمْ إِلَّا مَا يُؤْتِي الْوَحْيَ﴾ [الآية ١٥].

أراد تعالى بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾،

ما يتسهَّل لي، وما يُمكنني أن أبْدله. أقول: وهذا من معاني الفعل «كان»، وهي التامة غير الناقصة، التي تنصرف إلى معاني عِدَّة.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُؤْتِي﴾ تشتمل على «إن» النافية، وهذا يدعونا إلى أن نقف على هذه الأداة النافية قليلاً.

قال النحاة في باب «ليس» وعَمَلِهَا: إنَّ النافيات: «ما»، و«لا»، و«لات» و«إن»، تعمل عمل «ليس». تعمل عمل «ليس». فأما «إن» النافية فمذهب البصريين والفراء أنها لا تعمل شيئاً، ومذهب الكوفيين، خلا الفراء، أنها تعمل غَمَلٌ «ليس»، وقال به من البصريين أبو العباس المبرد، وأبو

(\*) انتفي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لابراهيم الشاذلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

بكر بن السراج، وأبو علي الفارسي،  
وأبو الفتح بن جني.

واستشهدوا مع ذلك بقول الشاعر:

إِنْ هُوَ مُسْتَوِلِيًّا عَلَى أَحَدٍ  
إِلَّا عَلَى أَوْعَفِ الْمَجَانِبِ  
وقال آخر:

إِنْ الْمَرْءُ مَيَّنَا بِانْقِضَاءِ حَيَاتِهِ  
وَلَكِنْ بَأَنَّ يُبْنَى عَلَيْهِ فَيُخْذَلَا  
وذكر ابن جني في «المحتسب» أنَّ  
سعيد بن جبير، رضي الله عنه، قرأ:  
(إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ  
أَمْثَلُكُمْ) [الأعراف/ ١٩٤].

أقول:

لا أريد أن أناقش عمل «إِنْ» فتلك  
مسألة ضعيفة يَغُوزُهَا الشاهد الآية،  
والشاهد الشعري الصحيح، ذلك بأن  
قراءة سعيد بن جبير قراءة خاصة،  
والقراءات الكثيرة تُجمع على: ﴿إِنْ  
الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَلُكُمْ  
فَادْعُوهُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

فليس في الآية «إِنْ» النافية، بل هي  
«إِنْ» المشبهة بالفعل للتوكيد، المشددة  
النون، وعلى هذا ليس في آي القرآن

«إِنْ» النافية التي تعمل عمل «ليس».

أما البيتان اللذان ادَّعِيَا أنهما شاهدان  
في «إِنْ» النافية العاملة، فهما بيتان  
يتيمان لا يُعرف لهما قائل.

ومجموع هذه الشواهد، على  
ضعفها، يشير إلى أن الأداة غير عاملة  
على النحو الذي أرادوا.

غير أنَّ «إِنْ» النافية قد وجدت في  
آيات القرآن داخلية على الجملة إسمية  
وفعلية تنفيهما، ولكن النفي، في جميع  
الشواهد الآيات، متقضى بـ «إِلَّا».

أقول: ولولا «إِلَّا» هذه، لكان  
السامع والقارئ في حيرة وإشكال من  
أمر هذه الأداة النافية «إِنْ»، لأن هذه  
الأداة على عدة أحوال فهي شرطية،  
وهي مخففة وهي زائدة. غير أن وجود  
«إِلَّا» جعل القارئ والسامع يدرك أنها  
نافية، ودونك طائفة من الآيات التي  
وردت فيها «إِنْ» النافية:

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ  
الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال].

﴿إِنْ أَوْلَاؤُكُمْ إِلَّا الْمُفْقُونَ﴾ [الأنفال/ ٣٤].

(١) وعليها رسم المصحف الشريف.

﴿إِنْ يَشَاءُونَ إِلَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنعام/ ١١٦].

﴿إِنْ يَشَاءُونَ إِلَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ [النجم/ ٢٨].

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس/ ١٨].

وغيرها كثير. ومثل هذه الشواهد قد نجدها في كلام العرب وهي قليلة<sup>(١)</sup>.

٣ - وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَلَةٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ [الآية ٢١].

جواب (إذا) الشرطية الأولى هو (إذا) الثانية التي تفيد المفاجأة، وإنما جعل «إذا» جواباً لكونها بعض الجملة لما فيها من معنى المفاجأة، وهي ظرف مكان، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْطُقُونَ﴾ [الروم/ ٢٢].

ومعناه: وإن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ قُتِلُوا.

ومعنى الآية المتقدمة: وإذا أذقنا الناس رحمة... فكروا.

٤ - وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي

أَفْئَاكٍ وَحَرِجٍ يَبْرِجُ طَبَعُهُ وَفَرَحُوا بِهَا جَعَلْنَاهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [الآية ٢٢].

في هذه الآية ابتداء خطاب وبعد ذلك إخبار عن غائب، لأن كل من أقام يخاطبه جاز له أن يرذه إلى الغائب، قال كثير:

أُسْبِي بِنَا أَوْ أَحْبَسِي لَا مَلُومَةٌ  
لَدُنَا وَلَا مَقْلِبَةٌ إِنْ تَقْلَتِ  
وقال عترة:

شَطُتْ مَرَارَ الْعَاشِقِينَ فَأَصْبَحْتُ  
عَسِيراً عَلَيَّ طَلَابُكِ ابْنَةُ مَخْرِمٍ  
وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ [الآية ٢٣].

المعنى: فلما أنجاهم بغوا<sup>(٢)</sup>.

أقول: ومثل هذا الانتقال من الخطاب إلى الغيبة معروف في لغة التنزيل، وهو غرض ترمي إليه لغة العرب في غير القرآن من كلامهم.

٥ - وقال تعالى: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتْنٍ وَرِزَادَةٍ وَلَا يُرَفَّقُ وَجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذُلٌّ﴾ [الآية ٢٦].

(١) فإنا أن نشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْدَحْكُم مِّنْ شَأْنٍ﴾ [يونس/ ٦٨].

والمعنى: ما عندكم من سلطان، وفي هذه الآية وردت «إن» النافية، ولم يتفرض فيها بـ «إلا».

(٢) مجمع البيان للطبرسي ١٠/١٠١.

الذي يعني «وُجِدَ» فهو مكتفٍ  
بمرفوعه .

٦ - وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ  
جِئِمًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ  
وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [الآية ٢٨] .

قوله تعالى: ﴿فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي:  
ففرقنا بينهم وقطعنا أقرانهم، والوَصَلُ  
التي كانت بينهم في الدنيا، أو فباعدنا  
بينهم بعد الجمع بينهم في الموقف<sup>(١)</sup> .

وقال الفراء: هي ليست من «زَلَّتْ»  
بالضم، وإنما هي من «زَلَّتْ» بالكسر  
وزَلَّتْ الشيء فأنا أزيله إذا فرقت ذا من  
ذا، وأبنت ذا من ذا، وقال فزَلَّلْنَا لكثرة  
الفعل، ولو قُلْ لَقُلْتُ: زِلْ ذا من ذا .

وقرأ بعضهم: (فزائلنا) وهو مثل  
قولك: لا تُصَغِّرْ ولا تُصَاعِزْ .

وقال تعالى: ﴿لَوْ تَرَىٰ ذُنُوبَكُمْ لَعَدَّبْنَا إِلَٰهِيكُمْ  
كَكْرُؤًا﴾ [الفتح/٢٥] .

يقول: لو تميزوا .

أقول: وهذه بعض الذخائر اللغوية  
التي حفظها القرآن، ولولا ذلك لعفا  
الأثر وضاعت فرائد .

٧ - وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي: لا  
يغشى وجوههم غبرة فيها سواد، أي:  
لا يَرَهَقُهُمْ ما يَرهق أهل النار إذكاراً بما  
يُنقذهم منه برحمته . والفعل «رَهَقَ»  
يَرَهَقُ، قد جاء في أربع آيات أخرى  
بهذا المعنى، ومنها:

﴿رُؤُوسُهُمْ يُغَشِّى عَنَّا غِطَّةٌ﴾ [٥٠] تَرَهَّقَهَا  
قَرَّةٌ [١٠] [عبر] .

أقول: وليس لنا في العربية  
المعاصرة إلا الفعل المزيد «أَرَهَقَ»،  
بمعنى «عَذَّبَ» و «أَذَى» و «حَمَلَهُ ما  
لا يطيق» .

على أن الفعل المزيد قد جاء في  
ثلاث آيات منها:

﴿وَلَا تُرْهِقُنِي مِنْ أَمْرِ عَشْرًا﴾ [٧٦]  
[الكهف] .

كما وَرَدَ «الرَّهَقَ» في آيتين من سورة  
الجن منهما:

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يُؤَدُّونَ لِرِجَالٍ  
مِنَ الْإِنِّ قَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن] .

أي: زادوهم إثمًا وغيًا .

ولا بد أن نشير إلى الفعل «كان»

(١) (الكشاف: ٢/٣٤٣) .

الْأَنسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ أَنفُسَهُمْ  
يَظْلِمُونَ ﴿١٨﴾ .

قال الزمخشري<sup>(١)</sup>:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْإِنْسَانَ شَيْئًا﴾،  
أي: لا يَنْقُصُهُمْ شَيْئًا مما يتصل  
بمصالحتهم من بعثة الرسل وإنزال  
الكتب، ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر  
والتكذيب.

أقول: هكذا درج المفسرون عامة  
على تفسير الظلم في هذه الآية، بمعنى  
نَقْصُصِهِمْ حَسَنَاتِهِمْ.

وقد يكون «نقص الحسنات  
والمصالح» ظلماً، ولكني أقول:  
المراد، والله أعلم، أنهم لم يظلموا  
شيئاً، أي: ما كان قليلاً جداً.

وأنا إن أذهب إلى هذا فدليلي ما  
يمكن أن يوحى به استعمال لفظ  
«شيء» في طائفة من أي الذكر  
الحكيم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ  
الْمَسْرِيَّةُ عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ  
الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة/١١٣].

(١) «الكشاف» ٣٤٩/٢.

﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: على شيء يصح  
ويُعتد به.

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ  
الْفُتُوحِ وَأَنبُوعٍ مِّنَ الْأُمُودِ وَالْأَنْفُسِ  
وَالْأَشْرَارِ﴾ [البقرة/١٥٥].

﴿بِشَيْءٍ﴾ بقليل من كل واحد من  
هذه البلايا، وطَرَف منه.

وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كُنَّا لَنَا مِنْ  
الْآلَمَةِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران/١٥٤].

يقول الكافرون بعضهم لبعض هل لنا  
من النصر والفتح والظفر نصيب، قالوا  
ذلك على سبيل التعجب والإنكار،  
أي: أنطمح أن يكون لنا الغلبة على  
هؤلاء، أي: ليس لنا من ذلك شيء.

أقول: والقلة المتضمنة في «شيء»،  
يَغْضُدها التنكير، وزيادة «مِن» الجارة  
قبلها.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا  
يَعْرُوكُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النساء/١١٣].

والمعنى: لا يَضُرُّوكَ بكيدهم  
ومكرهم شيئاً، فإن الله حافظك  
وناصرك.

وقال تعالى: ﴿مَا قُطِنَا فِي الْكَتِبِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام/ ٣٨].

أي: ما تركناه، وقيل: معناه ما قصرنا، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَيْءٍ﴾ أي: مهما كان قليلاً بدلالة التكرير.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَفُوا بِرَبِّهِمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَأَسْتَ يَنْهَنَّهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام/ ١٥٩].

هذا خطاب للنبي (ص) وإعلام له أنه ليس منهم في شيء، وأنه على المباحدة التامة، من أن يجتمع معهم في معنى من مذاهبهم الفاسدة.

وليس خافياً دلالة «الشيء» على القلة في هذه الآية.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ [هود/ ٥٧].

أي: ولا تضرّونه بشئكم شيئاً من ضرر ما، لأنه لا يجوز عليه المضار والمنافع، وإنما تضرّون أنفسكم.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِإِلَهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف/ ٣٨].

أي: ما صحّ لنا معشر الأنبياء أن نشرك بالله أي شيء كان من ملك، أو جنّي، أو إنسي، فضلاً عن أن نشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر.

وقد بقي من معنى «شيء» في إفادة القلة والصغر الكثير في نشر الأدباء وشعرهم طوال العصور إلى عصرنا هذا، وقد نجد من ذلك شيئاً في اللهجات الدارجة.

وقد يتضح هذا المعنى من القلة أن كلمة «شيء» تأتي كثيراً بعد النفي لتؤكد النفي وهي منكرة. يقال: لا أعرف شيئاً ولا أملك من شيء، وما يغنيني عن ذلك من شيء، والله أعلم بما أراد.

٨ - وقال تعالى: ﴿وَمَا يَضُرُّكَ مِنْ شَيْءٍ إِنَّكَ مِنْ أَفْوَاجٍ﴾ [الأنعام/ ٦١].

﴿وَمَا يَضُرُّكَ﴾ (قُرى بالضم والكسر، أي: وما يبعُد وما يغيب).

وفي الحديث: أنهم كانوا في سفر مع النبي (ص) فسمع منادياً، فقال: انظروه تجدوه مُعْزَباً أو مَكْلَناً.

وهو الذي عَزَبَ في إبله أي: غاب. والعازب من الكَلَا: البعيد المطلب، والمُعْزَب: طالب الكَلَا البعيد. والعَزْب المال العازب عن الحي.

أقول: أراد بـ «المال» الإبل وسائر الماشية.

ومن المفيد أن أشير أن «العزيب» بهذا المعنى ما زالت معروفة لدى الرعاة في عصرنا.

٩ - وقال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

في هذه الآية وردت (إن) النافية مرتين، وكنا قد بسطنا القول فيها.

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُصُونَ﴾،

أي: يحزرون ويقدرّون أن تكون شركاء تقديراً باطلاً. ومن المفيد أن نبسط القول في الفعل «خَرَصَ»، الذي كاد أن يطوى خبره في العربية المعاصرة، لولا ما نسمع قليلاً من استعمالهم «تخرّص» بمعنى ابتدع الكذب والأوهام، وهي مثل ذلك في فصيح العربية كما في قوله تعالى:

﴿قُلْ لِّفَرَّصُونَ﴾ [الذاريات].

قال الزجاج: هم الكذّابون. وَتَخْرَصُ فلان على الباطل واخترصه، أي افعله.

والفعل (يخرُصون) في الآية بمعنى الحزر، ولأنه من الذين يتبعون الظن فهو أقرب إلى الوهم والباطل.

ولنعد إلى «الخرص» أيضاً فنقول:

وأصل الخرص: التظنّي فيما لا

تسبّغته، ومنه خَرَصُ النخل والكرم، إذا خَزَرْت الثمر لأن الخزر إنما هو تقدير بظن لا إحاطة، والاسمُ الخَرَص، بالكسر، ومن هنا قيل للكذب خَرَصٌ، لما يدخله من الظنون الكاذبة.

وقد خَرَصْتُ النخل والكرم أخْرَصه خَرَصاً، إذا حَزَرْت ما عليها من الرطب تمرأ، ومن العنب زيبأ.

وفي الحديث عن النبي (ص) أنه أمر بالخَرَص في النخل والكرم خاصة دون الزرع القائم، وذلك لأن إثمارها ظاهرة.

أقول: وما زال «الخرص» معروفاً لتقدير ما على النخل من تمر لدى أهل البساتين في جنوبي العراق.

والذي نلاحظه أن مجموع ما يتصل بهذه اللفظة هو من العامي الدارج تقريباً، ولا نعرفه في الفصيحة المعاصرة.

١٠ - وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِتِلْكَ آيَاتِنَا وَبِئَدَا طَيْوْءَانَا﴾ [الآية ٧٨].

أقول: والمراد بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتِنَا﴾ لتصرفنا.

وأكثر من «لَفَت» استعمالاً «التفت» وتَلَفَّت المزيّدان.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُ﴾ [هود/ ٨١].

وفي الحديث في صفته (ص): فإذا التفت التفت جميعاً، أراد أنه لا يسارق النظر.

وفي الحديث أيضاً: «إن الله يُبغضُ البليغ من الرجال الذي يلفُتُ الكلام كما تَلِفَتُ البقرة الخَلَى»<sup>(١)</sup> بلسانها.

أقول: إن ما في الحديث يذكّر بأقوال المعاصرين مما ولدوه متأثرين باللغات الغربية الأعجمية وهو قولهم: اللف والدوران، وفلان يلف ويدور أي: لا يفصح ويُعَمِّي عن قصد، وهي صفة تقرب من الاحتيال والخداع. ويقولون في العربية المعاصرة: ولهذا يُلِفَتُ النظر، من «أَلَفْتُ» وهو رباعيٌّ مولد لا تعرفه الفصيحة.

وقولهم: «ألفت النظر»، وهو مُلِفَتُ للنظر في العربية المعاصرة، جديد من المجازات التي جدت في العربية، والأصل فيها نقل ما في اللغات الأعجمية.

ومن المفيد أن نقف قليلاً على مادة «لفت»، لنذكر سعة العربية التي جاءت

بالفرائد من هذا الأصل القديم.

قالوا: واللفوت من النساء: التي تكثر التلفت، وقيل: هي التي يموت زوجها أو يطلقها ويدع عليها صبياناً، فهي تكثر التلفت إلى صبيانها.

وقيل: هي التي لها زوج، ولها ولد من غيره، فهي تَلَفَتْ إلى ولدها.

وفي الحديث: لا تَتَزَوَّجُنْ لَفَوْتاً، وهي التي لها وَلَدٌ من زوج آخر، فهي لا تزال تلتفت إليه وتشتغل به عن الزوج.

والألفُ: القويُّ اليد الذي يَلِفَت من عالجه، أي: يلويه.

والألفُ والألفُك في كلام تميم: الأعسر، سُمِّيَ بذلك لأنه يعمل بجانبه الأيمن.

وفي كلام قيس: الأحمق مثل الأغفت، والأنثى لفتاء.

وفوائد أخرى قديمة أشارت إليها المعجمات.

١١ - وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا عَلَيْنَا أَمْرًا﴾ [الآية ٨٨].

أريد بالأمر في الآية الدعاء عليهم،

(١) الخَلَى: الرُّطْبُ من النبات.

والمراد بالطمس على الأموال تغييرها  
عن جهتها إلى جهة لا يُتَفَقَّ بها.

والطمس: الدروس والأَمْحاء،  
وطَمَسَ الطريقُ يَطْمِسُ ويَطْمُسُ  
طُمُوساً: دَرَسَ وأَمْحَى أثره.

وطَمَسْتُهُ طُمُساً يتعدى ولا يتعدى،  
وانطَمَسَ الشيءُ وَتَطْمَسُ: أَمْحَى  
ودَرَسَ.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَاءً لَطَمَسْنَا  
عَلَيْهِمْ أَعْيُنَهُمْ﴾ [يس/٦٦].  
ومعناه: لأعميناهم.

ويكون الطموس بمعنى المسخ،  
كقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ  
وُجُوهَهَا﴾ [النساء/٤٧].

وكما ورد التعبير القرآني: ﴿لَطَمَسْنَا  
عَلَيْهِمْ أَعْيُنَهُمْ﴾ في الآية السابقة، كذلك  
فقد ورد التعبير القرآني: ﴿نَطْمَسْنَا  
أَعْيُنَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَوَدُوهُ  
عَنْ صَيْفِهِ فَنَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القم/٣٧].

أي: مسحناها كسائر الوجه فلم يُرَ  
لها شئ، فلما تغير المعنى صيّر إلى  
المتعدي، ولم يأت بالخافض «على»  
كما في الآية.

وطَمَسُ النجم ذهابُ ضوئه، ومنه

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾  
[المرسلات].

أقول:

والذي لنا من هذا الفعل في العربية  
المعاصرة، هو غير المتعدي  
«انطمس»، لذهاب الأثر والأَمْحاء.

ولنا في اللهجات الدارجة قول  
العامة: طَمَسَ الرجل، وطَمَسَ الشيء،  
وهو الغطس في الماء وغيره كالوَحْل.

١٢ - وقال تعالى: ﴿فَأَسْتَفِيماً وَلَا  
تُفْعَلَى سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أقول: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْعَلَى﴾،  
فعل أمر مسند إلى ألف الاثنين، وحقه  
أن تُحذف منه نون الرفع «نون  
الاثنين».

وهذا يعني أن النون المكسورة  
المشددة هي نون التوكيد.

وَقُرئ بالنون الخفيفة وكَسَرِها لالتقاء  
الساكنين، كما قالوا تشبيهاً بنون الثنية،  
وَقُرئ بتخفيف التاء أيضاً.

١٣ - وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ  
مَأْمُوتٌ فَفَعَّمَهَا بِمَنِّهَا﴾ [الآية ٩٨].

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً﴾، أي: فهلاً كانت  
قرية واحدة.

فمعنى (لولا)، الحَضُّ فهي بمنزلة «هلا»، ومثلها قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَا تَنْزِلُ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِنَا﴾ [الآية ٢٠].

١٤ - وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْعَثُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أقول: حذف الياء من «نُنَاجِ» لغرض

صوتي، وذلك لأن قصر المد والاكتفاء بالكسر مما يتطلبه إسكان اللام في ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾، ليكون بين الجيم واللام صوت قصير هو الكسرة لأن المد الطويل، أي: الياء لا يجعل الكلمتين مرتبطتين على هذا النحو من الإحكام. وإلا فليس من سبب آخر نحوي، أو ما يسمى خط المصحف اقتضى ذلك.

## المعاني اللغوية في سورة «يونس» (\*)

٨٣] فجعل الحسن هو المفعول كالخلق.

وقال تعالى: ﴿وَقَدَرُوا مَنَازِلَهُ﴾ وقد ذكر الشمس والقمر كما قال ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرَٰضَوْا﴾ [التوبة/٦٢].

وقال سبحانه: ﴿كَأَن لَّهُ يَدْعَأُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الآية ١٢] و﴿كَأَن لَّهُ يَشْتَرُوا إِلَّا سَاعَةً﴾ [الآية ٤٥] وهذا في الكلام كثير وهي «كَأَن» الثقيلة ولكن أضمر فيها فُخِفَتْ كما تخفف أَنْ ويضمّر فيها، وإنما هي «كَأَنَّهُ لَمْ» وقال الشاعر<sup>(٢)</sup> [من الخفيف وهو الشاهد الثامن والعشرون بعد الممتنين]:

قال تعالى: ﴿أَنْ لَّهُمْ قَدَمٌ يَدْفِقُ﴾ [الآية ٢] القدم ههنا: التقديم، كما تقول: «هؤلاء أهل القَدَم في الإسلام» أي: الذين قدّموا خيراً فكان لهم فيه تقديم<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَقَدَرُوا مَنَازِلَهُ﴾ [الآية ٥] ثقيلة ﴿وَقَدَرُوا﴾ مما يتعدى إلى مفعولين، كأنه «وجعله منازل». وقال تعالى: ﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا﴾ [الآية ٥] فجعل القمر هو النور كما تقول: «جَعَلَهُ اللَّهُ خَلْقًا» وهو «مخلوق» و«هذا الذرّهم ضَرَبُ الأمير». وهو «مضروب». وقال جلّ شأنه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة/

(١) انتهى هذا البحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(٢) نقله في الصحاح «قدم» والبحر ٥/١٣٠.

(٣) هو زيد بن عمرو بن نفيل، الكتاب وتحصيل عين الذهب ١/٢٩٠، والخزانة ٣/٩٥، واللسان «وباء» وقيل هو نبيه بن الحجاج «اللسان» أيضاً.

وَيَكُنْ لَهُ نَسَبٌ يُحْسَبُ  
بَنُوبٌ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِيْشْ غَيْشُ ضُرٍّ  
وكما قال (١) [من الهزج وهو الشاهد  
التاسع والعشرون بعد الميتين]:

[وَصَدْرٌ مُثْبِرٌ فِي الثُّخَيْرِ]  
كَأَنَّ ثُدْيَاهُ حُقَانٌ (٢)

أي: كأنه ثُدْيَاهُ حُقَانٌ. وقال بعضهم  
«كَأَنَّ ثُدْيَيْهِ» فحذفها وأعملها، ولم  
يضمير فيها.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّكَاشُ إِلَّا  
أُتَىٰ وَجِدَةً﴾ [الآية ١٩] على خبر «كان»  
كما ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً﴾ [يس/٢٩]  
و٥٣. أي «إِنْ كَانَتْ تِلْكَ إِلَّا صَيْحَةً  
واحدة».

وقال تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِمْ بِآيَاتِهِمْ  
تَجَرُّوْا مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الآية ٩] كَانَ  
(تَجَرُّوْا) مبتدأ مفقولة من الأول.

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي  
الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ [الآية ٢٢]، وإنما

قيل: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ لَأَنَّ (الْفُلْكَ) يكون  
واحداً وجماعة. قال تعالى: ﴿فِي  
الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء/١١٩] ويس/  
٤١] وهو مذكر. وأما قوله جَلَّ شأنه  
﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ فجوابه قوله  
سبحانه: ﴿جَاءَتْهَا رَيْحٌ فَاصْتَفَتْ﴾ [الآية  
٢٢].

وأما قوله تعالى: ﴿دَعَا اللَّهَ﴾ [الآية  
٢٢] فجواب لقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُمْ  
أَلْحِيطَ بِهِمْ﴾ [الآية ٢٢] وإنما قال  
﴿بِهِمْ﴾ وقد قال ﴿كُنْتُمْ﴾ بذكر  
الغائب ومخاطبته. قال الشاعر (٣) [من  
الطويل وهو الشاهد العاشر بعد المئة]:

أَسِيبِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ  
لَدَيْنَا وَلَا مُثْلِيَّةٌ أَنْ تَقْلُبَ

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا بِقَٰعِكُمْ عَلٰٓى  
أَنفُسِكُمْ مِّنْعَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾ [الآية ٢٣]  
أي: وذلك متاعُ الحياة الدنيا، وأراد  
«مَتَاعَكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا».

وقال تعالى: ﴿كَلَّا أَتْرَكْتَهُ﴾ [الآية  
٢٤] أي: كمثل ماء.

(١) هذا الشاهد أحد الخمسين التي لا يعرف قائلها في الكتاب.

(٢) صدره إحدى صور وروده في المراجع المذكورة، وهي الكتاب ٢٨١/١ و٢٨٣ وتحصيل عين الذهب، وشرح  
ابن عقيل ٣٣٤/١، وشرح الآيات للغارني ٢٥٢، والخزانة ٣٥٨/٤، واللسان «أين» مرتين.

(٣) هو كثير بن عبد الرحمن الخزاعي المعروف بـ «كثير عزة» وقد سبق الاستشهاد بهذا الشاهد.

وقال تعالى: ﴿وَأُزَيِّنَتْ﴾ [الآية ٢٤] أي «وَتَزَيَّنْتُ» ولكن أدغمت التاء في الزاي لقرب المخرجين، فلمّا سكن أولها زيد فيها ألف وصل، فصارت ﴿وَأُزَيِّنْتُ﴾ ثقبلة «أُزَيِّنَا» يريد المصدر وهو من «التزيين» وإنما زيدت الألف بالإدغام حين أدغم ليصل الكلام، لأنه لا يُبتدأ بساكن.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [الآية ٢٦]، لأنه من «رَهَقَ» «يَرْهَقُ» «رَهَقًا».

وقال تعالى ﴿فَأَتَوْا بِسُورٍ يَنْفِلُ﴾ [الآية ٣٨] وهذا، والله أعلم، «على مثل سُورَتِهِ» وألقى <sup>(١)</sup> السورة كما قال: ﴿وَسَبَّلِ الْفَرِيَّةَ﴾ (يوسف/ ٨٢) يريد «أفهل القرية».

وقال تعالى: ﴿جَزَاءً سَيِّئَةٍ يَنْفِلُهَا﴾

[الآية ٢٧] وزيدت الباء، كما زيدت في قولك «بِحَسْبِكَ قَوْلُ السُّوءِ».

وقال تعالى في قراءة من قرأ: ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [الآية ٢٧] فالعين <sup>(٢)</sup> ساكنة لأنه ليس جماعة «الْقِطْعَةُ» ولكنه «قِطْعٌ» أَسَمٌ على حياله <sup>(٣)</sup>. وقرأ عامة الناس ﴿قِطْعًا﴾ <sup>(٤)</sup> يريدون به جماعة «الْقِطْعَةُ» ويستند الأول إلى قوله تعالى: ﴿مُظْلِمًا﴾ لأن «الْقِطْعَ» واحد فيكون «المُظْلِمُ» من صفته. والذين قالوا «الْقِطْعَ» يعنون به الجمع، وقالوا نَجْعُلُ ﴿مُظْلِمًا﴾ حالاً لـ ﴿أَلَيْلٍ».

وقال تعالى: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ [الآية ٢٨] في معنى «أَنْتُمْظَرُوا أَنْتُمْ وشركاؤكم».

وقال تعالى: ﴿هَٰذَاكَ بَلَلُوا كُلُّ نَفْسٍ

(١) نقله في الهمع ١/١٢٧ والمغني ١/١١٠ وشرح المفضل لابن يعيش ٨/١٣٩ و٢/١١٥ وشرح الرضي على الكافية ٢٩٢ والبحر ٥/١٤٧ و١٤٨.

(٢) يقصد عين الكلمة في ميزانها وهو حرف الطاء.

(٣) هي في الطبري ١١/١١٠ إلى بعض متأخري القراء؛ وفي السبعة ٣٢٥؛ والكشف ١/٥١٧، والتيسير ١٢١ والجامع ٨/٣٣٣ والبحر ٥/١٥٠ إلى ابن كثير والكسائي.

(٤) في معاني القرآن ١/٤٦٢ أنها قراءة العامة، وكذلك نسب في الطبري ١١/١١٠ إلى عامة قراء الأمصار، وفي السبعة ٣٢٥ إلى نافع وأبي عمرو وعاصم وابن عامر وحزمة، وفي البحر ٥/١٥٠ إلى السبعة ممن لم يأخذ بالسابقة، وإلى ابن أبي عبلة، وفي الكشف ١/٥١٧ والتيسير ١٢١ إلى غير ابن كثير والكسائي. وعلى هذه القراءة رسم المصحف.

مَا أَسْلَفْتُ ﴿[الآية ٣٠] أَي: تَحْزِرُ. وقرأ بعضهم<sup>(١)</sup> تَتْلُو أَي: تَتَّبِعُهُ.

وقال تعالى: ﴿أَنْتَ يَمْلِكُ الْأَمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ [الآية ٣١]. فَإِنْ قُلْتَ: «كَيْفَ دَخَلْتَ (أَمْ) عَلَى (مَنْ) فَلَان (مَنْ) لَيْسَتْ فِي الْأَصْلِ لِلْإِسْتِفْهَامِ وَإِنَّمَا يَسْتَفْهِي بِهَا عَنِ الْأَلْفِ، فَلِذَلِكَ أَدْخَلْتَ عَلَيْهَا (أَمْ)، كَمَا أَدْخَلَ عَلَى (هَلْ) حَرْفَ الْإِسْتِفْهَامِ وَإِنَّمَا الْإِسْتِفْهَامُ، فِي الْأَصْلِ الْأَلْفُ. وَ(أَمْ) تَدْخُلُ لِمَعْنَى لَا بِدُونِهِ. قَالَ الشَّاعِرُ<sup>(٢)</sup> [مِنْ الطَّوِيلِ وَهُوَ الشَّاهِدُ الثَّلَاثُونَ بَعْدَ الْمُتَيْنِ]:

أَبَا مَالِكٍ هَلْ لُئِمْتَنِي مُذْ خَضَعْتَنِي  
عَلَى الْقَتْلِ أَمْ هَلْ لَأَمْنِي لَكَ لَايْمٌ<sup>(٣)</sup>  
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ  
الْمُجْرِمُونَ﴾، إِنْ شِئْتَ جَعَلْتَ (مَاذَا)  
اسْمًا بِمَنْزِلَةِ (مَا) وَإِنْ شِئْتَ جَعَلْتَ (ذَا)  
بِمَنْزِلَةِ «الَّذِي».

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعِجِلُونَكَ أَحَقُّ هُوَ﴾ [الآية ٥٣] كَأَنَّهُ قَالَ «وَيَقُولُونَ أَحَقُّ هُوَ». وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ قَدْ ذَلَّلْتُ الْقَوَارِحَ هُوَ خَيْرٌ مِنَّا يَجْمَعُونَ﴾. وقرأ بعضهم (تَجْمَعُونَ)<sup>(٤)</sup> أَي: تَجْمَعُونَ يَا مُعْشِرَ الْكَافِرِ. وقرأ بعضهم (فَلْتَفَرِّحُوا)<sup>(٥)</sup>

(١) فِي مَعْنَى الْقُرْآنِ ٤٦٣/١ نَسَبَتْ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَفِي الطَّبْرِيِّ ١١/١١٢ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَبَعْضُ أَهْلِ الْحِجَازِ، وَفِي السُّبُحَةِ ٣٢٥ وَالتَّبْسِيرِ ١٢١ وَالْجَامِعِ ٨/٣٣٤ إِلَى حُمْزَةٍ وَالْكَسَاثِيِّ، وَفِي الْبَحْرِ ٥/١٥٣ إِلَى الْأَخْوَيْنِ وَزَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ.

(٢) هُوَ فِي الْكِتَابِ ٤٨٦/١ زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ، وَفِي تَحْصِيلِ عَيْنِ الذَّهَبِ وَالدَّرَرِ اللَّوَامِعِ ٢/١٧٨ هُوَ الْجَخْلَفُ بْنُ حَكِيمِ السُّلَمِيِّ، وَكَذَلِكَ فِي الْأَغَانِي ١١/٦٠.

(٣) فِي الْأَغَانِي وَالدُّرَرِ بِـ «إِذَا» «مَذً» وَفِي الدُّرَرِ «فِيكَ» بِدَلِّ «مَكَ».

(٤) فِي الطَّبْرِيِّ ١١/١٢٦ إِلَى أَبِي بَنْ كَعْبٍ فِي رِوَايَةٍ، وَإِلَى أَبِي جَعْفَرٍ الْقَائِرِيِّ، وَفِي السُّبُحَةِ ٣٢٧، وَالْكَشَفِ ١/٥٢٠، وَالتَّبْسِيرِ ١٢٢، وَالْجَامِعِ ٨/٣٥٤، إِلَى ابْنِ عَامِرٍ، وَفِي الشَّوَاذِ ٥٧ إِلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَأَبِي جَعْفَرٍ الْمَدَنِيِّ، وَأَبِي النَّتَاجِ، كَذَا، وَفِي الْبَحْرِ إِلَى أَبِي، وَابْنِ الْقَعْقَاعِ، وَابْنِ عَامِرٍ، وَالْحَسَنِ عَلَى مَا زَعَمَ هَارُونُ، وَرَوَيْتُ عَنْ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ.

(٥) نَسَبَتْ فِي مَعْنَى الْقُرْآنِ ٤٦٩/١ إِلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَفِي الطَّبْرِيِّ ١١/١٢٦ إِلَى أَبِي فِي رِوَايَةٍ، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَأَبِي جَعْفَرٍ الْقَائِرِيِّ وَفِي الشَّوَاذِ ٥٧ إِلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَأَبِي النَّتَاجِ. كَذَا، وَأَبِي جَعْفَرٍ الْمَدَنِيِّ، وَفِي الْمُحْتَسَبِ ٣١٣ إِلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، وَعُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ، وَأَبِي بَنْ كَعْبٍ، وَالْحَسَنِ، وَأَبِي رَجَاءٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَالْأَعْرَجُ وَأَبِي جَعْفَرٍ، بِخِلَافِ، وَالسُّلَمِيِّ وَقَتَادَةَ وَالجَحْدَرِيِّ، وَهَلَالَ بْنِ بِسَافٍ وَالْأَعْمَشُ بِخِلَافِ، وَالْعَبَّاسُ ابْنُ الْفَضْلِ وَعُمَرُ بْنُ فَاذَلٍ، وَفِي الْكَشَفِ ١/٥٢٠ إِلَى ابْنِ عَامِرٍ وَغَيْرِهِ. وَفِي الْجَامِعِ ٨/٣٥٤ إِلَى الْحَسَنِ، وَزَيْدِ بْنِ الْقَعْقَاعِ، وَيَعْقُوبَ وَغَيْرِهِمْ، وَفِي الْبَحْرِ ٥/١٧٢ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ، وَأَبِي، وَأَنْسَ، وَالْحَسَنِ، وَأَبِي رَجَاءٍ،

وهي لغة للعرب رديئة، لأن هذه اللام إنما تدخل في الموضع الذي لا يُقدَّر فيه على «أَفْعَلْ»؛ يقولون: «لِيَقْتُلَ زَيْدٌ» لأنك لا تقدر على «إِفْعَلْ». ولا تدخل اللام إذا كلمت الرجل فقلت «قُلْ» ولم تحتج إلى اللام<sup>(١)</sup>. وقوله تعالى: ﴿فَإِذْكَ﴾ بدل من قوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

وقال تعالى في قراءة من قرأ: ﴿وَمَا يَغْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ [الآية ٦١] على تقدير:

«وَلَا يَغْرُبُ عَنْهُ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ» بالرفع<sup>(٢)</sup>. وقرأ أكثرهم (وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ)<sup>(٣)</sup> بالفتح أي: (ولا من أصغر من ذلك ولا من أكبر) ولكنه «أَفْعَلْ» ولا ينصرف، وهذا أجود في العربية، وأكثر في القراءة، وبه نقرأ.

وقال تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [الآية ٧١] تقول العرب: أجمعتُ أمري أي أجمعتُ عليه وقرأ أقول كذا، أي عزمته عليه وقرأ بعضهم (وَشُرَكَاءُكُمْ)<sup>(٤)</sup> والنصب أحسن<sup>(٥)</sup> لأنك لا تُجري الظاهر

■ وابن هرمز، وابن سيرين، وأبي جعفر المدني، والسلمي وقتادة، والجحدري، وحلال بن يساف، والأعمش، وعمرو بن فائد، والعباس بن الفضل الأنصاري، ورويت عن النبي الكريم، وأنها وردت عن يعقوب، وكذلك نسبت إلى ابن عطية، وابن القمقاع وابن عامر، والحسن، على ما زعم هارون. أما القراءة مالياً، فنسبت في معاني القرآن ٤٦٩/١، والبحر ١٧٢/٥ إلى العامة، وخض منهم الجامع ٣٥٤/٨ ابن عامر، وكذلك في الكشف ٥٢٠/١، وفي الطبري ١٢٦/١١ إلى فراء الأمصار، وإلى أبي النجاش، وأبي بن كعب في رواية.

(١) نقله في الصحاح ٥٦٩.

(٢) في الطبري ١٣٠/١١ هي قراءة بعض الكوفيين، وفي السبعة ٣٢٨ إلى حمزة وحده، كذلك في الكشف ٥٢١/١ والتبصير ١٢٣، والبحر ١٧٤/٥، وزاد في الجامع ٣٥٦/٨ يعقوب.

(٣) في الطبري ١٣٠/١١ إلى عامة القراء، وكذلك في البحر ١٧٤/٥، وفي الكشف ٥٢١/١، والتبصير ١٢٣ إلى غير حمزة، وفي السبعة ٣٢٨ إلى ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وعاصم وابن عامر، والكسائي.

(٤) في معاني القرآن ٤٧٣/١ هي قراءة الحسن، وكذلك في الطبري ١٤٢/١١، وفي الشواذ ٥٧ إلى الحسن ويعقوب وسلام، وفي البحر ١٧٩/٥ إلى أبي عبد الرحمن والحسن وابن أبي اسحاق وعيسى بن عمر وسلام ويعقوب. وفي الجامع ٣٦٢/٨ إلى الحسن وابن أبي اسحاق ويعقوب وفي المنتخب ٣٦٢/٨ إلى أبي عبد الرحمن والحسن وابن أبي اسحاق وعيسى الثقفي وسلام ويعقوب وأبي عمرو.

(٥) في الطبري ١٤٢/١١ إلى فراء الأمصار، وفي البحر ١٧٩/٥ إلى الزهري والأعمش والجحدري وأبي رجاء والأعرج، والأصمعي عن نافع ويعقوب بخلاف، وفي المنتخب ٣١٤ إلى الأعرج وأبي رجاء وعاصم والجحدري والزهري والأعمش، وفي الجامع ٣٦٢/٨ إلى عاصم والجحدري.

المرفوع على المضمَر المرفوع، إلا أنه قد حَسُنَ، في هذا، للفصل الذي بينهما، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَدَا كُنَّا تَرْبَاً وَأَبَاؤُنَا﴾ [النمل/٦٧] فَحَسُنَ، لأنه فصل بينهما بقوله سبحانه ﴿تَرْبَاً﴾. وقرأ بعضهم (فاجتمعوا)<sup>(١)</sup>. وبالمقطوع نقرأ.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَنتُمْ عَلَيْكُمْ غِنًى﴾ [الآية ٧١] ﴿يَكُنْ﴾ جَزَمَ بالنهي.

وقال تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْحَرُّ هَذَا﴾ [الآية ٧٧] قرئ ﴿يَحَرُّ﴾ على الحكاية لقولهم، كما ورد في التنزيل: ﴿أَيْحَرُّ هَذَا﴾، وقول موسى (ع) ﴿أَتَقُولُونَ﴾ ﴿أَيْحَرُّ هَذَا﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى: ﴿لَتَلْفِنَنَّ﴾ [الآية ٧٨] من

لَفَتَ يَلِفْتُ، نحوأنا أَلَفْنُهُ، «لَفْنَا» أي: أَلَوِيهِ عَنْ حَقِّهِ.

وقال تعالى: ﴿مَا يَجْتُمِرُ بِهِ السَّيْحَرُ﴾ [الآية ٨١] أي: (الذي جِثْمُهُ بِهِ السَّيْحَرُ) وقرأ بعضهم (السَّحَرُ) بالاستفهام<sup>(٣)</sup>.

وقال سبحانه: ﴿عَلَى حَوْرَيْنِ رِعَونَ وَمَلَأْنَاهُمْ﴾ [الآية ٨٣] أي مَلَأَ الذَّرِيَّةَ<sup>(٤)</sup>.

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا عَلَى أَمْرِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ [الآية ٨٨] بنصب ﴿يُؤْمِنُوا﴾ لأنه جواب الدعاء بالفاء.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا يُخْلِلُوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ [الآية ٨٨] أي: فَضَّلُوا. كما قال سبحانه: ﴿فَالْقَطْعَةُ مَالٌ فَرَقُونَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [الفصم/٨] أي: فكان. وهم لم يلتقطوه ليكون

(١) قراءة وصل الهمزة هي في السبعة ٣٢٨ الى نافع، وفي المحتسب ٣١٤ الى الأعرج، وأبي رجاء، وعاصم الجحدري، والزهري، والأعمش، واقتصروا في الجامع ٣٦٢/٨ على عاصم الجحدري، وفي البحر ١٧٩/٥ الى الزهري، والأعمش، والجحدري، وأبي رجاء، والأعرج، والأصمعي عن نافع ويقرب بخلافه.

(٢) نقله في إعراب القرآن ٤٦٣/٢، والجامع ٤٦٦/٨.

(٣) في معاني القرآن ٤٧٥/١ نسبت الى مجاهد وأصحابه، وفي الطبري ١٤٨/١١ الى مجاهد، وبعض المدنيين، والبصريين، وفي السبعة ٣٢٨، والكشف ٥١٦/١، والجامع ٣٦٨/٨، الى أبي عمرو، وزاد في البحر ١٨٢/٥ مجاهداً وأصحابه، وابن القعقاع. أما القراءة بلا استفهام، ففي الطبري ١٤٨/١١ الى عامة قراء الحجاز والعراق، وفي السبعة ٣٢٨، والكشف ٥٢١/١، والجامع ٣٦٨/٨ غير أبي عمرو، وفي البحر ١٨٣/٥ الى غير من أخذ بالأخرى من السبعة.

(٤) نقله في المشكل ٣٥٣/١، وإعراب القرآن ٤٦٤/٢، والجامع ٣٧٠/٨، والبحر ١٨٣/٥، والبيان ١/١٤١، والاملاء ٣٢/٢.

لهم عدوًا وحرزنًا، وإنما التقطوه فكان،  
هذه اللام تجيء في هذا المعنى.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُوا﴾ عطف  
على ﴿يُحْسِنُوا﴾ في الآية ٨٨ نفسها،  
من سورة يونس.

وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ يَدُكَ﴾  
[الآية ٩٢] قرأ بعضهم (تُنْجِيكَ)<sup>(١)</sup> وقوله  
سبحانه: ﴿يَدُكَ﴾ أي: لا روح  
فيه<sup>(٢)</sup>.

وقال بعضهم معنى: ﴿تُنْجِيكَ﴾  
نرفعك على نجوة من الأرض. وليس  
قولهم: «أَنَّ الْبَدَنَ هَهُنَا» «الدين» بشيء  
ولا له معنى<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ

مَأْيَةٍ﴾ [الآية ٩٧] بتأنيث فعل الكل، عند  
إضافته إلى الآية، وهي مؤنثة<sup>(٤)</sup>.

وقال تعالى: ﴿لَأَمِّنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ  
كُلُّهُمْ جِمْعًا﴾ [الآية ٩٩] فجاء بقوله  
﴿جِمْعًا﴾ تأكيدًا، كما في قوله  
سبحانه: ﴿لَا تَسْخَدُوا لِلْهَيْبِ اثْنَيْنِ﴾  
[النحل/٥١] ففي قوله: ﴿الْهَيْبِ﴾ دليل  
على الإثنتين<sup>(٥)</sup>.

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِي  
الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: «كذلك نُنجي  
المؤمنين حَقًّا عَلَيْنَا».

وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَوْفَرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ  
حَنِيفًا﴾ [الآية ١٠٥] أي: وأبرزت أن أقم  
وجهك للدين.

(١) في البحر ١٨٩/٥ إلى يعقوب. ونقله في إعراب القرآن ٤٦٦/٢، والجامع ٣٨٠/٨.

(٢) نقله في الصحاح «بدن»، ونقله في الجامع ٣٨٠/٨.

(٣) نقله في الجامع ٣٨٠/٨.

(٤) نقله في زاد المسير ٦٤/٤.

(٥) نقله في زاد المسير ٦٧/٤، والجامع ٣٨٥/٨.



## لكل سؤال جواب في سورة «يونس» (\*)

فإن قيل: قد أنكر الله تعالى على الكفار احتجاجهم بمشيئته، في قوله سبحانه: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام/١٤٨]. ولهذا لا يجوز للعاصي أن يحتج في وجود المعصية منه، بقوله لو شاء الله ما فعلت هذه المعصية فلا تقيموا عليّ حدها؛ فكيف ورد في التنزيل على لسان النبي (ص): ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا كَلَلْتُكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام/١٦]؟

قلنا: النبي (ص) قال هذه الجملة بأمر الله تعالى، لأن الله عز وجل قال لـــــــه: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا كَلَلْتُكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ وللعبد أن يحتج بمشيئة الله إذا أمره الله أن يحتج بها، أما ما ليس

إن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿يَقِيلُ الْأَيْتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، والله تعالى فضل الآيات للعلماء وسواهم.

قلنا: لما كان تفصيل الآيات مخصوصاً بالعلماء، وكان انتفاعهم بالتفصيل أكثر من انتفاع سواهم به، فقد أضاف التفصيل إليهم وخصهم به.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿سَلَّمْنَا وَمَا خَرُّ دَعْوَتُهُمْ أَنْ كَلَّمْتُ إِلَهَ رَبِّ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾، مع أن أقوال أهل الجنة وأحوالهم لا آخر لها، لأن الجنة دار الخلود؟

قلنا: معناه آخر دعائهم في كل مجلس، دعاء أو ذكر أو تسبيح، فإن أهل الجنة يستبحون ويذكرون للتنعم والتلذذ بالذكر والتسبيح.

(\*) انقضي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

كذلك، فليس له أن يحتج بمجرّد المشيئة، وما أوردتموه كذلك.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَجْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَخُونُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الآية ٢٣].

والبغي لا يكون إلا بغير الحق، لأن البغي هو التعدي والفساد، من قولهم بغى الجرح إذا فسد، كذا قاله الأصمعي، فما فائدة التقييد؟.

قلنا: قد يكون الفساد بالحق، كاستيلاء المسلمين على أرض الكفار، وهدم دورهم، وإحراق زروعهم، وقطع أشجارهم، كما فعل رسول الله (ص) ببني قريظة.

فإن قيل: لِمَ شبه الله تعالى الحياة الدنيا بماء السماء دون ماء الأرض، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ﴾ [الآية ٢٤]؟

قلنا: لأن ماء السماء وهو المطر، لا تأثير لكسب العبد فيه، ولا حيلة للعبد في زيادته ونقصانه، كما أن الحياة لا حيلة للعبد في زيادتها ونقصانها.

الثاني: أن ماء السماء يستوي فيه جميع الخلائق، الوضع والشريف، الغني والفقير، الحيوان وغيره أيضاً كالمدّر

والحجر والشوك والتمر، كما أن الحياة كذلك، فكان تشبيه الحياة بماء السماء أشد مناسبة ومطابقة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾ [الآية ٢٨] وقال في موضع آخر ﴿وَلَا يُكَلِّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [البقرة/ ١٧٤].

قلنا: يوم القيامة مواقف ومواطن، ففي موقف لا يكلمهم، وفي موقف يكلمهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿يُؤَيِّدُ لَا يُثَلِّ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنَّا وَلَا جَبْنَ﴾ [الرحمن] وقوله ﴿وَرَبِّكَ لَسَتَلَذَّهُمْ أَجْمِينَ﴾ [الجن] الثاني المراد أنه لا يكلمهم كلام إكرام بل كلام توبيخ وتقرع.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية ٣١] إلى آخر الآية، يدل على أنهم معترفون أن الله تعالى هو الخالق والرازق والمدبّر لجميع المخلوقات، فكيف يعترفون بذلك كله ثم يعبدون الأصنام؟

قلنا: كانوا، في عبادتهم الأصنام، يعتقدون أنهم يتقربون بها إلى الله سبحانه؛ فطائفة منهم كانت تقول نحن

لا تتأهل لعبادة الله تعالى بغير واسطة، لعظمة إجلاله، ونقصنا وحقارتنا، فجعلوا الأصنام وسائط، كما قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر/ ٣] وطائفة كانت تقول: نتخذ أصناماً على هيئة الملائكة، ونعبدهم، لتشفع لنا الملائكة عند الله، ليقربونا إلى الله، وطائفة كانت تقول: الأصنام قبله لنا في عبادة الله، كما أن الكعبة قبله في عبادته، وطائفة، وهي الأكثر، كانت تقول: على كل صنم شيطان موكل به من عند الله، فمن عبد الصنم حق عبادته، قضى الشيطان حوائجه على وفق مراده، بأمر الله، ومن قصر في عبادة الصنم أصابه الشيطان بنكية بأمر الله؛ فكل الطوائف من عبدة الأصنام، كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله، والتقرب إليه، ولكن بطرق مختلفة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَإِنَّا نَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [٥١] فحصر سبحانه شهادته على أفعالهم، في الآخرة، مع أنه شهيد على أفعالهم في الدنيا والآخرة؟

قلنا: ذكر الشهادة وأراد مقتضاها

ونتيجتها، وهو العقاب والجزاء، فكأنه قال: ثم الله يعاقب على ما يفعلون، أو مجاز على ما يفعلون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَسْكُنُهُ اللَّهُ﴾ [البقرة/ ١٩٧] ونظائره في القرآن العزيز كثيرة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَبْنِئْنَا أَوْ تَهْكِمُنَا﴾ [الآية ٥٠] ولم يقل ليلاً أو نهاراً، وهو أظهر في المطابقة، استعمالاً مع النهار في القرآن العزيز وغيره؟

قلنا: لأن المعهود المؤلف في كلام العرب، عند ذكر البطش والإهلاك والوعيد والتهديد، ذكر لفظ البيات سواء أقرن به النهار أم لم يُقرن، فلذلك لم يقل ليلاً.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿مَآذًا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [٥٥] أي ماذا يستعجلون منه، وأول الآية للمواجهة؟

قلنا: أراد بذكر المجرمين الدلالة على موجب ترك الاستعجال، وهو الإجماع، لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ويفزع من مجيئه، وإن أبطأ، فضلاً عن أن يستعجله.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ وِرَثَتِي مِنْ دُونِكِ﴾ [البقرة ٥٨] ولم يقل فبذيتك، والمشار إليه اثنان: الفضل والرحمة.

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة في قوله تعالى ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة/٦٨].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [البقرة ٦٠] تهديد، لأن فيه محذوفاً تقديره: وما ظنهم أن الله فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم، فكيف يناسبه قوله تعالى بعده: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾.

قلنا: هو مناسب، لأن معناه أن الله لذو فضل على الناس، حيث أنعم عليهم بالعقل، والوحي، والهداية، وتأخر العذاب، وفتح باب التوبة؛ فكيف يفترون على الله الكذب مع توافر نعمه عليهم؟

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ [البقرة ٦١]، فأفرد، ثم قال في الآية نفسها ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ فجمع، والخطاب للنبي (ص)؟

قلنا: قال ابن الأنباري: إنما جمع في الفعل الثالث ليدل على أن الأمة داخلون مع النبي (ص) في الفعلين الأولين. وقال غيره: المراد بالفعل الثالث أيضاً النبي (ص) وحده، وإنما جمع تنخيماً له وتعظيماً كما في قوله تعالى: ﴿أَقْنَطُوا أَنْ يُرْسُوا لَكُمْ﴾ [البقرة/٧٥] على قول ابن عباس رضي الله عنهما، وكما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلًّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [المؤمنون/٥١]. والمراد به النبي (ص)، كذا قاله ابن عباس والحسن وغيرهما، واختاره ابن قتيبة والزجاج.

فإن قيل: لِمَ قَدَّمَ الأرض على السماء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَمُرُّبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ يَتَقَالَى دَرَجَاتٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة ٦١] وقدم السماء على الأرض في قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿عَلَيْهِ الْقَيْبُ لَا يَمُرُّبُ عَنْهُ يَتَقَالَى دَرَجَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ/٣]؟

قلنا: حق السماء أن تقدم على الأرض مطلقاً لأنها أشرف، لكنه لما ذكر هنا في صدر الآية شهادته على شؤون أهل الأرض وأقوالهم وأعمالهم، ثم أردفه بقوله سبحانه:

﴿وَمَا يَرْزُقُ عَنْ رَبِّكَ﴾ [الآية ٦١] ناسب ذلك تقديم الأرض على السماء. الثاني أن العطف بالواو نظير التثنية وحكمه حكمها، فلا يعطى رتبة كالتثنية.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى هنا: ﴿إِنَّ أَلَمْرَةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [الآية ٦٥] وقال في موضع آخر ﴿وَلِلَّهِ أَلَمْرَةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون/٨]؟

قلنا: أثبت الاشتراك في نفس العزة التي هي في حق الله تعالى القدرة والغلبة، وفي حق الرسول (ص) علو كلمته وإظهار دينه، وفي حق المؤمنين نصرهم على أعدائهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَلَمْرَةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [الآية ٦٥] أراد به العزة الكاملة التي يندرج فيها عزة الإلهية، والخلق، والإماتة، والإحياء والبقاء الدائم، وما أشبه ذلك فلا تنافي.

فإن قيل: إذا كانت السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وما وراءهما كل ذلك لله تعالى ملكاً وخلقاً، فما فائدة التخصيص في قوله تعالى في الآية التالية: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ؟﴾

قلنا: إنما خص العقلاء المميزين بالذكر، وهم الملائكة والثقلان، ليعلم أن هؤلاء إذا كانوا عبيداً له، وهو ربهم، ولا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا للشركة معه، فما وراءهم ممّا لا يعقل كالأصنام والكواكب ونحوهما، أحقّ أن لا تكون له بذاً وشريكاً.

فإن قيل: لِمَ ورد قوله تعالى على لسان موسى (ع) ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْعَزُّ هَذَا﴾ [الآية ٧٧] على طريق الاستفهام، وهم إنما قالوا ذلك على طريق الإخبار، أو التحقيق المؤكد، بأن واللام، لا على طريق الاستفهام، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيُزَكِّيُنَا﴾ ﴿٧٧﴾؟

قلنا: فيه إضمار تقديره. أتقولون للحق لما جاءكم إن هذا لسحر مبين. ثم قال ﴿أَيْعَزُّ هَذَا﴾ إنكاراً لما قالوه، فالاستفهام من قول موسى (ع) لا مفعول لقولهم.

فإن قيل: لِمَ نوع الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَلَيْنَا أَنْ نُبَوِّهَ لِقَوْمِكَ بِعِصْرٍ مُّبِينٍ وَأَجْعَلُوا يُؤَنِّتُكُمْ

فَتَلَّهْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ  
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ فَتَنِي أَوَّلًا ثُمَّ جَمَعْتُكُمْ ثُمَّ  
أَفْرَدْتُ؟

قلنا: خطب أولاً موسى وهارون  
أن يتبوا لقومهما بيوتاً، ويختاراهما  
للعادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء  
عليهم الصلاة والسلام، ثم سبق  
الخطاب عاماً لهما، ولقومهما، باتخاذ  
المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك  
واجب على الجمهور، ثم خص  
موسى (ع) بالبشارة تعظيماً لها أو  
تعظيماً له عليه السلام.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿قَدْ  
أُيِّمَتِ دَعْوَتُكُمَا﴾ [الآية ٨٩] أضافها  
إليهما، والدعوة إنما صدرت عن  
موسى عليه السلام، قال الله تعالى:  
﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ  
وَعَلَّامٌ زِينَةً﴾ [الآية ٨٨] إلى آخر الآية؟

قلنا: نقل أن موسى (ع) كان يدعو،  
وهارون (ع) كان يؤمن على دعائه؛  
والتأمين دعاء في المعنى، فهذا أضاف  
الدعوة إليهما. الثاني: أنه يجوز أن  
يكون هارون دعا أيضاً مع موسى، إلا  
أن الله تعالى خص موسى بالذكر، لأنه  
كان أسبق بالدعوة، وكان أصلاً فيها،  
فجاء هارون ليعاونه في حملها بدعوة

من موسى، استجاب لها الله تعالى.  
فإن قيل: لو كان كذلك، لقال تعالى  
دعونا كما بالثنية؟

قلنا: لما كانت الدعوة مصدراً،  
اكتفي بذكرها في موضع الإفراد والثنية  
والجمع بصيغة واحدة كسائر المصادر،  
ونظيره قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى  
قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ  
غِشَاةً﴾ [البقرة/٧].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي  
شَكٍّ مِمَّا أَرْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [الآية ٩٤] وإن  
إنما تدخل على ما هو محتمل الوجود،  
وشك النبي (ص) في القرآن منتفٍ  
قطعاً؟

قلنا: الخطاب ليس للنبي (ص) بل  
لمن كان شاكاً في القرآن، وفي نبوة  
محمد (ص)، فكانه قال «فإن كنت أيها  
الإنسان في شك».

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿مِمَّا أَرْزَلْنَا  
إِلَيْكَ﴾ يدل على أن الخطاب  
للنبي (ص) لا لغيره.

قلنا: لا يدل، قال الله تعالى:  
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ  
وَأَرْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء/١٧٤]

وقال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْكَافِرُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ [التوبة/٦٤]. الثاني أن الخطاب للنبي (ص) والمراد غيره، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب/١] ويعضده قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ كَانَتْ بِمَا تَعْمَلُونَ حَسِيرًا﴾ [النساء] ويعضد هذا الوجه قوله تعالى بعده: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي﴾ [الآية ١٠٤]. الثالث: أن تكون «إن» بمعنى ما، تقديره: فما كنت في شك مما أنزلناه إليك فاسأل. المعنى لسنا نأمرك أن تسأل أخبار اليهود والنصارى عن صدق كتابك، لأنك في شك منه، بل لتزداد بصيرة و يقيناً وطمأنينة. الرابع: أن الخطاب للنبي (ص)، مع انتفاء الشك منه قطعاً، أو المراد به إلزام الحجة على الشاكين الكافرين، كما يقول لعيسى (ع) ﴿مَا أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة/١١٦] وهو عالم بانتفاء هذا القول منه، لإلزام الحجة على النصارى.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾

[الآية ٩٩] ما الحكمة في ذكر ﴿جَمِيعًا﴾ بعد قوله سبحانه ﴿كُلَّهُمْ﴾ وهو يفيد الشمول والإحاطة؟

قلنا: «كل» يفيد الشمول والإحاطة، ولا يدل على وجود الإيمان منهم بصفة الاجتماع، و«جميعاً» يدل على وجوده منهم في حالة واحدة، كما تقول جاءني القوم جميعاً: أي مجتمعين، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَظْهَرُ مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية ١٠١] كيف يصح هذا الأمر، مع أننا لا نعلم جميع ما فيهما ولا نراه؟

قلنا: هو عام أريد به ما ندركه بالبصر مما فيهما، كالشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والمعادن والحيوانات والنبات، ونحو ذلك مما يدل على وجود الصانع وتوحيده وعظيم قدرته، فيستدل به على ما وراءه.

فإن قيل في قوله تعالى: ﴿وَرَأَى النَّاسَ لَكَ كَاذِبًا إِلَّا هُوَ وَإِلَىٰ رَبِّكَ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنعام/١٠٧] ما الحكمة في ذكر المس في الضر، والإرادة في الخير؟

قلنا: لاستعمال كل من المَسْ والإرادة في كل من الضر والخير، وأنه لا مُزِيل لما يصيب به منهما، ولا رادّ لما يريده فيهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المَسْ في أحدهما، والإرادة في الآخر، ليدلّ بما ذكر على ما لم يذكر، مع أنه قد ذكر المَسْ فيهما في سورة الأنعام، وإنما عدل هنا عن لفظ المَسْ المذكور في سورة الأنعام، إلى لفظ

الإرادة، لأن الجزاء هنا قوله تعالى: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [الآية ١٠٧] والرد إنما يكون في ما لم يقع بعد، والمَسْ إنما يكون في ما وقع، فلهذا قال تعالى ثُمَّ: ﴿وَلِنْ يَسْئَلَكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [IV] [الأنعام] ومعناه، فإن شاء أدام ذلك الخير، وإن شاء أزاله، فلا يطلب دوامه وزيادته إلاّ منه تعالى.

## المعاني المجازية في سورة «يونس» (\*)

وقال بعضهم: ذُكر القدم ههنا على طريق التمثيل والتشبيه، كما تقول العرب: قد وضع فلان رجله في الباطل، وتخطى الى غير الواجب. ومعناه أنه انتقل الى فعل ذلك، كما ينتقل الماشي، وإن لم يحرك قدمه، ولم ينقل خطاه.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ السَّمَرَةِ﴾ [الآية ٣] وهذه استعارة. لأن حقيقة الاستواء إنما توصف بها الأجسام التي تعلو البساط وتميل وتعتدل. والمراد بالاستواء ههنا: الاستيلاء بالقدرة والسلطان، لا بحلول القرار والمكان. كما يقال:

قوله سبحانه: ﴿وَيَسِّرَ الْيُسْرَىٰ ۖ وَأَوَّلَ رَمَدٍ﴾ [الآية ٢] وهذه استعارة. لأن المراد بالقدم ههنا: السابقة في الإيمان، والتقدم في الإخلاص. والعبارة عن ذلك بلفظ القدم غاية في البلاغة، لأن بالقدم يكون السبق والتقدم. فسُميت قدماً لذلك. وإن كان التأخر أيضاً يكون بها، كما يكون التقدم بخطوها، فإنما سُميت بأشرف حالاتها وأنبه متصرفاتها. وقال بعضهم: إيمانهم في الدنيا هو قدمهم في الآخرة. لأن معنى القدم في العربية: الشيء تقدمه أمامك ليكون عُدَّةً لك، حتى تُقدم عليه.

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب تلخيص البيان في مجازات القرآن للشيخ الرضي، تحقيق: محمد عبدالغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرخ.

استوى<sup>(١)</sup> فلانَ المَلِكُ على سرير مُلكه. بمعنى استولى على تدبير المُلْك، ومَلَكَ مقعد الأمر والنهي. وحسن صفته بذلك، وإن لم يكن له في الحقيقة سرير يقعد عليه، ولا مكان عالٍ يشار إليه. وإنما المراد نفاذ أمره في مملكته، واستيلاء سلطانه على رعيته.

فإن قيل: فالله سبحانه مستولٍ على كل شيء بغيره وغلِبته، ونفاذ أمره وقدرته، فما معنى اختصاص العرش بالذكر ههنا؟ قيل، كما ثبت، أنه تعالى ربّ لكل شيء. وقد قال في صفة نفسه، ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة والمؤمنون/ ٨٦ والنمل/ ٢٦] فإن قيل: فما معنى قولنا عرش الله، إن لم يرد بذلك كونه عليه؟ قيل كما يقال: بيت الله وإن لم يكن فيه، والعرش في السماء تطوف به الملائكة تعبدًا، كما أن البيت في الأرض تطوف به الخلائق تعبدًا.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَحْيِيْنَهُمْ فِيْهَا سَلَمٌ﴾

[الآية ١٠] وهذه استعارة على بعض الاقوال. كأنَّ المعنى، أن بشراهم بالسلامة من المخاوف عند دخول الجنة، تُجعل مكان التحية لهم. لأن لكل داخل داراً تحية يُلقى بها، ويؤنس بسماعها. والسلام ههنا من السلامة، لا من التسليم.

وقوله سبحانه: ﴿حَرِّمْنَا عَلَى الْاَرْضِ زُخْرُفَهَا وَازْيِنَتْ وَنَحْنُ اَهْلُهَا اَنْتُمْ قَدْ دُرُوتْ عَلَيْهَا﴾ [الآية ٢٤]. وهذه استعارة حسنة، لأن الزخرف في كلامهم اسم للزينة واختلاف الألوان الموثقة.

وقوله سبحانه: ﴿اَعْدَتِ الْاَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾. أي لبست زينتها بألوان الأزهار، وأصابع الرياض، كما يقال: أخذت المرأة قناعها. إذا لبسته. وتقول لها: خذي عليك ثوبك. أي البسيه.

وقوله تعالى: ﴿عُدُوْا رَبَّنَا عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف/ ٢١] أي البسوا ثيابكم.

وقوله سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَبِيبًا﴾ [الآية ٢٤]. استعارة أخرى، لأن

(١) ومنه قول الراجز:

من غير سيف ودم مهراق

قد استوى بشر على العراق

انظر «القرطبي» ج ٧ ص ٢٢٠.

الحصيد من صفة النبات، لا من صفة الأرض. والمعنى: فجعلنا نباتها كذلك. فاكتمى بذكر الأرض من ذكر النبات لأن النبات فيها، ومنشأ منها.

وقوله سبحانه: ﴿كَأَنَّمَا أَغْشَيْتَ وَجُوهَهُمْ قُلُوبًا مِنْ أَلْتٍ مُظْلِمًا﴾ [الآية ٢٧]. وهذه استعارة. لأن الليل على الحقيقة لا يوصف بأن له قطعاً متفرقة، وأجزاء متنصفة. وإنما المراد، والله أعلم، أن الليل لو كان ممّا يتبعض وينفصل، لأشبه سواد وجوههم أبعاضه وقطعه. ونصب سبحانه ﴿مُظْلِمًا﴾ على أنه حال من الليل. وفيه زيادة معنى. لأن الليل قد سُمي ليلاً وإن كان مقمرأ، فإنما قال سبحانه: مظلماً، على أن التشبيه إنما وقع به أسود ما يكون جلياباً، وأبهم أثواباً.

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [الآية ٦٧] وهذه استعارة عجيبة. وقد أومأنا الى نظيرها فيما تقدم. وذلك أنه سبحانه، إنما سُمي النهار مبصراً، لأن الناس يُبصرون فيه، فكان ذلك صفة

(١) ومنه قول الشاعر الجاهلي طرفة:

لعمرك ما أمرى عليّ بغنة

نهاري، ولا ليالي عليّ يسميد

(٢) الظنبة: الظلمة.

الشيء بما هو سبب له، على طريق المبالغة. كما قالوا: ليل أغمى وليلة عمياء. إذا لم يبصر الناس فيها شيئاً لشدة إظلامها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ [الآية ١٧١]. ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ من الإجماع. وهذه استعارة. والمعنى اشتوروا في أمركم، وأجمعوا له بالكم، وبالغوا في قذح الرأي بينكم، حتى لا يكون أمركم غمة عليكم<sup>(١)</sup>. أي مغطى تغطية حيرة، ومُبهماً إيهام جهالة، فيكون عليكم كالغمة العمياء، والطخية<sup>(٢)</sup> الظلماء. وذلك مأخوذ من قولهم: غُم الهلال. إذا تغطى ببعض الموانع التي تمنع من رؤيته. ثم افعلوا بي ما انتم فاعلون.

وهذه حكاية لقول نوح عليه السلام لقومه. ويخرج الكلام منه على الاستقلال لكيدهم، وقلة الحفل باستجماعهم واحتشادهم.

وقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الدَّيَارِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا مِنْ قَبْلَ هَذَا وَارْزُقْنَا مِنْكَ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ﴾ [الآية ٨٨].

وهذه استعارة لأن حقيقة الطمس مَحْو الأثر. من قولهم: طَمَسْتُ الْكِتَابَ. إذا محوت سطوره. وطمست الريح ربع الحي. إذا محت رسومه. فكان موسى عليه السلام، إنما دعا الله سبحانه بأن يمحو معارف أموالهم بالمسح لها، حتى لا يعرفوها، ولا يهتدوا إليها، وتكون متقلبة عن حال الانتفاع بها، لأن الطمس تغيير حال الشيء إلى الذئور والدروس.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ استعارة أخرى. إما أن يكون المراد بها ما يراد بالختم والطبع. لأن معنى الشد يرجع إلى ذلك. أو يكون المراد به تثقيب العقاب على القلوب، بالإيلاام لها، ومضاعفة الغم والكرب عليها.

ويكون ذلك على معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم اشدّد وطأتك على مُضِرٍّ»<sup>(١)</sup> أي غلظ عليهم عقابك، وضاعف عليهم عذابك.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْ أَفْزَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(٢)</sup> وهذه استعارة. وقد أومأنا إلى مثلها فيما تقدّم. والمراد بها: استقم على دينك، واثبت على طريقك. وخصّ الوجه بالذكر، لأنه به يعرف توجه الجملة نحو الجهة المقصودة، وقد يجوز أن يكون المراد بذلك، والله أعلم، أقم وجهك أي قومه نحو القبلة التي هي الكعبة. مستمرّاً على لزومها، وغير منحرف عن جهتها.

(١) هذا الحديث في مسند ابن حنبل ج ١٢ ص ٢٥٠ بتحقيق المحذث الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر. وقد ذكر الشيخ أن إسناده صحيح. وقد رواه ابن سعد في الطبقات، ورواه مسلم والبخاري في صحيحهما. ونص الحديث في المسند: (لما رفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه من الركعة الأخيرة من صلاة الصبح، قال: اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وميائش بن أبي ربيعة والمستضعفين بمكة. اللهم اشدّد وطأتك على مضِرٍّ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف).

# سورة هود





## أهداف سورة «هود» (\*)

الموضوعات نفسها التي تحدثت عنها  
السورة السابقة، سورة يونس.

### عناصر الدعوة الإلهية

والمتمدِّبِر لسورة هود يرى أنها قررت  
عناصر الدعوة الإلهية - وهي التوحيد  
والرسالة والبعث - من طريق الحجج  
العقلية، مع الموازنة بين النفوس  
المستعدة للإيمان، والنفوس النافرة  
منه. وقد عرضت لذلك في أربع  
وعشرين آية يُختم بها الربع الأول  
منها، ثم أخذت السورة تتحدث عن  
جملة من الرسل السابقين لبيان وحدة  
الدعوة الإلهية، وتسليية الرسول عليه  
الصلاة والسلام، وإنذاراً للمكذِّبين.

### تمهيد عن الوحدة الموضوعية للسورة

هود عليه السلام هو أول رسول إلى  
قوم عاد، وعاد أول أمة من نسل  
سام بن نوح<sup>(١)</sup>، وقد تحدَّث القرآن  
كثيراً عن هود فيمن تحدَّث عنهم من  
رسل الله الكرام وقد ذُكر باسمه خمس  
مرات في هذه السورة التي سميت  
باسمه.

وسورة هود من السور المكيَّة، شأنها  
كشأن السُور المكيَّة الأخرى: تقرير  
أصول الدين، وإقامة الأدلة عليها ورذِّ  
الشُّبُه التي كان يثيرها المعارضون حول  
الدعوة وصاحبها، والحديث عن اليوم  
الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، وهي

(\*) انقضي هذا المبحث من كتاب «أهداف كل سورة ومقاصدها»، لمبدِّعها محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب،  
القاهرة، ١٩٧٩ - ١٩٨٤.

(١) محمود شلتوت، إلى القرآن الكريم ص ٧٧.

المعنيين، فيرد في ألفاظ تكاد تكون واحدة يقولها كل رسول. وكأنما يقولها ويمضي، حتى يأتي أخوه فيقولها كذلك ويمضي، والمكذبون هم المكذبون.

تبدأ قصة نوح بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٦٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآسْرِ ﴿٦٦﴾﴾.

ثم بقوله جلّ وعلا حكاية على لسان هود وصالح وشعيب (ع):

﴿يَقُولُوا اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿يَقُولُوا اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٦١﴾﴾ [الآية ٦١].

﴿يَقُولُوا اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٨٤﴾﴾ [الآية ٨٤].

ونهايات القصص كلها، هلاك المكذبين وعقوبة المعتدين، ووعد لجميع المتكبرين عن الإيمان بالحق، والانقياد للعقيدة الصحيحة، قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴿٦٧﴾﴾.

\*\*\*

ويستغرق قِصَصُ هؤلاء الرسل الكرام معظم السورة، فتذكر قصة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى (ع). وطريقة العرض هنا تختلف عنها في سورة أخرى، والحلقات التي تعرض من كل قصة تختلف كذلك لاختلاف السياق، فيمتنع التكرار، فيما يخلل أنه تكرر للقارئ العابر للقرآن الكريم.

هذا القِصَصُ الذي يستغرق معظم سورة هود: مرتبط كل الارتباط بما قبله وما بعده من السورة، متناسق مع السياق حتى في التعبير اللفظي أحياناً، فالقصة والمشهد والعظة والتعقيب تتناسق كلها تناسقاً عجيباً، وتكشف عن بعض وظيفة القصة في القرآن الكريم.

تبدأ سورة هود بقوله تعالى:

﴿إِنَّا كُنَّا أَنْكُرَتُمْ فَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ فِتْنَةً مِنْ أَفْوَاجٍ خَيْرٌ ﴿١﴾ إِلَّا تَتَّبِعُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾﴾.

وهذا المطلع، يقرر أن المهمة الأولى للنبي هي الدعوة إلى توحيد الله، وينذر بالعذاب من يكذب بدعوة الله. ويبشر بالنعيم من آمن بها. وقِصَصُ السورة كله يساق لتوكيد هذين

وتتضمن سورة هود إثبات الوحي، وتنزيل القرآن من عند الله سبحانه، وتثبيت الرسول (ص)، وتقوية يقينه مع من آمن به من المؤمنين، حتى لا يضيق صدرهم بالمكذّبين والمستهزئين.

ثم يُختتم القصص في سورة هود بقوله تعالى:

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَقْبَلِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِمْ، فَمَأْجِدُكَ فِي هَؤُلَاءِ نَقِصٌ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهكذا نجد أن القصة في القرآن الكريم، تؤذي دوراً متناسقاً مع موضوع السورة وسياقها، وتُعرض بالطريقة والعبارة اللتين تحققان هذا التناسق الجميل الدقيق.

## ١ - العقيدة والإيمان بالله

يتضمن الدرس الأول من السورة: دعوة المشركين إلى توحيد الله واستغفاره والتوبة مما هم فيه، ويشرهم إن فاءوا إلى هذا بمتاع حسن وجزاء طيب، وينذر المعرضين عن الدعوة بعذاب كبير، ويقرر عقيدة الإيمان باليوم الآخر، والرجعة إلى الله لتحقيق البشري والإنذار، ثم يعرض مشهداً لهم وهم يحاولون التخفي عن

مواجهة الرسول، وهو يجيبهم بالبيان، يعقب عليه بعلم الله الشامل اللطيف الذي يتابعهم وهم أخفى ما يكونون عن العيون، ويتصل بهذا المعنى علم الله بكلّ دابة في الأرض حيث تكون. كما يتصل به الحديث عن خلق السماوات والأرض.

ثم يعرض صوراً من النفس البشرية القلقة المتعجلة في السراء والضراء. ومع ذلك فهم يستعجلون العذاب إذا ما أخرج عنهم إلى حين.

ثم ينتقل إلى التحدي بالقرآن الذي يقولون إنه مُفترى من دون الله، وتهديد من لا يؤمنون بالآخرة، ومن يفترون على الله الكذب، ويعرض مشهداً من مشاهد القيامة يتجلى فيه مصداق هذا الوعد، ومصداق البشري للمؤمنين.

ومن المعالم البارزة في هذا الدرس ما يأتي:

١ - تقرير عقيدة التوحيد، وسوق الأدلة على قدرة الله سبحانه الذي أبدع الكون على غير مثال سابق.

وقد تتساءل عن سر عناية القرآن بعقيدة التوحيد، وتكرير الدعوة إليها في كثير من آياته.

وتيسير الأسباب للمسعي والحركة  
وعماراة الكون، ومن الآيات المشهورة  
بين الناس قوله تعالى:

﴿وَمَا مِنْ نَّاتِقٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ١٠﴾.

وهي تصور علم الله الشامل،  
المحيط بكل ما يدب على الأرض،  
من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة  
وحشرة وطيور. فما من دابة من هذه  
الدواب إلا وعند الله علمها، وعلى الله  
رزقها، وهو سبحانه يعلم أين تستقر  
وأين تكمن، ومن أين تجيء، وأين  
تذهب. وكل فرد من أفرادها مقيد في  
هذا العلم الدقيق. إنها صورة متصلة  
للعلم الإلهي في حالة تعلقه  
بالمخلوقات، يرتجف لها كيان الإنسان  
حين يحاول تصوّرها بخياله الإنساني،  
فلا يطيق. فسبحان من أحاط بكل  
شيء علماً.

## ٢ - إعجاز القرآن

يلمح القارئ لهذه السورة قوة  
أسلوبها وترابط أفكارها، وتوالي  
حملاتها على الكفار، حتى كأنها جيش  
كامل مشتمل على عديد من الكتائب  
والفصائل والجنود.

والجواب أنه ما كان لدين أن يقوم  
في الأرض، وأن يقيم نظاماً للبشر قبل  
أن يقرر هذه الدعوة.

فالتوحيد مفترق الطريق بين الفوضى  
والنظام، بين الخرافة والإيمان، بين  
الهوى واليقين.

والاعتراف بوجود الله ضروري في  
الفطرة السليمة، لأن الله خلق الإنسان،  
وأودعه نفخة مقدسة من الروح،  
ولذلك تتجه الفطرة إلى الله خالقها  
وبارئها لتروي ظمأها إليه، وتلبي نداء  
الشوق الكامن إليه في أعماقها.

٢ - عناية الآيات، بأن تلفت نظر  
الإنسان إلى ما في الكون من آيات  
القدرة، ودلائل الإعجاز، وعجائب  
الصنع، ومواطن الاعتبار. فهذا الكون  
الفسيح الشاسع الأرجاء وما فيه من  
قوى منظورة لنا وغير منظورة، وما  
يخضع له من نظام لا يحتمل الخلل،  
ودقة لا تسمح بالعبث، دليل على أن  
هذا الكون لم يوجد من طريق صدفة  
عمياء، بل وجد لأنّ خالقاً حكيماً هو  
الذي أوجده.

٣ - إثبات علم الله بكل صغيرة  
وكبيرة في هذا الكون، وتقدير الرزق  
لكل فرد من أفراد هذا العالم الفسيح،

إنها دعت، في الدرس السابق، الى التوحيد، ولفتت الأنظار الى قدرة الله البالغة وعلمه المحيط بكل شيء.

وهي، هنا، تسوق دليلاً آخر على صدق عقيدة التوحيد، وصدق رسالة محمد (ص)، هذا الدليل هو إعجاز هذا القرآن وروعته وقوته. ويتجلى هذا الاعجاز فيما يلي:

١ - إخباره عن الأمم الماضية التي لم يعاصرها محمد (ص)، ولم يعرف تاريخها ولم يقرأ عنها.

٢ - اشتماله على أصول التشريع، وسياسة الخلق، وقواعد الحكم، وآداب المعاملة، ونظام العبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة.

٣ - إخباره عن أنباء لاحقة تأكد صدقها، وتحقق وقوعها.

\*\*\*

لقد ادعى كفار مكة أن محمداً (ص) قد اختلق القرآن من عنده، ولم ينزل عليه من السماء، فتحداهم القرآن أن يأتوا بعشر سور مثله مُفْتَرِيَات. أي ليختلقوا كما اختلق محمد (ص)، فهم عرب مثله، وهم أرباب الفصاحة والبيان، والقرآن مؤلف من حروف

وكلمات وجمل يعرفونها ويؤلفون من مثلها كلامهم، فالعجز عن الإتيان بمثل القرآن دليل على أنه ليس من صنع بشر، وليس من افتراء محمد (ص)، ولكنه كلام الله العليم الخبير.

وقد سمح لهم القرآن أن يستعينوا بمن شاؤوا، من الشركاء والفصحاء والبلغاء والشعراء والإنس والجن، ليشاركوهم في تأليف هذه السور، قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْقَرْتَهُ قُلْ فَاتَّوَّأ بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَاَدْعُوْا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ ﴿١٢﴾﴾.

وقد سبق أن تحداهم القرآن بسورة واحدة في سورة يونس، فلماذا تحداهم بعد ذلك بعشر سور.

قال المفسرون القدماء، إن التحدي كان على الترتيب: بالقرآن كله ثم بعشر سور، ثم بسورة واحدة.

ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل، بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدي فيها بسورة واحدة، وسورة هود لاحقة والتحدي فيها بعشر سور.

وترتيب الآيات في النزول ليس من

الضروري أن يتبع ترتيب السور، فقد كانت الآية تنزل فتلتحق بسورة سابقة أو لاحقة في النزول، إلا أن هذا يحتاج الى ما يُثبت هذا الترتيب، وليس في أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود. والترتيب التحكيمي في مثل هذا لا يجوز.

وقد حاول صاحب تفسير المنار، أن يجد لهذا العدد (عشر سور) علة فأجهد نفسه طويلاً، ليقرر أن المقصود بالتحدي هنا هو القصص القرآني، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التي كان قد نزل بها قَصَصٌ مطوّل الى وقت نزول سورة هود كانت عشرًا، فتحدّاهم بعشر سور<sup>(١)</sup>، وهو احتمال وجيه.

ويرى بعض المفسرين المُحدّثين: أن التحدي كان يلاحظ حالة القائِلين وظروف القول، فيقول مرة: اثنتا بمثل هذا القرآن. او اثنتا بسورة. أو بعشر سور. دون ترتيب زمني، لأنّ الغرض كان التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن، لا بمقداره كله، أو بعضه، أو سورة منه على السواء، فالتحدّي كان بنوع هذا القرآن لا

بمقداره، والعجز كان عن هذا النوع، لا عن المقدار. وعندئذ يستوي الكلّ والبعض والسورة. ولا يلزم ترتيب، إنما هو مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطبون، ونوع ما يقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة. فهو الذي يجعل من المناسب ان يقول: «سورة»، أو «عشر سور»، أو «هذا القرآن». ونحن اليوم، لا نملك تحديد الملابس التي لم يذكرها لنا القرآن.

### ٣ - القَصَص في سورة هود

القصص في هذه السورة هو قوامها، اذ عدد آياتها (١٢٣) مائة وثلاث وعشرون آية، يشتمل قَصَصُ الأنبياء منها على (٨٩) تسع وثمانين آية.

لكن القَصَص لم يجرّ فيها مستقلاً، بل جاء مصداقاً للحقائق الكبرى التي جاءت السورة لتقريبها، وهي التوحيد والبعث والجزاء.

وقد جال السياق جولات متعددة حول هذه الحقائق: جال في مَلَكُوت السماوات والأرض، وفي جَنّات النفس، وفي ساحة الحشر، ثم أخذ

(١) تفسير المنار ١٢/٣٢ - ٤١.

يجول في جنبات الأرض، وأطوار التاريخ مع قصص الماضين.

والْقَصَصُ هنا مُفْصَّلُ بعض الشيء، لأنه يتضمن الجدل حول حقائق العقيدة التي وردت في مطلع السورة. والتي يجيء كل رسول لتقريرها، وكأنما المكذبون هم المكذبون وكأنما طبيعتهم واحدة، وعقليتهم واحدة على مدار التاريخ. وَيُتَّبِعُ الْقَصَصُ، في هذه السورة، خط سير التاريخ، فيبدأ بنوح، ثم هود، ثم صالح، ويلم بإبراهيم في الطريق إلى لوط ثم شعيب ثم إشارة إلى موسى؛ ويشير إلى الخط التاريخي، لأنه يذكر التالين بمصير السالفين.

وليس من قصصنا أن نذكر قصص هؤلاء الأنبياء الكرام، فذلك ما لا يتسع له المجال، ولكن واجبنا نحو سورة هود، يحتم علينا أن نذكر لمحات من سيرة هؤلاء الرسل.

### قصة نوح (ع)

لقد ألمحت سورة يونس إلى قصة نوح فذكرت الحلقة الأخيرة منها، وهي غرق الكافرين ونجاة المؤمنين.

ولكن سورة هود تعرضت لقصة نوح

بمزيد من التفصيل خلال أربع وعشرين آية: من الآية ٢٥ إلى الآية ٤٩.

تناولت دعوة نوح إلى الله، وجداله مع قومه وصنعه السفينة، وتغرُّضه لسخرية قومه، ثم فوران التنور، واكتساح الطوفان، وركوب السفينة تسير بأمر الله وقدرته:

﴿يَسِّرْ اللَّهُ مَخْرَجَهَا وَمُرْسَهَا﴾ [الآية ٤١].

ثم تهدأ العاصفة، وتبلغ الأرض ماءها، وتُنْسَكُ السماء عن المطر، وتعود الحياة سيرتها، فيناجي نوح (ع) ربه بعد غرق ولده، قائلاً:

﴿رَبِّ إِنِّي أَنِّي مِنْ أَهْلِ﴾ [الآية ٤٥].

أي وقد وعدتني بنجاة أهلي، فيجيبه الله سبحانه:

﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّكُمْ عَمَلٌ غَيْرُ مَنِيحٍ﴾ [الآية ٤٦].

والمعنى: إنه عمل عملاً غير صالح، فهو من صلب نوح وذريته، إلا أنه منقطع الصلة به في نسب الإيمان، وصلته العمل الصالح. وهنا يتنبه نوح إلى حقيقة العدل الإلهي، ويرى أن عقاب الله عام لكل الكافرين، وأن نعيمه عام لجميع المؤمنين، فليس بين

الله وبين أحد من عباده نُسَبِّ ولا صلة، فالخلق كلهم عباد الله، يتفاضلون عنده بالتقوى، ويدركون ثوابه بالعمل الصالح:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكَ عِنْدَ اللَّهِ أَقْنَمُ﴾ [الحجرات/١٣].

ويكون التعقيب على قصة نوح مُعَبِّراً عن أهداف القُصص القرآني، مبشراً بالنجاة والنصر للمؤمنين، منذراً بالهلاك والعذاب للكافرين. قال تعالى:

﴿تِلْكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

فيحقق هذا التعقيب من أهداف القُصص القرآني في هذه السورة ما يأتي:

١ - حقيقة الوحي التي ينكرها المشركون. فهذا القُصص غيب من الغيب، ما كان يعلمه النبي (ص)، وما كان معلوماً لقومه، ولا متداولاً في محيطه وإنما هو الوحي من لدن حكيم خبير.

٢ - حقيقة وحدة العقيدة، من لدن نوح أبي البشر الثاني، هي نفسها،

والتعبير عنها يكاد يكون واحداً، مشتملاً على الدعوة إلى الإيمان بالله، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، والبعد عن الرذائل والمنكرات.

٣ - حقيقة السنن الجارية التي لا تتخلف ولا تحيد (والعاقبة للمتقين)، فهم الناجون وهم المستخلفون.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء].

### قصة هود

تناول الدرس السابق قصة نوح عليه السلام ونجاته ومن معه في الفلك، ثم هبوطه على الأرض، مستحقاً لبركات الله عليه وعلى المؤمنين من ذريته، أما المكذبون من ذريته فلهم عذاب أليم، وقد دارت عجلة الزمن، ومضت خطوات التاريخ وإذا عاذ من نسل نوح الذين تفرقوا في البلاد، ومن بعدهم نَمُود، ممن حقت عليهم كلمة الله.

﴿وَأُمَمٌ سَتِيتُهُمْ ثُمَّ يَمْشُرُهُمْ رَبُّنَا عَذَابَ الْبَاسِ﴾.

فأما عاد، فكانوا قبيلة تسكن الأحقاف، «والجحف كشيء الرمل المائل» في جنوب الجزيرة العربية.

أجسامهم وقوة في أبدانهم. وكان الواجب عليهم أن يفكروا بعقولهم وأن يشكروا الله على هذه النعم، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل اتخذوا أصناماً يعبدونها من دون الله، ثم عَثَرُوا في الأرض فساداً وظلماً وعدواناً. ولما جاءهم هود يدعوهم إلى الله، ويأمرهم بتقواه وطاعته، ويحذّرهم من البغي والعدوان، لم يُصِخِّخوا لدعوته، ولم يؤمنوا برسالته.

وإذا كانت السورة تُسمّى بأعرب شيء فيها، فإن الغرابة في قصة هود هي أن قومه «عاداً» كانوا أكثر فضلاً ونعمة، ولكنهم قابلوا هذه النعمة بالجحود والكند.

وتذكر الآيات معارضتهم لهود وإنكارهم عليه، واعتقادهم أن آلهتهم أنزلوا به الجنون والاضطراب، فتيبراً هود من آلهتهم وبتحذاهم، ويستنهض همّهم في أقصى ما يستطيعون من قوى الكيد، وأنه لن يعبأ بهم ولا بجمعهم، قال هود، كما ورد في التنزيل:

﴿إِنِّي قَوْلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبُّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [الآية ٥٦].

وهي صورة محسوسة للقوة الإلهية. فالناصية أعلى الجبهة، والله تعالى

وأما ثمود، فكانت قبيلة تسكن مدائن الحجر - بين ثَبُوك والمدينة - وبلغت كل منهما في زمانها أقصى القوة والمنعة والرزق والمتاع. ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا مَن حقت عليهم كلمة الله، بما عَثَرُوا عن أمر الله واختاروا الوثنية على التوحيد، وكذبوا الرسل شرّ تكذيب، وفي قصّتهم هنا، مصداق ما في مطلع السورة من بشارة للمؤمنين، وإنذار للكافرين.

\*\*\*

وقد ذكرت قصة هود في سورة الأعراف من الآية ٦٥ إلى الآية ٧٢، وفي سورة الشعراء من الآية ١٢٣ إلى الآية ١٤٠، ثم ذكرت هنا في سورة هود من الآية ٥٠ إلى الآية ٦٠.

وقد نتساءل: لماذا سمّيت هذه السورة بسورة هود، مع أنها اشتملت على عدد كبير من قصص الأنبياء، منهم نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وموسى عليهم السلام، والجواب أن قوم هود (ع) قد حباهم الله سبحانه، نعماً وافرة وخيرات جلييلة، وأرسل السماء عليهم بالمطر، فزرعوا الأرض وأنشأوا البساتين، وشادوا القصور، ومنحهم الله فوق ذلك بسطة في

لِقَارِ قَوْمِ هُودٍ ﴿١٦﴾ .

\*\*\*

وتستمر «سورة هود» فتعرض قصة صالح مع قومه، ودعوته لهم إلى دين الله، وتودده إليهم بقوله كما ورد في التزيل:

﴿وَيَنْقُورُ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ﴾  
[الآية ٦٤].

وكانت ناقة ضخمة تشرب من الماء في يوم، وتتركه فلا تذوقه في اليوم الآخر. ولكنهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم، فنجى الله صالحاً ومن معه من المؤمنين، وأرسل صيحة عاتية أهلكت الكافرين، فصاروا جثثاً هامدة، وأصبحت ديارهم خاوية خالية:

﴿أَلَا إِنَّ نُوحُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُدَا لِنُوحٍ﴾ (١٧).

وحده صاحب القهر والغلبة والتصريف في كل ناصبة، وهي صورة حسنة تناسب الموقف، وتناسب غلظة القوم وشدتهم، وتناسب صلابة أجسامهم ويئسهم، حين استكبروا في الأرض بغير الحق:

﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ بَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنَّهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِرِآيَتِنَا يَحْمَدُونَ﴾ (١٧) [فضلت].

وتذكر الآيات هنا خاتمة أمر هود مع قومه، على حسب سنة الله في نصره أوليائه وجزى أعدائه. قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّبْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (١٨) **﴿١٨﴾** وَذَٰلِكَ عَادٌ جَعَلُوا بِنَازِكَةِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُمْ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ **﴿١٩﴾** وَلَتَأْتِيَنَّ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لُغْنَةٌ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُدَا

## ترابط الآيات في سورة «هود» (\*)

بشأنه وبيان حاجتهم إليه، وبتحذيرهم به كما تحذوا به في سورة يونس، ثم انتقل من هذا الى القصص لتثبيت النبي (ص) على تكذيبهم له، ثم ختمت بما يناسب هذا السياق فيها.

### إثبات تنزيل القرآن الآيات [١ - ٢٤]

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَىٰ الْكُفْرَ أَكْثَرًا ۚ أَلَمْ يَكُن لَّهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ لَافِيَةً ۚ﴾، فأنقسم بهذه الحروف انه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت فصولاً: حلالاً وحراماً، ترغيباً وترهيباً، ونحو ذلك، وأنه أنزله كذلك ليعبدوه، ويستغفروه ويتوبوا إليه. ليمتعهم متاعاً

### تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة هود بعد سورة يونس، ونزلت سورة يونس بعد الإسراء وقُبيل الهجرة، فيكون نزول سورة هود في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لذكر قصة هود فيها، وتبلغ آياتها ثلاثاً وعشرين ومائة آية.

### الغرض منها وترتيبها

يُقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن مثل سورة يونس، ولهذا ذكرت بعدها لِتُكْمَل الغرض منها، ولتستوفي جانب القَصص الذي ذكر فيها، وقد ابتدأت بإثبات تنزيل القرآن بالتنويه

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعدي، مكتبة الآداب بالجميزة - المطبعة النمرجية بالحكمة الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

خَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى، ثُمَّ أَوَعَدَهُمْ،  
 إِنَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ، بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٍ كَبِيرٍ، وَذَكَرَ  
 أَنَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
 قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَسْزَوْنَ وَمَا يَعْلَنُونَ  
 مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ  
 إِلَّا عَلَيْهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا  
 وَمُسْتَوْدَعُهَا، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدَهُ فِي كِتَابٍ  
 مُّبِينٍ؛ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ هُوَ الَّذِي  
 خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ  
 لِّيَبْلُوَهُمْ: أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، فَلَا بُدَّ  
 لَهُمْ مِنْ يَوْمٍ يَحْاسَبُونَ فِيهِ عَلَى  
 أَعْمَالِهِمْ؛ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ (ص) إِذَا  
 أَخْبَرَهُمْ مَعَ هَذَا بِأَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ بَعْدَ  
 الْمَوْتِ، يَزْعُمُونَ أَنَّ هَذَا سِحْرٌ بَاطِلٌ لَا  
 حَقِيقَةَ لَهُ، وَأَنَّهُ إِذَا أَخَّرَ عَنْهُمْ جَلَ  
 جَلَالِهِ هَذَا الْعَذَابَ الَّذِي يُوْعَدُهُمْ بِهِ،  
 يَقُولُونَ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِهْزَاءِ: (مَا  
 يَحْبِسُهُ؟). وَأَجَابَهُمْ بِأَنَّهُ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَا  
 يُصْرَفُ عَنْهُمْ وَيُحْيَى بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ  
 يَسْتَهْزِئُونَ. ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَبَيِّنَ أَنَّهُ لَوْ غُجِّلَ  
 لَهُمْ هَذَا الْعَذَابُ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، لِأَنَّ  
 الْوَاحِدَ مِنْهُمْ إِذَا أَذَاقَهُ رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعَهَا  
 مِنْهُ يَبَالِغُ فِي الْيَأْسِ وَالْكَفْرِ، فَإِذَا أَذَاقَهُ  
 نَعْمًا بَعْدَ هَذَا، ظَنَّ أَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَهَبَتْ  
 عَنْهُ إِلَى غَيْرِ عَوْدَةٍ وَبَالِغٍ فِي الْفَرَحِ

وَالْفَخْرِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَتَعَطَّ بِنِقْمَةٍ وَلَا  
 نِعْمَةٍ، ثُمَّ اسْتَشْنَى مِنْهُمْ الَّذِينَ صَبَرُوا  
 لِأَنَّهُمْ لَا يَتَأَسُّونَ فِي النِّقْمَةِ وَلَا تَبْطُرُهُمُ  
 النِّعْمَةُ، وَوَعَدَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا كَبِيرًا.

ثُمَّ عَادَ السِّبَاقَ إِلَى الْحَدِيثِ عَنِ  
 الْقُرْآنِ، فَذَكَرَ تَعَالَى لِلنَّبِيِّ (ص) أَنَّهُ  
 لَعَلَّهُ يَتْرَكُ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْهِ مِنْهُ  
 وَيَضِيقُ بِهِ صَدْرَهُ لِأَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ آيَةً تَدُلُّ  
 عَلَى أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِهِ سَبَّحَانَهُ، كَانَ  
 يَنْزِلُ عَلَيْهِ كَنْزًا أَوْ يَجِيءُ مَعَهُ مَلَكٌ؛ ثُمَّ  
 ذَكَرَ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَّا نَذِيرًا لَهُمْ، فَلَا يَطْلُبُ  
 مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَلْفَهُمْ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
 وَكِيلٌ؛ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ افْتَرَاهُ  
 عَلَيْهِ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَحَدَّاهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا  
 بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلَهُ مُفْتَرِيَاتٍ، وَأَمْرُهُمْ أَنْ  
 يَدْعُوا مَنْ اسْتَطَاعُوا لِيَسَاعِدُوهُمْ عَلَى  
 الْإِتْيَانِ بِهَا، ثُمَّ أَمْرُهُمْ إِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا  
 لِهَذَا التَّحَدِّيِّ، أَنْ يَغْلَمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْزَلَ  
 بِعِلْمِهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لِأَنَّهُمْ لَمْ  
 يَسْتَطِيعُوا هَمَّ وَالْهَيْئَةَ أَنْ يَأْتُوا بِمَا  
 تَحَدَّاهُمْ بِهِ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَسْلَمُوا  
 بَعْدَ عَجْزِهِمْ عَنْهُ؛ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الَّذِينَ  
 يُوَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ  
 يُؤَفِّيهِمْ أَجُورَ أَعْمَالِهِمْ فِيهَا، وَلَا  
 يَكُونُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ، وَيَحْبِطُ  
 مَا صَنَعُوا فِيهَا وَتَبْطُلُ أَعْمَالُهُمْ، لِأَنَّهُمْ

للفريقين فقال سبحانه: ﴿مَثَلُ  
الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْنَى وَالْأَصْبَى  
وَالسَّيِّعُ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَلَّا  
تَذَكَّرُونَ﴾.

## تثبيت النبي بالقصص

### على تكذيبهم

الآيات [٢٥ - ٩٩]

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فذكر سبحانه أنه أرسل نوحاً إلى قومه لينذرهم قبل أن يأخذهم بعقابه. فأمرهم ألا يعبدوا إلا الله لأنه يخاف عليهم عذاب يوم اليم، فأجابه الذين كفروا من قومه بأنهم لا يرونه إلا بشراً مثلهم، ولا يرونه أتبعه إلا أرادلهم بادي الرأي، ولا يرون لهم عليهم من فضل. بل يظنونهم كاذبين في دعواهم، ثم ذكر أنه أجابهم بأنه على بينة من ربه وقد آتاه رحمةً من عنده، فإذا كان هذا قد عُصِيَ عليهم فلا يلزمهم أن يؤمنوا به وهم له كارهون. وقد فصل في قصته هنا ما فصل، وذكر فيها ما لم يذكره في قصة يونس من الأخبار والحكم والمواعظ؛ إلى أن ختمها ببيان ما كان من عقابه لمن

وُفُوا أجورها في دنياهم؛ ثم ذكر أن من كان على بينة من ربه - وهو القرآن - ويتلوه شاهد منه - وهو الإنجيل - ومن قبله كتاب موسى - وهو التوراة - لا يمكن أن يكون جزاؤه كغيره، أولئك يؤمنون به، ومن يكفر به فالنار موعده؛ ثم نهى النبي (ص) على سبيل التعريض أن يكون في مِرَّةٍ منه: ﴿إِنَّهُ لَخَفِيٌّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ثم ذكر أنه لا يوجد أظلم ممن افترى عليه كذباً بشركهم، وأنهم يغرصون عليه، ويقول الأشهاد من الملائكة الذين كانوا يراقبونهم في دنياهم: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ثم يذكرون أنهم كانوا يضدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون، وأنهم لم يكونوا معجزين في الأرض، وما كان لهم من دون الله من أولياء يمتعون عنهم، ولكنه أراد إيهالهم ليضاعف العذاب لهم، وأنهم ما كانوا يستطيعون سماع القرآن، وما كانوا يبصرون هديه، وأنهم خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون، وأنهم في الآخرة هم الأخسرون؛ ثم أتبع هذا بوعد المؤمنين بأنهم أصحاب الجنة هم فيها خالدون، وضرب مثلاً

كذبه، وأنه سبحانه نجاه هو ومن آمن به وبارك عليه وعلى أمم منهم يهتدون بهديهم، ومنهم أمم سئمتمهم في الدنيا ثم يمسه من عذاب اليم: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَكْتُمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الصَّبْرَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ (١٨).

ثم ذكر أنه أرسل إلى عاد أخاهم هوداً فأمرهم سبحانه بعبادته وحده، وقد مضت قصته معهم في سورة الأعراف. لكن ما ذكر منها هنا يخالف ما ذكر منها هناك في السياق والأسلوب والزيادة والنقص، وقد ذكر في ختامها أنه لما جاء أمره بهلاكهم نجى هوداً ومن آمن به، وأنهم لا يذكرون إلا بأنهم جحدوا بآياته وعَصَوْا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِقَتْلِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِقَارِ قَوْمِ هُودٍ﴾ (١٩).

ثم ذكر أنه أرسل إلى ثمود أخاهم صالحاً، فأمرهم سبحانه أن يعبدوه وحده، وقد مضت قصتهم أيضاً في سورة الأعراف، والفرق بينها في السورتين كالفرق بين قصة عاد فيهما،

(١) أي مشوناً.

وقد ذكر في ختامها أنه، لما جاء أمره بهلاكهم نجى صالحاً ومن آمن به، وأخذت الكافرين الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين: ﴿كَانَ لَمْ يَنْفَرُوا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لَثَمُودٍ﴾ (٢٠).

ثم ذكر أنه جاءت رسله إبراهيم بالبشرى، وأنه قدّم لهم بعد السلام عَجَلًا حنيئاً<sup>(١)</sup> لياكلوا منه فلم تمتد إليه أيديهم، فلما رأى ذلك تكبرهم وأوجس منهم خيفة، فطمأنوه وأخبروه بأنهم أزيلوا لهلاك قوم لوط، وكانت أمراته قائمة فضحكت فبشروها بولد يولد لها من إبراهيم وهو إسحاق، وبولد يكون لإسحاق يكون هو يعقوب؛ ثم ذكر أن إبراهيم طلب منهم أن يؤخروا عذاب قوم لوط لعلهم يؤمنون به، وأنهم أمروه أن يعرض عن هذا الطلب، لأنه قد جاء أمر الله بهلاكهم، ثم ذكر قصة قوم لوط وقد مضت في سورة الأعراف، والفرق بينها في السورتين هو ما سبق في قصة عاد وثمرود، وقد ذكر جلّ وعلا في ختامها، أنه أمر لوطاً وأهله إلا امرأته

فذكر أن ما سبق من أنباء القرى يقضه عليه وبعضها لا تزال آثاره قائمة، وبعضها ذهبت آثاره كلها، وأنه لم يظلمهم بهذا، ولكنهم ظلموا أنفسهم، باتخاذهم آلهة غيره، فلم تدفع عنهم شيئاً؛ ثم ذكر أن في هذا دليلاً لمن خاف عذاب الآخرة، وأنه يوم يجتمع له الناس وما يؤخره إلا لأجل معدود، إلى غير هذا مما ذكره من أحوال الأشقياء والسعداء فيه.

ثم نهى النبي (ص)، على سبيل التعريض، أن يكون في مزية من يعبد قومه، وذكر أنهم لا يعبدون إلا كما يعبد الذين قص أخبار هلاكهم، وأنه سيوفهم نصيبهم من العذاب أيضاً؛ ثم ذكر أنه قد أنزل على موسى التوراة من قبله، فاختلفوا فيها كما اختلف قومه فيما أنزل إليه، وأنه لولا أن كلمته سبقت بتأخير عذابهم لفضى به بينهم، وأنه جلت قدرته، لا بد أن يوفي كلًا من الفريقين جزاء أعمالهم: ﴿إِنَّهُمْ بِمَا يَمْكُلُونَ خَبِيرٌ﴾ ثم أمره أن يستمر على استقامته، كما أمر هو ومن تاب معه، ونهاهم أن يطغوا كما يطغى المشركون، أو يركنوا إليهم لثلاث تمسهم النار، ولا يجدون من دونه أولياء ثم لا

أن يخرجوا من قريتهم، ثم أمطر عليها حجارة من سجيل منضود: ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾.

ثم ذكر أنه أرسل إلى مدين أخاهم شعيباً، فأمرهم سبحانه أن يعبدوه وحده، وقد مضت قصتهم في سورة الأعراف، والفرق بينها في السورتين هو ما سبق في قصة عاد وثمود وقوم لوط، وقد ذكر في ختامها، أنه لما جاء أمره بهلاكهم نجى شعيباً ومن آمن به، وأخذت الكافرين الصيحة فاصبحوا في ديارهم جائمين: ﴿كَانَ لَرَّ يَفْتَنُوا فِيهَا أَلَا بَعْدًا لِمَلِكٍ كَمَا بَدَتْ لُحُودٌ﴾ ثم ذكر أنه أرسل موسى إلى فرعون وقومه وقد مضت قصتهم في سورة يونس، ولكنه لم يفضلها هنا كما فضلها هناك، وإنما ذكر تعالى أنهم خالفوه واتبعوا أمر فرعون، فأوردتهم النار، ويشس البرزد المورود: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَقِنَّهُ وَيَوْمَ أَلْقَيْنَا بِشْرَ الرِّقْدِ الْمَرْقُودِ﴾.

### الخاتمة

الآيات [١٠٠ - ١٢٣]

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

ينصرون. وأمره أن يستمر على إقامة الصلاة في أوقاتها، وأن يصبر على تكذيب قومه له: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ثم عاد سبحانه الى أولئك الذين قُصَّتْ أخبار هلاكهم، فذكر سبحانه أنه لم يكن فيهم أولو بقية يُنْهَوْنَ عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجاهم، وأنهم اتَّبَعُوا ما أَتَرَفُوا فيه وكانوا مجرمين، وأنه لم يكن ليهلك تلك القرى بظلم وأهلها مصلحون، وأنه لو شاء لجعلهم مصلحين جميعاً ولا يزالون مختلفين إلا من رَجَمَهُ، ولذلك خَلَقَهُمْ: ﴿وَوَعَدْتُكُمْ رَجْمَ رَبِّكَ

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

ثم ذكر للنبي (ص) ما قُصَّ من أنباء الرسل لِيُثَبِّتَ به فؤاده، وأنه جاءه في هذه السورة الْقَصَصُ الْحَقُّ وموعظة وذكرى للمؤمنين، وأمره أن يخبر الذين لا يؤمنون بما جاء فيه من الوعيد بالعذاب، أن يعملوا ما يقدرُونَ لمنعه، لأنه سيعمل لتحقيقه، وأمرهم أن ينتظروه لأنه والمؤمنين ينتظرونه لهم: ﴿وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

## أسرار ترتيب سورة «هود» (\*)

فكانت هذه السورة شارحة لما أُجْمِلَ في سورة يونس<sup>(٢)</sup>. فإن قوله هناك: ﴿وَاتَّبَعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ [يونس/ ١٠٩]، هو عين قوله هنا: ﴿كَتَبُ أَهْكَمَتَ ۖ إِنَّمَا يُنْفِثُ ثُمَّ قُفِلَتْ مِنْ لَدُنْ مَكِيْمٍ خَبِيرٍ ۝﴾ [فكان أول هود تفصيلاً لخاتمة يونس].

أقول: وجه وضعها بعد سورة يونس: أن سورة يونس ذكر فيها قصة نوح مختصرة جداً، مجملة<sup>(١)</sup>، فشرحت في هذه السورة وبسطت بما لم تبسطه في غيرها من السور، ولا في سورة الأعراف على طولها، ولا في سورة نوح التي أفردت لقصته.

(\*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(١) وذلك من قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ تَأْنِيْجًا﴾ [يونس/ ٧١] إلى ﴿وَمَا نُنْظِرُ كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْعَاقِبِينَ ۝﴾ [يونس].

(٢) وذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الآية ٢٥] إلى ﴿قِيلَ بَشِّرْ أَهْلَ بَيْتِكَ بِمَنَاسِكٍ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [يونس/ ٤٨].



مكنونات سورة «هود» (\*)

١ - ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمَ مِنْ رَبِّهِ  
وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [الآية ١٧].

قال ابن عباس، ومجاهد، وأبو  
العالية<sup>(١)</sup>: مَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ:  
محمد (ص)؛ والشاهد: جبريل.

وقال زُيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: مَنْ: مُحَمَّدٌ؛  
والشاهد: القرآن.

وقال الحسين<sup>(٢)</sup> بن علي: مَنْ:  
المؤمن؛ والشاهد: محمد (ص).

أخرج ذلك ابنُ أبي حاتم.

وأخرج عن محمد بن الحنفية<sup>(٣)</sup>  
قال: قلت لأبي: يَا أَبَتِ: ﴿وَتَلَّوْهُ  
شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: إِنَّكَ  
أَنْتَ هُوَ.

قال: وَدِدْتُ أَنِّي أَنَا هُوَ. لكنه  
لسانه<sup>(٤)</sup>.

وأخرج عن عباد بن عبد الله قال:  
قال علي: مَا فِي قَرِيشٍ أَحَدٌ، إِلَّا وَقَدْ  
نَزَلَتْ فِيهِ آيَةٌ.

(١) انقضى هذا المبحث من كتاب «مُتَجَمَّعَاتُ الْأَقْرَانِ فِي مَبْهَمَاتِ الْقُرْآنِ» للسَّيُوطِي، تحقيق إِيَادُ خَالِدِ الطَّبَّاعِ، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(٢) هذا القول صَحَّحَهُ ابْنُ كَثِيرٍ.

(٣) كَذَا فِي الطَّبْرِيِّ فِي «تَفْسِيرِهِ» ١٢/١٠.

(٤) مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ: هُوَ ابْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، لَكِنَّهُ نَسَبَ إِلَى أُمِّهِ، كَانَ ثَقَّةً عَالِمًا مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ بَيْتِهِ، مَاتَ بَعْدَ الثَّمَانِينَ.

(٥) الْمَثْبُوتُ مِنْ «تَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ» ١٢/١٠؛ وَوَقَعَ فِي «الدَّرِّ الْمَشْهُورِ» ٣/٣٢٤: «مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ» ٧/٣٧: «لِسَانُ مُحَمَّدٍ (ص)». وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» وَفِيهِ خَلِيدُ بْنُ دَعْلَجٍ، وَهُوَ مَتْرُوكٌ.

قلت له : فما نزل فيك ؟ قال :  
﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾<sup>(١)</sup>.

وفي «العجائب» للكرماني :

قيل : (الشاهد) : مَلَكٌ يحفظه<sup>(٢)</sup>.  
وقيل : أبو بكر.

وقيل : الإنجيل<sup>(٣)</sup>.

٢ - ﴿وَيَقُولُ أَأَشْهَدُ﴾ [الآية ١٨].

يأتي في سورة غافر<sup>(٤)</sup>.

٣ - ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾  
[الآية ١٩].

قال السُّدِّيُّ : هو محمد (ص).  
أخرجه ابن أبي حاتم.

٤ - ﴿وَقَارَ التَّنُورَ﴾ [الآية ٤١].

أخرجه ابن أبي حاتم عن علي قال :  
فار التنور من مسجد الكوفة من قبل

أبواب كِنْدَةَ.

وأخرج عن ابن عباس في قوله  
تعالى : ﴿وَقَارَ التَّنُورَ﴾.

قال : العين التي بالجزيرة عين  
الوردة.

وأخرج عن قتادة قال : التنور :  
أشرف الأرض، وأعلاها، عين  
بالجزيرة : عين الوردة<sup>(٥)</sup>.

وأخرج من وجه آخر عن ابن عباس  
قال : ﴿وَقَارَ التَّنُورَ﴾ بالهند.

٥ - ﴿وَمَا أَمَرَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾<sup>(٦)</sup>.

قال ابن عباس : كان معه في السفينة  
ثمانون رجلاً، معهم أهلهم،  
أحدهم : جُزْهُم<sup>(٦)</sup>. أخرجه ابن أبي  
حاتم<sup>(٧)</sup>.

(١) ضفقه ابن كثير في «تفسيره».

(٢) أخرجه الطبري في «تفسير» ١٢/١٢ عن مجاهد، وهو جبريل كما في روايات أخر فيه.

(٣) قال الطبري بعد أن أورد الأقوال في تفسير هذه الآية ١٢/١٢ : «وأولى هذه الأقوال التي ذكرها بالصواب في تأويل قوله تعالى : ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ قول من قال : هو جبريل لدلالة قوله سبحانه في الآية نفسها : ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ على صحة ذلك، وذلك أن نبي الله (ص) لم يثل قبل القرآن كتاب موسى، فيكون ذلك دليلاً على صحة قول من قال : غُثِيَ به لسان محمد (ص)، أو محمداً نفسه، أو علياً، على قول من قال غُثِيَ به علياً، ولا يعلم أن أحداً كان تلا ذلك قبل القرآن، أو جاء به ممن ذكر أهل التأويل أنه عني بقوله تعالى : ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ غير جبريل عليه السلام.

(٤) في الآية (٥١) وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَنْشُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَرْبِّهُمْ بِقُورِ الْآشْهَادِ﴾.

(٥) حين الوردة : موضع على مقربة من الكوفة. انظر «الروض المعطار» : ٤٢٣.

(٦) وكان لسانه عربياً، كما في «الدر المنثور» ٣/٣٣٣.

(٧) والطبري ١٢/٢٦ - ٢٧.

وأخرج في آثار عن قتادة، وكعب الأحبار، ومحمد بن عباد بن جعفر، ومطر، وغيرهم: أنه كان معه اثنان وسبعون مؤمناً، وهو، وزوجته، وأولاده الثلاثة: سام، وحام، ويافث؛ وزوجات الثلاثة، وأنه ركبها في عَشْرِ خَلَوْنَ من رجب، ونزل في عشر خَلَوْنَ من المحرم<sup>(١)</sup>.

٦ - ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ [الآية ٤٢].

قال قتادة: كان اسمه كنعان. أخرجه ابن أبي حاتم. وقيل: يام. حكاه السهيلي.

فائدة: وقع السؤال كثيراً، هل كان ماء الطوفان عذباً، أو ملحاً؟ لم نعبأ بذلك.

ثم رأيت ما يدل على أنه كان عذباً. أخرج ابن أبي حاتم، من طريق نوح

ابن المختار، عن أبي سعيد عقيص<sup>(٢)</sup> قال: خرجت أريد أن أشرب ماء المر، فمررت بالفرات، فإذا الحسن والحسين؛ فقالا: يا أبا سعيد، أين تريد؟

قلت: أشرب ماء المر.

قالا: لا تشرب ماء المر، فإنه لما كان زمن الطوفان أمر الله الأرض أن تبلع ماءها، وأمر السماء أن تقلع، فاستعصى عليه بعض البقاع فلعنه، فصار ماؤه مرّاً، وترا به سبخاً<sup>(٣)</sup>، لا ينبت شيئاً.

٧ - ﴿فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [الآية ٦٥].

قال قتادة: هي: يوم الخميس، والجمعة، والسبت؛ وصَبَحَهُم العذاب يوم الأحد. أخرجه ابن أبي حاتم.

(١) قال الطبري ٢٧/١٢: والصواب من القول في ذلك القول أن يقال كما قال الله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ، إِلَّا قَلِيلٌ﴾ يصفهم بأنهم كانوا قليلاً، ولم يحذّ عددهم بمقدار، ولا خبر عن رسول الله (ص) صحيح. فلا ينبغي أن يتجاوز في ذلك حد الله، إذ لم يكن لمبلغ عدد ذلك حد من كتاب الله أو أثر عن رسول الله (ص).

(٢) في «لسان الميزان» و«الميزان»: «عقيصاً» وهو رجل غير ثقة في حديثه، حتى إن الدارقطني تركه، ولم يؤثقه النسائي، ولا الخوارجاني. وقال ابن عدي: ليس له رواية يعتمد عليها عن الصحابة، وإنما له قصص يحكيها.

لذلك لا يعتمد على هذا الخبر؛ وقول ابن عدي هذا يكفي لردّه. انظر «ميزان الاعتدال» ٨٨/٣ و«لسان الميزان» ٤٣٣/٢.

(٣) سبخاً: مالحاً.

٨ - ﴿وَأَمَّا أَنْتُمْ فَآيِمَةٌ﴾ [الآية ٧١].

اسمها: سارة.

٩ - ﴿قَالَ يَنْفَعُوكَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ [الآية

[٧٨].

سمى السُّدِّيَّ الكبير: رُئِشَا،  
والصغرى: رغوثةا.

أخرجه ابن أبي حاتم.  
وسمى الوسطى<sup>(١)</sup>.



---

(١) هذه العبارة ضرب عليها بالقلم، وروى الطبري ٥١/١٢ عن مجاهد قال: لم يكن بناته، لكن كن من أمته، وكل نبي أبو أمته.

(\*) لغة التنزيل في سورة «هود»

الفعل، لهم الخسران. وقال غيره:  
معناه: لا بد ولا محالة أنهم.

وقيل: معناه حقاً، ويستعمل في أمر  
يُقطع عليه ولا يُرتاب فيه، أي: لا  
شك أن هؤلاء الكفار هم أخسر الناس  
في الآخرة.

أقول: حين اختلفت الأقوال في  
معنى «لا جرم»، أصبحت الكلمة من  
المسائل المُشكلة، فليس في طوق  
المتكلم أن يستعملها، ولعل من أجل  
ذلك لم يكتب لها البقاء كثيراً في  
العربية، وقلما نقف على شيء منها في  
النصوص.

لقد روي في حديث قيس بن عاصم  
قوله: لا جرم لأقلن حذها.

قال ابن الأثير: هذه كلمة ترد بمعنى

١ - وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يُلْتَوْنَ  
سُودَهُمْ لِنَسْتَحْفُوا مِنْهُ﴾ [الآية ٥].

قوله تعالى: ﴿يُلْتَوْنَ سُودَهُمْ﴾، أي:  
يزورون عن الحق وينحرفون عنه: لأن  
من أقبل على الشيء استقبله بصدرة،  
ومن ازور عنه وانحرف، ثنى عنه  
صدره، وطوى عنه كشحته.

أقول: و«ثنى الصدر» من مجازات  
القرآن البديعة التي لم نعرفها في  
مجازات العرب.

٢ - وقال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي  
الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾.

قال الزجاج: «لا» نفى لما ظنوا أنه  
ينفعهم، كأن المعنى لا ينفعهم ذلك  
جزم ﴿لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ  
الْأَخْسَرُونَ﴾، أي: كسب ذلك

(هـ) انتهى هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السائرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

تحقيق الشيء، واختلف فيها فقليل أصلها التبرئة بمعنى لا بد، وقد استعملت بمعنى حقاً.

وقال الخليل: إن «جرم» إنما تكون جواباً لما قبلها من الكلام، يقول الرجل: كان كذا وكذا وفعلوا كذا، فتقول: لا جرم أنهم سيندمون، أو انه سيكون كذا وكذا.

٣ - وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: اطمأنوا إليه، وانقطعوا الى عبادته بالخشوع والتواضع، وهو من الخبت أي: الأرض المطمئنة.

وقيل: معناه أنابوا وتضرعوا إليه، وهو قول ابن عباس.

وعن مجاهد: المعنى خضعوا له وخشعوا اليه، والكل متقارب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج].

أي: المتواضعين: وقيل: المطمئنين.

وفي قوله تعالى: ﴿فَقُتِحَتْ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج/٥٤].

فسره ثعلب بأنه التواضع.

وفي حديث الدعاء: «واجعلني لك مُحْتَباً».

أقول: وهذا من الكلم القرآني الذي تَهَضُّ له أهل العلم من اللغويين والمفسرين، ووقفوا منه وقفات فيها جد وإخلاص.

٤ - وقال تعالى: ﴿وَمَا زَلْنَاكَ أَنبَأَكَ إِلَّا الْأَيُّنَ هُمْ أَرَادُنَا بَدِئَ الرَّأْيِ﴾ [الأنبياء/٢٧].

قوله تعالى: ﴿بَدِئَ الرَّأْيِ﴾ بمعنى أول الرأي أو ظاهر الرأي، وانتصابه على الظرف، أصله: وقت حدوث أول رأيهم، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم، فحذف ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه. وقرأ بالهمز وغير الهمز.

أقول: قد يُحمل على الظرف مسائل كثيرة ليست من الظرف في الدلالة الزمانية أو المكانية، فما أضيف الى الظرف أو إلى كل ما يدل على شيء من الزمان والمكان ينصب على الظرفية، ألا ترى أن «أثناء» جمع ثني، و«خلال» مصدر يدل على المكان، ولكنهما اكتسبا الظرفية من الخافض «في» كما في قولهم: «في أثناء»،

لكأنك مع هذا النظم البديع أمام مشهد متصل الصُّور منسجم الألوان، وهذا من لطف بديع القرآن.

وأنت إذا تلوت: ﴿يَتَأَرْضُ آبِلَى مَاءَهُ﴾، ثم عَقِبَتْ عليها بقوله تعالى: ﴿وَنَسَمَاءُ آفِلَى﴾، غَلَبَ عليك جمال هذا التقطيع عن الانصراف الى السجع بين «ابلي» و«أفلي».

ونتابع هذا الأسلوب المُحْكَم في وضع الفِقْرِ، المصيب كل الاصابة للمعنى بياناً وتصويراً، فنجد أنفسنا مأخوذِينَ بلطف الصنعة في السرد، وما يشبه الحركة الفنية، في الخطاب والجواب الذي يقتضيه مقام سرد الخبر، وتتلو:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠) قَالَ يَنْتُحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّهُ يَنْتُحِ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْخَالِفِينَ (١١).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٧).

﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَفِيضْ يَسْلَمِ مِنَّا وَرَكَعْتَ

والخافض «من» في قولهم «من خلال»، ثم اتسع في الاستعمال، وشاعت الظرفية في الكلمتين فأسقط الخافض فقيـل: وحدث أثناء ذلك والأصل: «في أثناء ذلك»، وقيل: وعرض خلال الأمر، والأصل: من خلال.

٥ - وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ مَنْ يُصْرِفُ مِنْ اللَّهِ إِنْ كَرِهْتُمْ﴾ [الآية ٣٠].

المراد بقوله تعالى: ﴿مِنْ اللَّهِ﴾، أي من انتقامه، فمن يمنعني من ذلك إن طردتهم أقول: وطئ، «الانتقام»، بهذه الصورة يتبين من المعنى وسياق الآية قبلها. وفي أسلوب القرآن، من الإيجاز بالحذف، ما لا يدركه إلا الفطن اللبيب.

٦ - وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَأَرْضُ آبِلَى مَاءَهُ وَنَسَمَاءُ آفِلَى وَغِيصَ الْمَاءِ رَفَقَى الْأَمْرُ وَأَسْوَتْ عَلَى الْمُرُوءِي وَقِيلَ بَعْدُ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١١).

أقول: إن أسلوب القرآن جرى على نسق من إحكام الجملة العربية، فخصها بشيء كثير من «التناسب»، وأريد بالتناسب محاكاة الطول، حتى

عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمُورٍ مِّمَّنْ مَعَلَّكَ وَأُمُّ  
سَنَّتِهِمْ ثُمَّ يَمْشُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ  
أَلِيمٌ ﴿١٨﴾.

ونجتزئ بهذا القدر، من هذه اللغة  
الشريفة التي أحسن الله بناءها، فكان  
من ذلك سر الإعجاز.

٧ - وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا  
رَبَّهُمْ﴾ [الآية ٦٠].

قوله تعالى: ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾، المراد  
به (كفروا بربهم) فحذف الباء كقولهم:  
أمرتك الخير، والمعنى أمرتك بالخير،  
وهذا من باب الحذف والإيصال، وفي  
لغة القرآن، وغيره، نظائر وأشباه، قال  
تعالى:

﴿أَلَا إِنَّ نَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُدًّا  
لِّنَمُودَ﴾ ﴿٧١﴾.

ولا بد أن نستذكر قوله تعالى:  
﴿وَإِنَّمَا تُمَوِّئُونَ قَوْمَهُ سَئِئِينَ رَجُلًا﴾  
[الأعراف/١٥٥]. وقد مرّ كلامنا على  
الآية.

٨ - وقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ  
الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ فِيهَا﴾ [الآية ٦١].

المراد بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعْمَرَ﴾

فِيهَا، أي: أذن لكم في عمارتها،  
واستخراج قومكم منها، وجعلكم  
عُمَارَهَا.

أقول: هذا هو أصل الاستعمار،  
فماذا من أمره في العربية المعاصرة. لا  
أريد أن ادخل في موضوع «الاستعمار»  
بمعناه الحديث، فهو تسلط أجنبي،  
أعداء على بلاد ليست بلادهم،  
والاستيلاء عليها والإفادة من خيراتها.

ومن غير شك، أن في هذا فهماً  
جديداً لهذه الكلمة، يدخل في باب  
التطور الجديد، وكم من كلمة قُبِطَتْ  
من علٍ إلى الدرك الأسفل، وليس  
غريباً أن تجد عكس ذلك.

٩ - وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا  
تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾  
[الآية ٧٠].

قوله تعالى: ﴿نَكَّرَهُمْ﴾ مثل أنكّره  
واستنكره، إلا أن «منكور» قليل في  
كلامهم، وقال الأعشى:

وأنكرتني وما كان الذي نكّرت

منّي الحوادث إلا الشئب والضلعا

أقول: قولهم: إن «منكور» قليل في  
كلامهم مع وجود الفعل الثلاثي، وهذا

مألف في العربية، ألا ترى أنهم قالوا:  
الظلام والظلمة، حتى إذا أرادوا الفعل  
قالوا: أظلم الليل، وليس لهم «ظلم».

١٠ - قال تعالى: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ  
بِعَمَلٍ خَيْرٍ﴾ (١٩).

أقول: والحنيذ المشوي بالزُصْف في  
أخدود، أي: بالحجارة.

وهذا، مما كان معروفاً في رسوم  
الجاهليين وغيرهم، من أهل البوادي.

١١ - وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ  
رُسُلًا لَوْ كُنَّا نَبِيًّا يَوْمَ وَضَاقَ يَوْمٍ ذَرْعًا وَقَالَ  
هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (٧٧).

قال الزمخشري<sup>(١)</sup>: كانت مساء  
لوط وضيق ذرعه لأنه حسب أنهم  
إنس، فخاف عليهم خبث قومه، وأن  
يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم.

أقول: جاء في كتب اللغة: أن الذرع  
الطاقة. وضاق بالأمر ذُرْعُهُ وذراعُهُ  
أي: ضَعُفَتْ طاقته، ولم يجد من  
المكروه فيه مَخْلَصاً، ولم يُطْفِهْ ولم  
يَقْوُ عليه، وأصل الذرع إنما هو ينشط  
اليَد فكَانَكَ تريد: مددت يدي إليه فلم  
تنله، قال حميد بن ثور يصف ذنباً:

(١) «الكشاف» ٤/١٣٢.

وإن بات وحشاً ليلة لم يَضِقْ بها  
ذراعاً، ولم يصبغ لها وَهْرَ خَائِضٍ  
وضاق به ذراعاً مثل ضاق به ذراعاً،  
ونصب «ذراعاً»، لأنه خَرَجَ مُفسِراً  
مُحوّلاً، لأنه كان في الاصل: ضاق  
ذرعِي به، فلما حوّل الفعل خَرَجَ قوله  
ذراعاً مفسِراً، ومثله طببت به نفساً،  
وقرّزت به عيناً.

وأصل «الذرع» أن يذرع البعير بيديه  
في سيره ذراعاً على قدر سعة خطوه،  
فإذا حملته على أكثر من طاقته حتى  
يَنْطَرُ، ويمدُّ عُثْقَهُ ضعفاً عما حُمِلَ  
عليه.

١٢ - وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ قَوْمُهُ  
يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ (الآية ٧٨).

قال أبو عبيدة: معناه يُسْتَحْتَوْنَ إليه  
كأنه يَحْتُ بعضهم بعضاً.  
وتَهَرَّعَ إليه: عَجَلَ.

أقول: وأصل الهَرَع والهَرَع والإهراع  
شدة السُّوق، وسُرعة العدو، قال  
الشاعر:

كَأَنَّ حُمُولَهُمْ مُتَابِعَاتٍ،  
رَعِبَلٌ يُهْرَعُونَ إِلَى رَعِبَلٍ  
وهذا الفعل «هرع»، ومثله قولهم

«ضاق به ذرعاً» في الآية السابقة، يدلان دلالة واضحة على مكانة البداوة وتأثيرها في العربية، وكيف أنها أمدت هذه اللغة بذخائر حولها الاستعمال وأبعد عنها صفة البداوة، فصارت من مواد الحضارة. ومن المفيد أن أشير إلى أن الفعل «هَرَعَ» بني في استعمالهم على ما لم يُسَمِّ فاعله: وقالوا معناه المعلوم مثل سَقَطَ وَحُمَ وَغُمَ وغير ذلك. غير أن المعربين في عصرنا، درجوا على بنائه على «فَعَلَ يَقَعْلُ» نظير «سَطَعَ يسطع»، وكأن التنبيه على موطن التجاوز والخطأ أفاد، فبدأ إصلاحهم للخطأ.

١٣ - وقال تعالى: ﴿وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُبَيِّبَكُمْ يَنْقُلُ مَا أَمَّا بَ قَوْمٌ نَوْجٌ﴾ [الآية ٨٩].

قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُبَيِّبَكُمْ﴾، أي: لا يكسبنكم شقاقي إصابة العذاب.

و«جَرَمَ» مثل «كَسَبَ» في تَعَذِّيهِ إلى مفعول واحد وإلى مفعولين: تقول: جَرَمَ ذَنْباً وَكَسَبَهُ، وَجَرَمْتُهُ ذَنْباً وَكَسَبْتُهُ إِيَّاهُ، قال:

(١) «الكشاف» ٢/ ٤٢١.

ولقد طَعَنْتُ أبا عُبَيْنَةَ طَعْنَةً جَرَمْتُ قَزَارُهُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا وقرأ ابن كثير بضم الياء من «أجرته ذَنْباً» إذا جعلته جارماً له، أي: كاسباً، وهو منقول من «جَرَمَ» المتعدي إلى مفعول واحد، كما نُقِلَ «أَكْسَبَهُ المال» من «كَسَبَ المال»، وكما لا فرق بين كَسَبْتُهُ مالاً وأَكْسَبْتُهُ إِيَّاهُ، فكذلك لا فرق بين «جَرَمْتُهُ ذَنْباً» و«أَجَرَمْتُهُ إِيَّاهُ». والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما، إلا أن المشهورة أفصح لفظاً<sup>(١)</sup>.

أقول: وليس لنا شيء من هذا الفعل. بهذه الدلالة أو ما يقرب منها في عربيتنا المعاصرة.

١٤ - وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَظُّهُمْ وِرَاءَكُمْ يَظْهَرُونَ﴾ [الآية ٩٢].

والظَهْرِي: الذي تجعله بظهر، أي: تنساه وتغفل عنه، والمراد بالآية أي لم تلتفتوا إليه، وتركتم أمر الله وراء ظهوركم.

قال ابن سيده: وَأَتَّخَذَ حَاجَتَهُ يَظْهَرِيّاً، استهان بها كأنه نَسَبَهَا إلى الظَّهْرِ، على غير قياس، كما قالوا في النَّسَبِ إلى البصرة بِصُرِّي.

١٦ - وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ يُحْدَوِّثُ﴾ (١٧).

والمعنى: غير مقطوع.

وجذَّ الشَّعر معروف في عصرنا في العربية المعاصرة.

أما الجذ بمعنى القطع كما في الآية، فهو معروف في العربية القديمة، فالجذَّ القطع، وكسر الشيء الصُّلب، والجُذَّادُ والجُذَّاذ، ما كُسِرَ منه، وضَمُّه أفصح من كسره، والواحدة جُذَّاذة، وقطع الفضة الصغار جُذَّاذ، ويقال لحجارة الذهب. والجُذَّاذات القراضات للفضة.

وَجَذَذَتِ الحبل قطعته فانجذَّ، وَجَذَّ السُّخْلُ يَجْذُهُ جَذْأً وَجَذَّاذاً وَجَذَّاذاً حَزَمَهُ. عن اللحياني، وهي مثل جزَّ جزأً وَجَزَّازاً وَجَزَّازاً. وَرَجَمَ جَذَّاءً: مقطوعة.

أقول: ذهب كل هذا وليس لنا إلا الشَّعر يُجْذَّ، وإلا قول المعاصرين من الباحثين في مصطلحهم «الجُذَّاذة» لقطعة الورق، التي يشتون فيها فائدة خاصة، يرجعون إليها بعد جمع ما يحتاجون إليه من فوائد ومعارف، لتدخل في المادة التي يحزرونها كتاباً أو أي شيء آخر.

وفي حديث علي - عليه السلام - : اتَّخَذْتُمُوهُ وِراءَكُمْ ظَهْرِيّاً حَتَّى شُتَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ، أَي: جَعَلْتُمُوهُ وِراءَ ظَهْرِكُمْ.

أقول: لم يسبق من هذه المادة الجميلة إلا ما ورد على التثنية، وهو معروف لدى القلة من أهل العربية الملتزمة بالفصاحة، يقال: هو نازل بين ظَهْرَانِيهِمْ، أَي: بين أظهرهم، وأقام بينهم.

وقد ورد في الحديث الشريف أيضاً، ويقال بين ظَهْرَانِيهِمْ أيضاً.

وينبغي أن ننبه إلى أن قولهم: «بين ظَهْرَانِيهِمْ» و«ظَهْرِيهِمْ» ينبغي أن يكون الأول والثاني بفتح الظاء، والأول أيضاً بفتح النون. وتنبيهي هذا دليل أن الخطأ معروف، كما أن الاقلمين نبهوا على مثل هذا.

١٥ - وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ﴾ (١٦).

أَي: ما زادوهم غير تخسير، يقال: تَبَّ إِذَا خَسِرَ، وَتَبَّيَّهْ غَيْرُهُ إِذَا أَوْقَعَهُ فِي الْخَسْرَانِ.

أقول: لا نعرف في العربية المعاصرة هذا الفعل ولا المصدر، كما لا نعرف الثلاثي منه، ولا نقرأه إلا في لغة التزليل.



### (\*) المعاني اللغوية في سورة «هود»

فتنّسده العرب نصياً.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ  
مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الآية ١٧] على خبر  
المعرفة.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾<sup>(١)</sup>  
[الآية ١٧] وقرأ بعضهم (مُرْيَةٍ)<sup>(٢)</sup> نكسر  
وتضم وهما لغتان<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَغْصَى وَالْأَصْنَمِ﴾ [الآية ٢٤] أي: كَمَثَلِ الْأَغْصَى وَالْأَصْنَمِ<sup>(٥)</sup>.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَفِيضٌ فَخُورٌ﴾ (١) ألا الَّذِينَ صَبَرُوا بجعله خارجاً من أول الكلام على معنى «ولكن» (٢)؛ وقد فعلوا هذا فيما هو من أول الكلام، فتصبروا. وقال الشاعر (٣) [من البسيط وهو الشاهد الحادي والثلاثون بعد المتن]:

بَا صَاحِبِي الْأَخِي بِالْوَادِي

إِلَّا غَبِيْداً قُلُوْداً بَيْنَ اَوْتَادٍ

(\*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، نحوي عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) نقله في إعراب القرآن ٤٧١/٢ والمشكل ٣٥٦/١ والجامع ١١/٩.

(٢) هو صخر الفى الهدلى، شرح أشعار الهدليين: ٩٣٩ والمحب ٢/ ٢٩٢ وديوان صخر الفى ٧١.

(٣) في الشواذ ٥٩ الى الإمام علي بن أبي طالب والحسن، وفي البحر ٢١١/٥ الى السلمي وأبي رجاء وأبي الخطاب والسدوسي، والحسن، وقال هم لغة أسد وتميم والناس وأهل مكة (كذا).

(٤) الكسر لأهل الحجاز، والفهم لنسيم وأسد، المزهر ٢/٢٧٦ واللهجات العربية ١٨٤.

(٥) نقله في إعراب القرآن ٤٧٤/٢ والجامع ٢١/٩.

وقال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ هُمْ  
أَرَادُوا لَنَا بَدَى الرَّأْيِ ﴿الآية ٢٧﴾ أي: في  
ظاهر الرأي. وليس بمهموز لأنه من  
«بدا» «يَبْدُو» أي: ظَهَرَ. وقال بعضهم  
(بادئ الرأي) أي: فيما يُبْدَأُ بِهِ مِنْ  
الرأي<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْنَا  
فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ ﴿الآية ٣٢﴾ وقرأ بعضهم  
(جدلنا)<sup>(٢)</sup> وهما لغتان.

وقال تعالى: ﴿قُلْنَا أَتَيْلَ فِيهَا مِنْ  
كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ﴾ ﴿الآية ٤٠﴾ بجعل

الزوجين الضربين الذكور والإناث.  
وزعم يونس<sup>(٣)</sup> أن قول الشاعر [من  
الطويل وهو الشاهد الثاني والثلاثون  
بعد المتين]:

رَأَيْتَ امْرُؤًا تَغْدُو عَلَى كُلِّ غَزَاةٍ

تُخْطِئُ فِيهَا مَرْءَةً وَتُصِيبُ  
يعني الذئب.

وقال: ﴿وَقَالَ أَتَكْبَرُ فِيهَا إِسْرَ  
أَلْفٍ تَجْرِيهَا وَمُرْسَهَا﴾ ﴿الآية ٤١﴾ بجعلها  
من جَرَيْت<sup>(٤)</sup>، وقرأ بعضهم (مُجْرَاهَا  
وَمُرْسَاهَا) إذا جُعِلَتْ مِنْ أَجْرَيْتِ<sup>(٥)</sup>.

(١) القراءة بلا حمز في الطبري ٢٧/١٢ نسبت الى عامة قراء المدينة والعراق، وفي السبعة ٣٣٢ والكشف ٥٦٦/١ والتيسير ١٢٤ الى غير أبي عمرو.

والقراءة بالهمز في الطبري ٢٧/١٢ الى بعض أهل البصرة، وفي السبعة ٣٣٢ والكشف ٥٦٦/١ والتيسير ١٢٤ والجامع ٢٤/٩ الى أبي عمرو؛ وفي البحر ٥/٢١٥ زاد عيسى التفني.

(٢) في الجامع ٢٨/٩ والبحر ٥/٢١٨ الى ابن عباس، وزاد الشواذ ٦٠ السخيتاني، وفي الإملاء ٣٨/٢ أن الجمهور على إثبات الألف.

(٣) هو يونس بن حبيب، وقد سبقت ترجمته.

(٤) في معاني القرآن ١٤/٢ أن فتح الميم الأولى إلى مسروق وعبد الله، وفي الكشف ٥٢٨/١ فتح الميم الأولى إلى حفص والكسائي، وكذلك في السبعة ٣٣٢ والتيسير ١٢٤ والبحر ٥/٢٢٥؛ وفتح الميم إلى ابن مسعود وعيسى بن عمر التفني وزيد بن علي والأعشى.

(٥) هي في معاني القرآن ١٤/٢ الى ابراهيم النخعي والحسن وأهل المدينة، وهي بضم الثانية وحدها الى مسروق وعبد الله؛ وفي السبعة ٣٣٢ أن ضم الميم في الأولى الى ابن كثير ونافع وأبي عمرو وعاصم في رواية، وإلى أبي بكر، وضم الميم في الثانية له القراء كلهم، وفي الكشف ٥٢٨/١ ضم الميم في مجراها إلى غير حفص وحزمة والكسائي، وضم الميم في الثانية الى الإجماع. وفي البحر ٥/٢٢٥ ضم الميم في الأولى إلى مجاهد والحسن وأبي حيان والأعرج وشيبة والجمهور من السبعة والحريين والعريين وأبي بكر، وضم الميم في الثانية الى القراء كلهم.

وقرأ بعضهم (مُخْرِجُهَا وَمُزَيِّنُهَا)<sup>(١)</sup> لانه أراد أن يجعل ذلك صفة لله عز وجل.

وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ لَّكَ جَبَلٌ يَّمْسُكُنِي﴾ [الآية ٤٣] بقطع (سَاوَى) لأنه «أَفْعَلٌ» وهو يعني نفسه.

وقال: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [الآية ٤٣] ويجوز أن يكون على «لَا إِذَا عِصْمَةٍ» أي: مَعْصُوم ويكون ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ رفعا بدلاً من العاصم<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَمَلٌ عَرِضٌ مَلِيحٌ﴾ [الآية ٤٦] منون<sup>(٣)</sup> لأنه حين قال - والله أعلم: ﴿فَلَا تَتْلَنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الآية ٤٦] كان في معنى «أَنْ تَسْأَلَنِي» فقال ﴿إِنَّهُمْ عَمَلٌ عَرِضٌ مَلِيحٌ فَلَا تَتْلَنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

وقال ﴿وَأَمُّ سَمِيعُهُمْ﴾ [الآية ٤٨]

بالرفع على الابتداء نحو قولك «ضَرَبْتُ زَيْدًا وَعَمَرُو لَقِيَّتَهُ» على الابتداء<sup>(٤)</sup>.

وقال: ﴿هَٰذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الآية ٦٤] بالنصب على خبر المعرفة.

وقال: ﴿قَالَتْ يَتْلُونَ مَالَهُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [الآية ٧٢] فإذا وقفت قلت (يا وليناه) لأن هذه الألف خفيفة وهي مثل ألف الندبة؛ فلطفت من أن تكون في السكت وجعلت بعدها الهاء، ليكون أبين لها، وأبعد للصوت. وذلك أن الألف إذا كانت بين حرفين كان لها صدَى كنعو الصوت يكون في جوف الشيء، فيتردد فيه فيكون أكثر وأبين. ولا تقف على ذا الحرف في القرآن كراهية خلاف الكتاب. وقد ذكر أنه يوقف على ألف الندبة؛ فان كان هذا صحيحاً، وقفت على الألف.

(١) في معاني القرآن ١٤/٢ إلى مجاهد، وفي الطبري ٤٤/١٢ إلى أبي رجاء العطاردي، وفي الجامع ٣٧/٩ إلى مجاهد وسليمان بن جندب وعاصم الجحدري وأبي رجاء العطاردي، وفي البحر ٢٢٥/٥ الضحاك والنخعي وابن وثاب وأبي رجاء ومجاهد وابن جندب والكلبي والجحدري.

(٢) نقله في التهذيب ٥٤/٢ عاصم.

(٣) في معاني القرآن ١٧/٢ نسبت إلى عامة القراء، وفي الطبري ٥١/١٢ و٥٢ إلى الحسن وابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وعامة قراء الأمصار وإبراهيم وقتادة ومجاهد. وفي السبعة ٣٣٤ إلى ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر وعاصم وحزمة، وفي الكشف ٥٣٠/١ والتيسير ١٢٥ إلى غير الكسائي.

(٤) نقله في إعراب القرآن ٤٨١/٢ والجامع ٤٨/٩ والبحر ٢٣١.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ (الآية ٧٤) وهو الفرع.

ويقال: «أَلْقِي فِي رُوعِي» ويقال: «افْرَحْ رُوعَكَ»<sup>(١)</sup> وألقي في رُوعي أي: في خلدي. «فالرُوع» القلب والعقل. «الرُوع»: الفرع.

وقال تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ (الآية ٧٨) بالرفع<sup>(٢)</sup>، وكان عيسى<sup>(٣)</sup> يقول (هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ)<sup>(٤)</sup> وهذا لا يكون إنما ينصب خبر الفعل الذي لا يستغني عن خبر، إذا كان بين الاسم وخبره هذه الأسماء المضمرة التي تسمى الفصل، يعني: «هي» و«هو» و«هن»، وزعموا أن النصب قراءة الحسن أيضاً.

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُنُوا فِي ضَيْفِي﴾ (الآية ٧٨) ف «الضيف»: يكون واحداً ويكون جماعة. نقول: «هؤلاء ضيفي»، هذا ضيفي، كما نقول: «هؤلاء جُنُبٌ» و«هذا جُنُبٌ»، و«هؤلاء عَدُوٌّ» و«هكذا عَدُوٌّ».

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ (الآية ٨٠) وبإضمار «لكان».

وقال ﴿إِلَّا أَمْرًا تَكُ﴾ (الآية ٨١) يقول: ﴿فَأَنصِرْ بِأَمْرِكَ﴾ ﴿إِلَّا أَمْرًا تَكُ﴾ بالنصب<sup>(٥)</sup>. وقرأ بعضهم (إِلَّا أَمْرًا تَكُ) بالرفع<sup>(٦)</sup> وحمله على الالتفات. أي لا يلتفت منكم إلا أمراتك.

وقال: ﴿وَأَنظُرْنَا عَلَيْهَا جِبَارَةً مِّن سَاجِدٍ مَّنْشُورٍ﴾ (٨٧) بالنصب.

(١) مثل من أمثال العرب: التهذيب ١٧٧/٣ راع، واللسان «روع»، مجمع الأمثال ٨١/٢ م ٢٧٨٩، وفصل المقال ٥٧ و٣٥٦.

(٢) في الطبري ٨٥/١٢ والجامع ٧٦/٩ والبحر ٢٤٦/٥ نسبت إلى العامة والجمهور.

(٣) هو عيسى بن عمر الثقفي، وقد مرت ترجمته.

(٤) نسبها في الطبري ٨٥/١٢ إلى عيسى، وزاد عليه في الجامع ٧٦/٩ الحسن البصري، وزاد في الشواذ ٦٠ محمد بن مروان وأبا عمرو بن العلاء، وأغفل الحسن، وفي البحر ٢٤٧/٥ نسبها إلى الحسن وزيد بن علي وعيسى وسعيد بن جبير ومحمد بن مروان، وفي المحتسب ٣٢٥ نسبها إلى سعيد بن جبير والحسن بخلاف، ومحمد بن مروان وعيسى وابن أبي إسحاق.

(٥) في الطبري ٨٩/١٢ نسبها إلى عامة القراء من الحجاز والكوفة، وفي الكشف ٥٣٦/١ والتيسير ١٢٥ والبحر ٥/٢٤٨ إلى غير ابن كثير وأبي عمرو، وعين منهم في الجامع ٨٠/٩ ابن مسعود، وفي السبعة ٣٣٨ إلى نافع وعاصم وابن عامر وحمة والكسائي.

(٦) في معاني القرآن ٢٤/٢ إلى الحسن، وفي الطبري ٨٩/١٢ إلى بعض البصريين، وفي السبعة ٣٣٨ والكشف ١/٥٣٦ والتيسير ١٢٥ والجامع ٨٠/٩ والبحر ٢٤٨/٥ إلى ابن كثير وأبي عمرو.

بالتنوين. فـ «الْمُنْشُودُ» من صفة «السَّجِيلِ»، و«الْمُنْشُوتَةُ» من صفة «الججارية» لذلك انتصب.

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَوْلَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يُعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [الآية ٨٧] أي «أَنْ تَتْرَكَ وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ» وليس المعنى «أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ» لأنه ليس بذا أَمْرُهُمْ. وقرأ بعضهم (نشاء) <sup>(١)</sup> وذلك إذا عَنُوا شعبياً.

وقال تعالى: ﴿مِنْهَا قَائِرٌ وَحَصِيدٌ﴾ يريد «ومحصول» كـ «الجريح» و«المجروح».

وقال سبحانه: ﴿لَا تَكَلِّمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الآية ١٠٥] ومعناه «تتفعل» فكان الأصل أن تكون «تتكلم» ولاستثقال اجتماع التاءين حذفت الآخرة منهما، لأنها هي التي تعمل فهي

أحقيهما بالحذف، ونحو (تَذْكُرُونَ) <sup>(٢)</sup> يسكنها الادغام، فإن قيل: «فهلأ أدغمت التاء ههنا في الذال وجعلت قبلها ألف وصل، كما قلت: «إذْكُرُوا» فلأن هذه الألف إنما تقع في الأمر وفي كل فعل معناه «فعل» فاما «يَفْعَلُ» و«تَفْعَلُ»، فلا.

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَ بَعْضُ إِلَهِتِنَا﴾ [الآية ٥٤] على الحكاية تقول: «ما أقول إلا»: «ضَرَبَكَ عَمْرُو» و«ما أقول إلا»: «قام زيد».

وقال: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمٍ﴾ [الآية ٦٦] فأضاف (خِزْيِ) إلى «اليوم» فجزه، وأضاف «اليوم» إلى «إذ» فجزه <sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى: ﴿نَكْرَهُمْ﴾ [الآية ٧٠] تقول «نَكْرُتُ الرجل» و«أَنكَرْتُهُ».

وقال: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ﴾ <sup>(٤)</sup> فهو مَصْدَرٌ «تَبَيُّوهُمْ» «تَتْبِيرًا».

(١) في الشواذ ٦٦ نسبت القراءة بالتاء إلى الإمام علي بن أبي طالب والضاحك. وأبدل في الجامع ٨٧/٩ السلمي بالإمام. وفي البحر ٢٥٣/٥ زاد ابن أبي عبله وزيد بن علي وطلحة. أما القراءة بالتون فهي في البحر ٢٥٣/٥ إلى الجمهور.

(٢) في الأصل تذكرون، والكلام يشير إلى ما أثنينا، وقد وردت هذه اللفظة في سبعة عشر موضعاً من القرآن الكريم، أولها الأنعام ١٥٢/٦ وآخرها الحاقة ٤٢/٦٩.

(٣) هي في السبعة ٣٣٦ قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحزمة وعاصم، وإلى نافع في رواية، وفي الكشف ٥٣٢/١ والتيسير ١٢٥ والبحر ٢٤٠/٥ إلى غير نافع والكسائي، وخص من المشتى منهم في الجامع ٦١/٩ أبا عمرو.

وقال: ﴿إِلَىٰ أَمْرِهِ مَمْدُودُونَ﴾ [الآية ٨]  
و«الأمّة»: الحين كما قال ﴿وَأَذْكُرْ بِقَدِّ  
أَمْرِهِ﴾ [يوسف/٤٥].

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ آلَ عِوَى  
الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِيَ﴾ [الآية ١٥] فـ ﴿كَانَ﴾  
في موضع جزم وجوابها ﴿نُوفِيَ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَفَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مَن  
زَبْرٍ. وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [الآية ١٧]  
بإضمار الخبر.

وقال ﴿فَالْتَأْتُوا مَوْعِدَهُمْ﴾ [الآية ١٧]  
بجعل النار هي الموعد، وإنما الموعد  
فيها كما تقول العرب: «الليلة الهلال»  
ومثلها ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [الآية  
٨١].

وقال: ﴿وَضِعْضُ الْعَمَاءِ﴾ [الآية ٤٤]  
تقول «غَضَضُهُ» فـ «أَنَا أَغِضُّهُ»  
وتقول: «غَاضَضُهُ الْأَرْحَامُ» فـ «مِي  
تَغِضُّهُ» وقال: ﴿وَمَا تَنْبِيضُ الْأَرْحَامِ﴾  
[الرعد/٨]. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَوَتْ  
عَلَىٰ الْجُودِيِّ﴾ [الآية ٤٤] ثَقُلَ «الجودي»  
لأن الياء ياء النسبة، فكانه أضيف إلى

«الجود» كقولك: «البَضْرِي»  
و«الكُوفِي».

وقال: ﴿وَلَا تَقْرَأُ﴾ [الآية ١١٢] من  
«طَقَرْتُ» «نَطَقًا» مثل «مَحَرْتُ»  
«نَمَحًا».

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا﴾ [الآية  
١١٣] من «رَكَنَ» «يَرْكُنُ»، وإن شئت  
قلت «وَلَا تَرْكَبُوا»<sup>(١)</sup> وجعلتها من  
«رَكَنَ» «يَرْكُنُ».

وقال تعالى: ﴿طَرَفِي الْأَنْهَارِ﴾ [الآية  
١١٤] بتحريك الياء لأنها ساكنة لقيها  
حرف ساكن، لأن أكثر ما يحرك  
الساكن بالكسر، نحو ﴿يَصْنَعِي  
السَّجِنِ﴾ [يوسف/٣٩ و٤١].

وقال تعالى: ﴿وَرُفَاً مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [الآية  
١١٤] لأنها جماعة، تقول «رُفْلَةٌ»  
و«رُفْلَاتٌ» و«رُفْلٌ».

وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ  
بِقَلِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [١١٣] لأنه عَمَى  
النبي (ص)، أو قال له «قل لهم ﴿وَمَا  
رَبُّكَ بِقَلِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾﴾ [١١٣].

(١) هي في الشواذ ٦١ إلى قتادة، وفي المنحطب ٣٢٩ زاد طلحة والأشهب وأبا عمرو، وأغفل في الجامع ١٠٨/٩  
أبا عمرو والأشهب، وفي البحر ٢٦٩/٥ كما في المنحطب.

## لكل سؤال جواب في سورة «هود» (\*)

أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَنَافَ  
حَسَنًا إِنَّ أَجَلَ مُوسَى؟

قلنا: قال غيرهما: المتاع الحسن،  
المشروط بالاستغفار والتوبة، هو  
الحياة في الطاعة والقناعة، ومثل هذه  
الحياة إنما تكون للمستغفر التائب  
القي.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ  
فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية ٦] لِمَ لَمْ يَقُلْ عَلَى  
الْأَرْضِ مع أنه أشد مناسبة لتفسير الدابة  
لغة، فإنها ما يدب على وجه الأرض؟

قلنا: «في» هنا بمعنى «على»، كما  
في قوله تعالى: ﴿وَلَأَمْلَيْنَاكُمْ فِي حُجُوجِ  
الْأَخْلَ﴾ [طه/٧١]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ  
سَلِّمْ بِسْمِعُونَ فَيَدِّ﴾ [الطور/٣٨]. الثاني:

إن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَأَنْ  
أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [الآية ٣] مع  
أن التوبة مقدمة على الاستغفار؟

قلنا: المراد: استغفروا ربكم من  
الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة. كذا  
قاله مقاتل. وهذا الاستغفار مقدم على  
هذه التوبة. الثاني: أن فيه تقديماً  
وتأخيراً. الثالث قال الفراء: ثم هنا  
بمعنى الواو، وهي لا تفيد ترتيباً،  
فاندفع السؤال.

فإن قيل: من لم يستغفر ولم يتب،  
فإن الله يمتعه متاعاً حسناً إلى أجله:  
أي يرزقه ويوسع عليه كما قال ابن  
عباس، أو يعمره كما قال ابن قتيبة،  
فما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ

(\*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البايع الحلبي،  
القاهرة، غير مؤرخ.

أن لفظة «في» أعم وأشمل، لأنها تتناول كل دابة على وجه الأرض، وكل دابة في باطن الأرض، بخلاف على.

فإن قيل: لِمَ خَصَّ الدابة بذكر ضمان الرزق، والطير كذلك رزقه على الله تعالى، وهو غير الدابة بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ بِطَيْرٍ يَحْيِيهِ﴾ [الأنعام/ ٣٨].

قلنا: إنما خص الدابة بالذكر، لأن الدواب أكثر من الطيور عدداً، وفيها ما هو أكبر جثة من كل فرد من أفراد الطير، كالفيل والحيات، فيكون أحوج إلى الرزق، فلذلك خصه بالذكر.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ يَرْزُقُهَا﴾ [الآية ٦] و«على» للوجوب، والله تعالى لا يجب عليه شيء وإنما يرزقها تفضلاً منه وكرماً.

قلنا: «على» هنا بمعنى «من»، كما في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى الْآثَانِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين]. الثاني: أنه ذكره بصيغة الوجوب، ليحصل للعبد زيادة سكون وطمأنينة في حصوله.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾

أَيْكُوْا أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك/ ٢] والخطاب عام للمؤمنين والكافرين، فإنه امتحن الفريقين بالأمر بالطاعة والنهي عن المعصية، وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى أحسن وأحسن، فأما أعمال الفريقين فتفاوتتها إلى حسن وقبيح.

قلنا: قوله تعالى: ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ عام، أريد به الخاص، وهم المؤمنون تشریفاً لهم وتخصيصاً، فَصَحَّ قوله سبحانه: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَصَافِقُ يَوْمَ يَكْفُلُ﴾ [الآية ١٢] ولم يقل «وضيق»؟

قلنا: ليدل على أن ضيقه عارض غير ثابت، لأن النبي (ص) كان أفسح الناس صدراً، ونظيره قولك: زيد سائد وجائد، فإذا أردت وصفه بالسيادة والجلود الثابتين المستقرين قلت زيد سيد وجواد، كذا قال الزمخشري.

فإن قيل: قال تعالى: ﴿فَأَتَوْا بِمَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيْنَ﴾ [الآية ١٣] أمرهم بالإتيان بمثله وما يأتون به لا يكون مثله، لأن ما يأتون به مُفْتَرَى، والقرآن ليس بمفترى.

قلنا: أراد به مثله في البلاغة والفصاحة، وإن كان مفترى. وقيل معناه: مفتریات، كما أن القرآن مفترى في زعمكم واعتقادكم، فيتمثالان.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا﴾ فأفرد في قوله ﴿قُلْ﴾ ثم جمع فقال ﴿فَالْتَمَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا﴾ الآية [١٤].

قلنا: الخطاب للنبي (ص) في الكل، ولكنه جمع في قوله عز وجل: ﴿لَكُمْ فَأَعْلَمُوا﴾ تفخيماً له وتعظيماً. الثاني: أن الخطاب الثاني للنبي (ص) وأصحابه، لأن النبي (ص) وأصحابه كانوا يتحدثونهم بالقرآن، وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَأَعْلَمْ﴾ (القصر/٥٠) يعضد الوجه الأول. الثالث: أن يكون الخطاب في الثاني والثالث للمشركين، والضمير في ﴿يَسْتَجِيبُوا﴾ لمن استطعتم، يعني فإن لم يستجب لكم من تدعونه المظاهرة على معارضته، لعجزهم، فاعلموا أيها المشركون أنما أنزل بعلم الله، وهذا وجه لطيف.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَحِطَّ مَا

صَنَعُوا فِيهَا﴾ [الآية ١٦] يدل على بطلان عملهم، فما الحكمة في قوله بعده ﴿وَنَبِّئْ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ [الآية ١٦]؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي بطل ثواب ما صنعوا من الطاعات في الدنيا ﴿وَنَبِّئْ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ من الرياء.

فإن قيل: لِمَ قال نوح عليه السلام كما ورد في التنزيل ﴿يَنْفَرُ لَا أَتْلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا﴾ [الآية ٢٩] بالواو، وقال هود عليه السلام، كما ورد في التنزيل أيضاً ﴿يَنْفَرُ لَا أَتْلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [الآية ٥١] بغير الواو؟

قلنا: لأن الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ لتبليغ الرسالة المدلول عليه بأول الكلام في القصتين، ولكن في قصة نوح عليه السلام وقع الفصل بين الضمير وبين ما هو عائد عليه بكلام آخر، فجاءه بواو الابتداء: وفي قصة هود عليه السلام لم يقع بينهما فصل فلم يحتج الى وار الابتداء، هذا ما وقع لي فيه، والله اعلم.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الآية ٤٣] لا يناسبه

المستثنى في الظاهر، وهو قوله سبحانه في الآية نفسها: ﴿إِلَّا مَنْ رَجَعْ﴾ لأن المرحوم معصوم، فظاهره يقتضي<sup>(١)</sup> لا معصوم إلا من رحم: أي لا معصوم من الغرق بالطوفان إلا من رحمه الله بالإنجاء في السفينة؟

قلنا: عاصم هنا بمعنى معصوم، كقوله تعالى: ﴿مَنْ مَلَؤْ دَابِقِ﴾ [الطارق] أي مدفوق، وقوله تعالى: ﴿فَهَرَفَ عَيْنَهُ وَابْتَوَى﴾ [الحاقة] أي مرضية، وقول العرب: سَرَّ كاتم: أي مكتوم. الثاني أن معناه: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، أي إلا الراحم وهو الله تعالى، وليس معناه المرحوم، فكأنه قال: لا عاصم إلا الله. الثالث أن معناه: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا مكان من رحم الله من المؤمنين، ونجاهم وهو السفينة، ويناسب هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجِّنَا مِنْهُنَّ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١١] وهذا لأن ابن نوح عليه السلام، لما جعل الجبل عاصماً من الماء، رَدَّ نوح عليه

السلام، ذلك، ودلَّه على العاصم وهو الله تعالى، أو المكان الذي أمر الله بالالتجاء إليه، وهو السفينة.

فإن قيل: كيف صح أمر السماء والأرض بقوله تعالى ﴿وَقِيلَ يَتَاجَرُونَ﴾ [الأنبياء ٤٤] وبما لا يعقلان، والأمر والنهي إنما يكون لمن يفعل ويفهم الخطاب؟

قلنا: الخطاب لهما في الصورة، والمراد به الخطاب للملائكة الموكلين بتدبيرهما. الثاني: أن هذا أمر إيجاب لا أمر إيجاد، وأمر الإيجاد لا يشترط فيه العقل والفهم، لأن الأشياء كلها بالنسبة إلى أمر الإيجاد مطيعة منقادة لله تعالى، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس] وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت/ ١١] كل ذلك أمر إيجاد.

فإن قيل: لم قال تعالى هنا: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ﴾ [الأنبياء ٤٥] بالفاء، وقال في قصة زكريا عليه الصلاة

(١) قوله (ظاهره يقتضي الخ) لا يخفى أنه على هذا الظاهر لا ورود لصورة الإشكال، إذ هو عين ما صدر به في الجواب عنه، فكان المناسب في تقدير السؤال، بقاء العاصم على حقيقته، وهو الحافظ، وجعل المراد من رحم، المرحوم لا الراحم، وهو الله تعالى، كما هو أحد التأويلات.

والسلام ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ يَدِّعُ يَدَّاهُ خَفِيفًا﴾<sup>(٢)</sup>  
قَالَ رَبِّ ﴿[مریم] بغير فاء؟

قلنا: أراد بالنداء هنا إرادة النداء فجاء بالفاء الدالة على السببية، فإن إرادة النداء سبب للنداء، فكأنه قال: وأراد نوح نداء ربه فقال كبت وكبت، وأراد به في قصة زكريا عليه الصلاة والسلام حقيقة النداء، فلهذا جاء بغير فاء لعدم ما يقتضي السببية.

فإن قيل: هود عليه الصلاة والسلام كان رسولاً ولم يظهر معجزة، ولهذا قال له قومه: ﴿يَنْهَوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [الآية ٥٣] فبأي شيء لزمهم رسالته؟

قلنا: إنما يحتاج الى المعجزة، من الرسل، من يكون صاحب شريعة لتتقاد أمته لشريعته، فإن في كل شريعة أحكاماً غير معقولة فيحتاج الرسول الاتي بها، الى معجزة لتشهد بصحة صدقه، فأما الرسول الذي لا تكون له شريعة ولا يأمر إلا بالعقلية فلا يحتاج الى معجزة، لأن الناس ينقادون الى ما يأمرهم به لموافقته للعقل، وهود (ع) كان كذلك. الثاني: أنه نقل أن معجزة هود كانت الريح الصرصر، فإنها كانت سخرت له.

فإن قيل: على الوجه الأول لو كان أمره لهم مقصوراً على العقليات لما خالفوه وكذبوه ونسبوه الى الجنون، بقولهم كما ورد في التنزيل ﴿يَنْهَوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ الى ﴿يَسْؤُونَ﴾.

قلنا: إنما صدر ذلك القول من قاصري العقول أو المعاندين المكابرين، كما قيل ذلك لكل رسول بعد إتيانه بالمعجزات الظاهرات والآيات الباهرات.

فإن قيل: هل قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُكَ﴾ [الآية ٥٤] لتتناسب الجملةتان؟

قلنا: لأن إشهد الله تعالى على البراءة من الشرك إشهد صحيح، مفيد تأكيد التوحيد وشده معاقده؛ وأما إشهدهم فما هو إلا تهكم بهم وتهاون ودلالة على قلة المبالاة، لأنهم ليسوا أهلاً للشهادة؛ فعدل به عن اللفظ الأول، وأتى به على صورة التهكم والتهاون؛ كما يقول الرجل لصاحبه إذا لاحاه: اشهد إنني لأحبك، تهكماً به واستهانة له.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ [الآية ٥٧] جعل التولي

شرطاً والإبلاغ جزاء، والإبلاغ كان سابقاً على التولي.

قلنا: ليس الإبلاغ جزاء التولي، بل جزاؤه محذوف تقديره: فإن تولوا لم أعائب على تفريط في الإبلاغ أو تقصير فيه، ودل على الجزاء المحذوف قوله سبحانه: ﴿فَقَدْ أَتَلَقْتَهُ﴾. الثاني: قال مقاتل تقديره: فإن تولوا فقل لهم قد أبلغتكم.

فإن قيل: ما الحكمة من تكرار التنجية في قوله تعالى ﴿وَيَجْتَنِّمُ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؟

قلنا: أراد بالتنجية الأولى تنجيتهم من عذاب الدنيا الذي نزل بقوم هود، وهو مسموم أرسلها الله تعالى عليهم فقطعتهم عضواً عضواً، وأراد بالتنجية الثانية تنجيتهم من عذاب الآخرة الذي استحقه قوم هود بالكفر، ولا عذاب أعظم منه ولا أشد.

فإن قيل: ﴿بَعْدَ﴾ (الآية ٤٤) معناه عند العرب الدعاء عليهم بالهلاك بعد هلاكهم.

قلنا: معناه الدلالة على أنهم مستأهلون له وحقيقون به، ونقيضه قول الشاعر:

إِخْوَتِي لَا تَبْفِدُوا أَبَدًا  
وَيَلِي وَاللهُ قَدْ بَغَدُوا

أراد بالدعاء لهم بنفي الهلاك بعد هلاكهم الإعلام بأنهم لم يكونوا مستأهلين له ولا حقيقين به.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿وَلَا تُفْسِدُوا أَلْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ (الآية ٨٤) نهى عن النقص فيهما، والنهي عن النقص أمر بالإيفاء معنى، فما الحكمة في قوله تعالى في الآية التالية: ﴿وَيَقْوُوا أَوْفُوا أَلْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ﴾.

قلنا: صرح أولاً بنهيهم عن النقص الذي كانوا يفعلونه لزيادة المبالغة في تقييده وتغييرهم إياه، ثم صرح بالأمر بالإيفاء بالعدل الذي هو حسن عقلاً، لزيادة الرغبة فيه والحث عليه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥) والعسر الفساد، فيصير المعنى: ولا تفسدوا في الأرض مفسدين؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة. وجواب آخر معناه: ولا تعتوا في الأرض بالكفر، وأنتم مفسدون بنقص المكيال والميزان.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الآية ٨٦] فشرط الإيمان في كون البقية خيراً لهم، وهي خير لهم مطلقاً لأن المراد ببقية الله ما يبقى لهم من الحلال، بعد إيفاء الكيل والوزن، وذلك خير لهم، وإن كانوا كفاراً، لأنهم يسلمون معه من عقاب البخس والتطفيف؟

قلنا: إنما شرط الإيمان في خيرية البقية، لأن خيريتها وفائدتها مع الإيمان أظهر، وهو حصول الثواب مع النجاة من العقاب، ومع فقد الإيمان أخفى لانغماس صاحبها في عذاب الكفر، الذي هو أشد العذاب. الثاني: أن المراد إن كنتم مصدقين، فيما أقول لكم وأنصح.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٌ مِّنكُمْ يَبْعِدُونَ﴾ [٨٨] ولم يقل ببعيدين والقوم اسم لجماعة الرجال، وما جاء في القرآن الضمير العائد إليه إلا ضمير جماعة، قال الله تعالى ﴿أَن أُنذِرَ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ﴾ [نوح/١] وقال تعالى ﴿لَا يَخْرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَشَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات/١١].

قلنا: فيه إضمار تقديره: وما هلاك قوم لوط أو مكان قوم لوط، ومكان

قوم لوط كان قريباً منهم، وإهلاكهم أيضاً كان قريباً من زمانهم. الثاني: أن فعلاً يستوى فيه الواحد والاثنا والجمع، قال الجوهرى: يقال ما أنتم منا ببعيد، وقال الله تعالى ﴿وَالْمَلَكُ يَبْعَدُ ذَلِكَ ظَلِيمٌ﴾ [التحریم] وقال سبحانه ﴿عَنِ الْبَيْنِ وَعَنِ الْحَمْلِ يَبْدُ﴾ [ق].

فإن قيل: قولهم، كما ورد في التنزيل: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [١١] كلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه، فكيف صح قوله كما ورد في التنزيل أيضاً ﴿أَرْغَطِيْ أَعْرُ عَلَيْنَا مِّنَ اللَّهِ﴾ [الآية ٩٢]؟

قلنا: تهاونهم به وهو نبي الله تهاون بالله، فحين عز رهطه عليهم دونه، كان رهطه أعز عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء/٨٠] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح/١٠].

فإن قيل: قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته، ثم أتبعه بذكر عاقبة العاملين منه ومنهم، فكان المطابق والموافق في ظاهر الفهم أن

يقول: من يأتيه عذاب يخزيه حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إليهم، ومن هو صادق إليه.

قلنا: القياس ما ذكرت، ولكنهم لما كانوا يدعونونه كاذباً قال: ومن هو كاذب، يعني في زعمكم ودعواكم تجهيلاً لهم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿إِذَا أَخَذَ الْفَرْقَ وَهِىَ ظَلِيمَةٌ﴾ [الآية ١٠٢] والقرى لا تكون ظالمة، لأن الظلم من صفات من يعقل، أو من صفات الحيوان دون الجماد؟

قلنا: هو من الإسناد المجازي، والمراد به أهلها، كما قال تعالى في موضع آخر ﴿أَنزِلْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء/ ٧٥] لكن لما أمن اللبس أسند الظلم الى القرية لفظاً، كما في قوله تعالى ﴿وَمَثَلِ الْقَرْيَةِ﴾ [يوسف/ ٨٢].

فإن قيل: كيف التوفيق بين قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الآية ١٠٥] وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَنْدِلٍ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل/ ١١١] وقوله عز وجل ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [٢٥] وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَسْأَلُونَكَ﴾ [المرسلات] فإن الآية

الثالثة تناقض الآية الأولى بنفي الإذن، وتناقض الآيتين جميعاً بنفي النطق؟

قلنا: أما التوفيق بين الآيتين، الأوليين فظاهر، لأن المعنى تجادل عن نفسها بإذنه فتوافقت الآيتان، وأما الآية الثالثة فإنها لا تناقض الآية الأولى بنفي الإذن، إن قلنا إن الاستثناء من النفي ليس بإثبات، لأن الآية الأولى لا تقتضي وجود الإذن حينئذ، بل تقتضي نفي الكلام عند انتفاء الإذن؛ فأما إن قلنا إن الاستثناء من النفي إثبات ناقضت الآية الثالثة الأولى، ولا تناقض الآيتين بنفي النطق، لأن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف ومواطن، ففي بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم فيه، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم، وهذا جواب عام عن مثل هذه الآيات، ويرد على هذا أن يقال قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [٢٥] نفي النطق عنهم يوم القيامة، ما يوجب انتفاءه في جميع أجزاء ذلك الزمان عملاً بعموم النفي، كما يعم النفي جميع أجزاء المكان في قولنا، لا وجود لزيد في الدار، فاندفع الجواب باختلاف المواقف والمواطن؛

فيكون الجواب، أن الآية الثالثة أريد بها طائفة خاصة، غير الطائفتين الأوليين فلا تناقض.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿فِيَنَّهُمْ شِقَاقٌ وَسَعِيدٌ﴾ وكلمة «من» للتبعض، ومعلوم أن الناس كلهم إما شقي أو سعيد، فما معنى التبعض؟

قلنا: التبعض هنا على حقيقته، لأن أهل القيامة ثلاثة أقسام: قسم شقي، وقسم سعيد، وهم أهل النار والجنة كما ذكر في هذه الآية مفضلاً؛ وقسم لا شقي ولا سعيد وهم أهل الأعراف. الثاني أن معنى الكلام: فمنهم شقي ومنهم سعيد، وهذا يقتضي أن يكون الشقي بعض الناس والسعيد بعض الناس، والأمر كذلك، ولا يقتضي أن يكون الشقي والسعيد كلاهما بعض الناس، بل كل واحد منهما بعض، وكلاهما كل، كما تقول من الحيوان إنسان، ومن الحيوان غير إنسان، وكل الحيوان إما إنسان أو غير إنسان.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿خَلْدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ﴾ (الآية ١٠٨) وأراد به بيان دوام الخلود، مع أن أهل الجنة وأهل النار مخلدون فيهما خلوداً لا نهاية له، والسموات والأرض

ودوامهما منقطع، لأنهما يوم القيامة ينهدمان، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُفِّئَتِ الْأَرْضُ دُفًّا﴾ (الفجر) وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (الانفطار) وقال تعالى: ﴿بِئْسَ تَلَوًى السَّكَاةَ كَلَفَى التَّجِيلُ لِلْكَثِيرِ﴾ (الأنبياء/١٠٤) ونظائره كثيرة مما يدل على خراب السموات والأرض؟

قلنا: للعرب في معنى الأبد ألفاظ تعبر عن إرادة الدوام دون التأقيت، منها هذا؛ يقولون: لا أفعل كذا ما اختلف الليل والنهار، وما دامت السماء والأرض، وما أُطِمَّتِ الإبِلُ، ويريدون بذلك لا أفعله أبداً مع قطع النظر عن كون المؤقت به له نهاية أو لا نهاية له. الثاني: أنه خاطبهم على معتقدهم أن السموات والأرض لا تزول ولا تتغير. الثالث: أنه أراد به كون الفريقين في قبورهم إما منعمين أو معذبين، كما جاء في الحديث «إن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» ومن كان في روضة من رياض الجنة فهو في الجنة، ومن كان في حفرة من حفر النار فهو في النار، فعلى هذا يكون المراد بالتأقيت بدوام السماوات والأرض مدة الخلود إلى

يوم القيامة. الرابع: أن المراد بها سماوات الآخرة وأرضها، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَنِّي الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم/ ٤٨] وتلك دائمة لا تزول ولا تفسى، ولأنه لا بد لأهل الجنة مما يقلهم ويظلمهم، إنا سماء يخلقها الله تعالى، أو العرش، كما جاء في الأخبار، أن أهل الجنة تحت ظل العرش، وكل ما أظلك فهو سماء؛ وجاء في الأخبار أيضاً في صفة الجنة، أن ترابها من زعفران، فدل أن لها أرضاً؛ والمراد تلك السموات، وتلك الأرض.

• فإن قيل: إذا كان المراد بهذا التأقيت دوام الخلود دوماً لا آخر له، فكيف صَحَّ الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [الآية ١٠٧]؟

قلنا: قال الفراء: «إلا» هنا بمعنى «غير» و«سوى»، فمعناه: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض، سوى ما شاء الله تعالى من الخلود والزيادة؛ فكأنه قال: خالدين فيها قدر مدة الدنيا، غير ما شاء الله من الزيادة عليها إلى غير نهاية، وهذا الوجه إنما يصح إذا كان المراد سموات الدنيا وأرضها. قال ابن قتيبة: ومثله في الكلام قولك:

لأسكنك في هذه الدار حولاً إلا ما شئت، يريد سوى ما شئت أن أزيدك على الحول. الثاني: أنه استثناء لا يفعله كما تقول: لأهجرتك إلا أن أرى غير ذلك، وعزمتك على هجرته أبداً، وهو معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما. إلا ما شاء ربك، وقد شاء أن يخلدوا فيها. قال الزجاج: وفائدة هذا الاستثناء، إعلامنا أنه، لو شاء سبحانه أن لا يخلدهم لما خلدهم، ولكنه ما شاء إلا خلودهم. الثالث: أنه استثناء لزمان البعث والحشر والوقوف للعرض والحساب، فإنَّ الأشقياء والسعداء في ذلك الزمان كلّه، ليسوا في النار ولا في الجنة. الرابع: أن «ما» بمعنى من، والمستثنى من يدخل النار من الموحدين فيعذب بقدر ذنوبه، ثم يخرج من النار ويدخل الجنة، وهذا الوجه يختص بالاستثناء من الأشقياء فقط. الخامس: أن المستثنى زمان كون أهل الأعراف على الأعراف قبل دخولهم الجنة؛ وهذا الوجه يختص بالاستثناء من السعداء، لأنهم لم يدخلوا النار لأنَّ مصيرهم إلى الخلود في الجنة. السادس: أنه استثناء من الخلود في عذاب النار، ومن الخلود في نعيم الجنة؛ الأشقياء لا يخلدون

﴿وَرَأَى لَمُوقَهُمْ تَعَبَهُمْ﴾ [الآية ١٠٩]  
 والتوفية والإيفاء إعطاء الشيء وافيًا:  
 أي تامًا، نقله الجوهري وغيره، والتام  
 لا يكون منقوصًا؟

قلنا: هو من باب التأكيد.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿وَلَذَلِكَ  
 خَلَقَهُمْ﴾ [الآية ١١٩] إشارة إلى ماذا؟

قلنا: هو إشارة إلى ما عليه الفريقان  
 من حالي الاختلاف والرحمة، فمعناه  
 أنه خلق أهل الاختلاف للاختلاف،  
 وأهل الرحمة للرحمة؛ وقد فسرّه ابن  
 عباس رضي الله تعالى عنهما، فقال:  
 خلقهم فريقين: فريقاً رحمهم فلم  
 يختلفوا، وفريقاً لم يرحمهم فاختلّفوا.

وقيل: هو إشارة إلى معنى الرحمة  
 وهو الترخّم، وعلى هذا يكون الضمير  
 في «خلقهم» للذين رحمهم فلم  
 يختلفوا.

وقيل: هو إشارة إلى الاختلاف  
 والضمير في «خلقهم» للمختلفين،  
 واللام على الوجه الأول والثالث لام  
 العاقبة والصورّة، لا لام كي، وهي  
 التي تسمى لام الغرض والمقصود،  
 لأن الخلق للاختلاف في الدين لا يليق  
 بالحكمة، ونظير هذه اللام قوله تعالى:

في عذاب النار بل يعذبون بالزمهرير  
 وغيره من أنواع العذاب، سوى النار،  
 وهو سحق الله عليهم فإنه أشد؛  
 وكذلك السعداء لهم سوى نعم الجنة  
 ما هو أجلّ منها، وهو الزيادة التي  
 وعدهم الله تعالى إياها، بقوله سبحانه:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَّعًا وَلِزِيَادَةٍ﴾

[يونس/٢٦] ورضوان الله كما قال تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَمَسْكَنَ وَسْتَكْبَ فِي جَنَّاتٍ عَتَقُوا رِضْوَانٌ

مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة/٧٢] وقوله

تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن

قُرَّةٍ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة/١٧] فهو المراد

بالاستثناء، ويعضد هذا الوجه قوله

تعالى، بعد ذكر الاستثناء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ

قَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ وقوله تعالى بعد

ذكر السعداء: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾

يعني أنه يفعل بأهل النار ما يريد من

أنواع العذاب، ويعطي أهل الجنة أنواع

العطاء الذي لا انقطاع له، فاختلاف

المقطين يؤكّد صرف الاستثناء إلى ما

ذكرنا، فتأمل كيف يفسر القرآن بعضه

بعضاً.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى

﴿غَيْرَ مَقْصُودٍ﴾ بعد قوله سبحانه

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرَمًا﴾ [النمر/٨] وقول أبي الغنّاهية :

لَبِدُوا لِلْمَرْوَةِ وَابْتَنُوا لِلْخَرَابِ

فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى الشَّرَابِ

وقيل : إنها لام التمكين والافتقار، كما في قوله تعالى ﴿جَعَلَ لَكُمُ آيَاتٍ لِّتَسْكُنُوا فِيهَا﴾ [يونس/٦٧] وقوله تعالى : ﴿وَالْفَيْلَ وَالْإِيْلَ وَالْحَمِيرَ لِرَكْبِهِمْ﴾ [النحل/٨] والتمكّن والافتقار حاصل، وإن لم يسكن بعض الناس في الليل ولم يركب بعض هذه الدواب؛ ومعنى التمكين والافتقار هنا، أنه سبحانه وتعالى أقدرهم على قبول حكم الاختلاف ومكنتهم منه. وقيل : اللام هنا، بمعنى «على» كما في قوله تعالى : ﴿وَنَلَّامُ لِلْحَبِيبِ﴾ [الصافات] وقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُونَ لِلْأَذْقَانِ سُحُبًا﴾ [الإسراء].

فإن قيل : كيف الجمع بين قوله تعالى ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ [الآية ١٢٠] وقوله تعالى ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقُصُّهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء].

قلنا : معناه وكلّ نبأ نقضه عليك من أنباء الرسل هو ﴿مَا تَنْتِثُ بِهِ، فَوَادَّكَ﴾ [الآية ١٢٠] ف ﴿مَا﴾ في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف، فلا يقتضي اللفظ قص أنباء جميع الأنبياء، فلا تناقض بين الآيتين. الثاني : أن المراد بالكل هنا البعض، كما في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَجْعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ يَمِينًا جُزْءًا﴾ [البقرة/٢٦٠] وقوله تعالى : ﴿وَبَاءَهُمُ الْتَوَجُّعَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس/٢٢] وقوله تعالى ﴿وَأَوْرَثْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل/٢٣] وقوله تعالى ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَزَمْتَهُ طُغْيَانَهُ فِي غُرُوبِهِ﴾ [الإسراء/١٣] وقول لبيد الشاعر :

الْأَكُلُ شَيْءٌ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ

وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَخَالَ زَائِلٌ

وكثير من الأشياء غير الله تعالى حق، كالنبي عليه الصلاة والسلام والإيمان والجنة وغير ذلك، وكذلك نعيم الجنة والآخرة ليس بزائل، ولبيد صادق في هذا البيت لقوله (ص) : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد، ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

فإن قيل : ما فائدة تخصيص هذه السورة بقوله تعالى ﴿وَبَاءَكَ فِي هَذِهِ

الْحَقُّ ﴿الآية ١٢٠﴾ مع أن الحق جاء في كل سور القرآن؟

قلنا: قالوا فائدة تخصيص هذه السورة بذلك، زيادة تشریفها وتفضيلها مع مشاركة غيرها إياها في ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسِيحَ لِلَّهِ﴾ [الجن/١٨] وقوله تعالى: ﴿وَحِزْبِيلَ وَمِكَئِيلَ﴾ بعد قوله سبحانه ﴿وَتَلَكِّي كِتَابَ﴾ [البقرة/٩٨] وقوله تعالى: ﴿وَالْمَكُونَةَ أَلْوَسْمُونَ﴾ بعد قوله ﴿وَالْمَكُونَةَ﴾ [البقرة/٢٣٨] ووجه المشابهة بينهما، أنه حمل قوله تعالى: ﴿وَحِزْبِيلَ وَمِكَئِيلَ﴾ على التشريف والتفضيل، عند تعذر حمله على تعليق العداوة به، لئلا يلزم تحصيل الحاصل؛ وكذا في المثال الأخير تعذر حمله على إيجاب المحافظة لما قلنا؛ وهنا تعذر حمله على حقيقته، وهو الجنس بأن حقيقته انحصار كل حق في هذه السورة وهو متنفذ، أو حمل الحق

على معهود سابق، وهو متنفذ، وحمله على بعض الحق، يلزم منه وصف هذه السورة بوصف مشترك بينها وبين كل السور، وأنه لا يحسن، كما لو قال: وجاءك في هذه الحق آيات الله أو كلام الله أو كلام معجز، فجعل مجازاً عن التفضيل والتشريف.

وقيل: الإشارة بهذه إلى الدنيا لا إلى السورة، والجمهور على القول الأول. ولا يقال إنما خضت هذه السورة بذلك لأن فيها الأمر بالاستقامة بقوله تعالى ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ﴾ [الآية ١١٢] والاستقامة من أعلى المقامات عند العارفين، لأننا نقول الأمر بالاستقامة جاء أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَلْبِغْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى/١٥] ولا يصلح هذا علة للتخصيص، والله أعلم.



## المعاني المجازية في سورة «هود» (\*)

٥ هـ وهذه استعارة. لأن حقيقة الشيء لا تتأتى في الصدور. والمراد بذلك - والله أعلم - أنهم يثنون صدورهم على عداوة الله ورسوله (ص). وذلك كما يقول القائل: هذا الأمر في طي ضميري. أي قد اشتمل عليه قلبي. فيكون قوله تعالى: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ بمنزلة قوله يطؤون صدورهم. ولفظ يثنون أعذب استماعاً وأحسن مجازاً.

وقيل أيضاً: بل معنى ذلك أن المنافقين كانوا إذا اجتمعوا تخافتوا بينهم في الكلام، وحنوا ظهورهم تطامناً عند الحوار، خوفاً من رفع العيون، ومراجم الظنون، لوقوع ما يتفاوضونه في أسماع المسلمين. فإذا

قوله تعالى: ﴿الرَّ كَيْبُ أَكَيْبُ﴾ ثم فُتِلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ وهذه استعارة. لأن آيات القرآن لما ورد في بعضها ذكر الحلال والحرام، واستمرت على ذلك بين وعد مقدم، ووعيد مؤخر، ونذارة مبتدأ بها، وبشارة معقب بذكرها شبهها القرآن، لذلك، بالنظام المفضلة، التي توافق فيها بين الأشكال تارة، وتؤلف بين الأضداد تارة ليكون ذلك أحسن في التنضيد، وأبلغ في الترصيف. وهذه من بدائع الاستعارات.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَفْشُونَ يَا بَعْثُ يَظَلِّمْ مَا يُبْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾ [الآية

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

انحنى ظهورهم، انشنت صدورهم. فأعلمنا الله سبحانه أنهم، وإن أغلقوا أبوابهم، وأسدلوا ستورهم، واستغشوا ثيابهم - بمنعى اشتملوا بها، وبمعنى أدخلوا رؤوسهم فيها على ما قاله بعضهم - فإنه تعالى يعلم غيب صدورهم، ودخائل قلوبهم، ومزمار أعينهم، ومحاذف<sup>(١)</sup> ألسنتهم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَ الْإِنْسَنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَتُوسُّ كَفُورٌ﴾<sup>(٢)</sup> وهذه استعارة لأن إذاقة الرحمة ونزعها ليسا بحقيقة هُنا. وإنما المراد بذلك أنا إذا رَحِمْنَا الإنسان بعد توبته من موقعة [في]<sup>(٣)</sup> بعض الذنوب فقبلنا متابه، وأسقطنا عقابه، ثم واقع بعد ذلك ذنباً آخر، واستحق أن نعاقبه وأن نُزِيلَ رحمتنا عنه، يثس من الرحمة وقنط من المغفرة. وليس الأمر كذلك، لأنه إذا عاود الإقلاع، آمِنَ الإيقاع.

وقد أخرج هذا الكلام مُخرج الذم لمن يواقع المعصية، فيقنط من قبول

التوبة. فمعنى أذقنا الإنسان منا رحمة. أي عرفناه أننا قد رحمناه. إذ قد أوجبنا قبول التوبة إذا أخلص العبد فيها، وأتى بها على شروطها وحدودها.

ومعنى ﴿ثُمَّ نَزَعْنَهَا مِنْهُ﴾ أي أزلنا عنه رحمتنا لأجل اقترافه المعصية التي اقترفها في الثاني<sup>(٤)</sup>. وقد يجوز أن يكون المراد بالرحمة هُنا - والله أعلم - النعمة والسَّراء. ويكون انتزاعها منه بمعنى إبداله بها الشدة والضراء، إجراء له في مضمار الابتلاء والاختبار، أو مصلحة يكون معها أقرب إلى الإصلاح<sup>(٥)</sup> والرشاد. ومما يقوي ذلك قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبَةٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾<sup>(٦)</sup>.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [الآية ٢٨]. وهذه استعارة. لأن الرحمة لا توصف بالفعى وإنما يوصفُ الناس بالفعى عن تمييز مواقعها. وإدراك مَوَاضِعِهَا. فلما

(١) هكذا بالأصل. ولعلها مرامي الألسنة بالكلام، كما يحذف بالحجر أي يرمى به.

(٢) هذه اللفظة بالأصل. ولعلها زائدة لأن المعنى يستقيم بدونها، ولهذا وضعناها بين حاصرتين.

(٣) هكذا بالأصل، ولم نهتد إلى تصويب لها.

(٤) في المتن: الإصلاح، وقد غيرت في الهامش إلى «الصلاح» بدلاً منها.

وَصِفُوا بِالْعَمَىٰ عَنْهَا حَسُنَ أَنْ يَوْصَفَ  
بِذَلِكَ فِي الْقَلْبِ<sup>(١)</sup>. كما يقال: أدخلت  
الخاتم في إصبعي، والمَغْفَرُ في  
رأسي. وإنما الأصبع دخلت في  
الخاتم، والرأس دَخَلَ في المغفر. وقد  
يجوز أن يكون قوله سبحانه: ﴿فَقُيِّمَتْ  
عَلَيْكَ﴾، بمعنى خَفِيتَ عليكم، كما  
يَقُولُ القائل: قد عَمِيَ عَلَيَّ خبرهم.  
وعَمِيَ عَلَيَّ أثرهم. أي خَفِيَ عني الأثر  
والخبر.

— وقوله سبحانه: ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ  
وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَوِجُ آعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ  
اللَّهُ خَبَرًا﴾ [الآية ٣١]. وهذه استعارة.  
كما يقول القائل: اقتحمت فلاناً عيني،  
واحتقره طرفي. إذا قبح في منظر عينه  
خلقه، وصغر دماغه. ليس أن العين  
على الحقيقة يكون منها الاحتقار، أو  
يجوز عليها الاستصغار.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكَ نُسُوحُ  
إِنْ أَدْنَتْ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ  
أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [الآية ٣٤] وذكر الإغواء  
ههنا من قبيل الاستعارة، وإن لم يكن  
من صريحها. وكذلك لفظ المكر،  
والاستهزاء، وما يجري هذا المجرى.

لأن المراد بمعاني هذه الالفاظ غير  
المراد بظواهرها. فالمتعارف من  
الإغواء هو الدعاء الى الغي والضلال.  
وذلك غير جائز على الله سبحانه،  
لقبحه وورود أمره بضده. والمراد إذن  
بالإغواء ههنا تخييبه سبحانه لهم من  
رحمته، لكفرهم وذهابهم عن أمره.  
ومن الشاهد على ذلك قوله تعالى:  
﴿خَلَفَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ خَلْفًا أَضَاعُوا الصَّلَاةَ  
وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾<sup>(٢)</sup>  
(مریم)، أي خيبة من الرحمة، وارتكاساً  
في النقمة. وقد جاء لفظ الإغواء،  
والمراد به التخييب في كثير من منشور  
كلامهم، ومنظوم أشعارهم.

ويجوز أن يكون الإغواء ههنا بمعنى  
الإهلاك لهم. ويجوز أن يكون بمعنى  
الحكم بالغواية عليهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَصْنَعُ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا  
وَوَحْيِنَا﴾ [الآية ٣٧]. وهذه استعارة.  
ومعناها: واصنع الفلك بأمرنا، ونحن  
نرعاك ونحفظك. ليس أن هناك عيناً  
تلحظ، ولا لساناً يلفظ. وذلك كما  
يقول القائل: أنا بعين الله. أي يمكن  
من حفظ الله. ومن كلامهم للظاعن

(١) ليس القلب هنا بمعنى الجارحة التي في الجسم، ولكنه القلب اللفظي والمعنوي، كما نقول: أدخلت الخاتم في الإصبع بدلاً من أدخلت الإصبع في الخاتم.

المشيّع والحميم المودع: صحبتك عين الله. أي رعاية الله وحفظه.

وقوله سبحانه: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكِ وَنَسَكَا أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُغِيَ الْآمُرُ﴾ [الآية ٤٤]، وهذه استعارة. لأن الارض والسماء لا يصح أن تؤمرا وتخطبا. لأن الأمر والخطاب لا يكونان إلا لمن يعقل، ولا يتوجهان إلا لمن يعي ويفهم. فالمراد إذن بذلك: الإخبار عن عظيم قدرة الله سبحانه، وسرعة مضي أمره، ونفاذ تدبيره. نحو قوله: ﴿إِنَّا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل]. وهذا إخبار عن وقوع أوامره من غير معاناة ولا كلفة، ولا لغوب ولا مشقة.

وفي هذا الكلام أيضاً فائدة أخرى لطيفة. وهو أن قوله سبحانه: ﴿يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكِ﴾. أبلغ من قوله: يا أرض اذهبي بمائك. لأن في الابتلاع دليلاً على إذهاب الماء بسرعة. ألا ترى أن قولك لغيرك: يبلغ هذا الطعام، أبلغ من قولك له: كل هذا الطعام، إذا أردت منه إيصاله الى جوفه بسرعة؟ وكذلك الكلام في قوله سبحانه: ﴿وَنَسَكَا أَقْلِي﴾: لأن لفظ الإقلاع ههنا أبلغ من لفظ الانجلاء. لأن في

الإقلاع أيضاً معنى الإسراع بإزالة السحاب، كما قلنا في الابتلاع. وذلك أدل على نفاذ القدرة، وطواعية الأمور، من غير وقفة ولا لبنة، هذا الى ما في المزوجة بين اللفظين من البلاغة العجيبة، والفصاحة الشريفة. إذ يقول سبحانه: يا أرض ابلعي، ويا سماء أقلعي: ومثل هذا في القرآن أكثر من أن يشار إليه.

وقوله سبحانه: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [٥٨]. وهذه استعارة. لأن العذاب في الحقيقة لا يوصف بالغلظ، والدقة، لأنه الألم الذي يلحق الحي في قلبه أو جسمه. وإنما وصفت تعالي بالغلظ على طريقة كلام العرب، لأنهم يصفون الأمر الهين بالضوالة والدقة، كما يصفون الأمر الشاق بالغلظ والشدّة، ختملاً لذلك على عرفهم في المراعاة للشيء الغليظ الكثيف، وقلة الحفل بالشيء الدقيق الضئيل. ألا ترى إلى قولهم: عرّض فلان دقيق، وقدره ضئيل؟ وإلى قولهم في مقابلة ذلك: لقي فلان فلاناً بكلام غليظ، وقول ثقيل.

وقد يجوز أيضاً - والله أعلم - أن يكون المراد بعذاب غليظ ههنا الصفة

إِنَّ رَبِّي شَدِيدٌ ۝ وهذه استعارة والمراد بها: لو كنت أوي إلى كثرة من قومي، وَعَدِدُ من أهلي. وَجَعَلَهُمْ رَكْنًا له، لأن الإنسان يلجأ إلى قبيلته، ويستند إلى أعوانه ومنعته، كما يستند إلى ركن البناء الرصين، والنضد الأمين<sup>(١)</sup>.

وجاء جواب «لو» ههنا محذوفاً. والمعنى: لو أنني على هذه الصفة لَحُلْتُ بينكم وبين ما هممت به من الفساد وأردتموه من ذنوب فحشاء. والحذف ههنا أبلغ، لأنه يوهم المتوعد بعظيم الجزاء، وبغليظ النكال، ويصرف وهمه إلى ضروب العقاب، ولا يقف به عند جنس من أجناس المخوفات المتوقّعات.

وليس مخرج هذا الكلام من لوط عليه السلام، على ما ظنّه مَنْ لا معرفة له، وقدح فيه بأن قال: ألم يكن يأوي إلى الله سبحانه؟ فما معنى القول الذي قاله؟ وذلك أن لوطاً على ما ذكرنا إنما أراد الاعوان من قومه، والأركان المستند إليهم من قبيلته، وهو يعلم أن له من معونة الله سبحانه أشد الأركان،

لعذاب الآخرة. والعذاب إنما يقع بالآلات المستعظمة والأعيان المستفظة، مثل مقامع الحديد، والحجارة المحمّاة بالجحيم. فوصف سبحانه العذاب الغليظ، لأنه واقع بالاشياء الغليظة، والآلات الثقيلة، فيكون ذلك مجازاً من هذا الوجه.

ومما يقوّي أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَجِئْتُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝﴾ عذاب الآخرة، قوله تعالى في الآية نفسها: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَهْلُكَ بِجَنَّتِكَ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [الآية ٥٨] وهذه النجاة من عذاب الدنيا. ثم قال تعالى: ﴿وَيَجِئْتُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ فدلّ على أن النجاة من العذاب الأول غير النجاة من العذاب الآخر. وأن الأول عذاب الدنيا، والثاني عذاب الآخرة، لأن العطف بالواو يقضي بذلك، وإلا كان وَجْهُ الكلام: فلما جاء أمرنا نَجِّينَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا معه برحمة منا من عذاب غليظ، ولم يكن لقوله تعالى: ﴿وَيَجِئْتُمْ﴾ ثانياً معنى؛ وهو محال.

وقوله سبحانه حاكياً عن لوط عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ

(١) النَّضْدُ من الجبل: ما تراكم منه. والجمع أنضاد.

وأعز الاعوان، إلا أن من تمام إزاحة العلة في التكليف حضور الناصر، وقرب المعاضد والمرافد.

وقوله سبحانه في صفة الحجارة المرسل على قوم لوط: ﴿ثُمَّ رَمَيْنَاهُ مِنْ أَفْئِطَةٍ يَبْعِدُونَ﴾ [٨٧] وهذه استعارة. لأن حقيقة التسويم هي العلامات التي يعلم بها الفرسان والأفراس في الحرب، للتمييز بين الشعارات، والتفريق بين الجماعات.

قال الله سبحانه: ﴿يَتَذَكَّرُ رَبُّكُمْ بِحَسَنَةِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَوْفُونَ﴾ [آل عمران]. وقال الله سبحانه: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران/ ١٤] والمعنى أنه سبحانه لما جعل تلك الحجارة حرباً لهم وأعواناً عليهم، وصفها بوصف رجال الحرب وخيولهم، فكانها مرسل من عند الله، أي من عند ملائكة الله الذين تولوا الرمي بها، إرسال الخيول المسومة على أعدائها، وإن لم يكن هناك تسويم على الحقيقة.

وقد قال بعضهم: إن تلك الحجارة كانت على الحقيقة معلمة بعلامات تدل على أنها أعدت للعذاب، وأفردت

للعقاب. وذلك أملاً للقلوب، وأعظم في الصدور.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ تُحِيطُونَ﴾ [٨٨].

وهذه استعارة من وجهين: أحدهما وصف اليوم بالإحاطة، وليس بجسم فيصح وصفه بذلك. والوجه الآخر: أن لفظ محيط ههنا كان يجب أن يكون من نعت العذاب، فيكون منصوباً. فجعله - سبحانه - من نعت اليوم فجاء مجروراً، فأما وصف اليوم بالإحاطة - وإن لم يتأت فيه ذلك - فالمراد به - والله أعلم - أن العذاب لما كان يعلم المستحقين له في يوم القيامة حسن وصف ذلك اليوم بأنه محيط بهم، أي أنه كالسياج المضروب بينهم وبين الخلاص من العذاب والإفلات من العقاب. وأما ثقل نعت العذاب إلى نعت اليوم، فالوجه فيه أن العذاب لما كان واقعاً في ذلك اليوم، كان ذلك اليوم كالمحيط به، لأنه ظرف لحلوله، ووقت لتزوله.

وقوله سبحانه: ﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الآية ٨٦] وهذه استعارة. لأن حقيقة البقية تركة شيء من شيء قد مضى، ولا يجوز إطلاقه

على الله سبحانه. فإذا يجب أن يكون المراد غير هذه الحقيقة. وقد قيل في معنى ذلك وجوه: أحدها بقية الله من نعمته خير لكم. وقد قيل: بقية الله طاعة الله، وذلك لأنها تبقي رضاه وثوابه أبداً ما بقيت. وقيل بقية الله أي عفو الله عنكم ورحمته بكم بعد استحقاقكم العذاب، كما يقول العرب المتحاربون بعضهم لبعض، إذا استحز فيهم القتل، وأعضلهم الخطب: البقية! البقية! أي نسألكم البقية علينا والمكافأة لنا. والبقية ههنا والإبقاء بمعنى واحد.

وقوله سبحانه: ﴿أَصَلَّوْكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتَّكَّ مَا يَعْْبُدُ مَا بَآؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي آمُورِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [الآية ٨٧] وهذه استعارة. لأن الصلاة لا يصح منها الأمر على الحقيقة، وإنما أطلق عليها ذلك، لأنها بمنزلة الأمر بالخير، والناهي عن الشر.

وقيل: المراد بذلك: أدينك بأمرك بهذا؟ أي في شريعتك ودينك الأمر بهذا؟ فإذا كان ذلك في عقد الدين حسن أن يضاف الأمر به إلى الدين:

وفي هذه الآية أيضاً مجاز آخر. وهو أنه تعالى قال: ﴿أَصَلَّوْكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتَّكَّ مَا يَعْْبُدُ مَا بَآؤُنَا﴾ [الآية ٨٧] وليس

يصح على ظاهر الكلام أن يُؤمر شعيب بأن يترك قومه شيئاً هم عليه، وإنما المعنى - والله أعلم - أصلاتك تأمرك أن تأمرنا بترك ما يعبد آباؤنا؟ فاكتمى بذكر الأمر الأول عن ذكر الأمر الثاني، لأنه كالمعلوم من فحوى الكلام. وهذا من غوامض أسرار القرآن.

وقوله سبحانه: ﴿أَرْفَعِيَّ أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَاتَّخِذُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ﴾ [الآية ٩٢]. فهذه استعارة. لأن الله سبحانه لا يجوز عليه أن يجعل ظهرياً على الحقيقة. فالمراد أنكم جعلتم أمر الله سبحانه وراء ظهوركم. وهذا معروف في لسان العرب، أن يقول الرجل منهم لمن أغفل قضاء حاجته، أو نسي عطفاً على عذله وعتابه: جعلت حاجتي وراء ظهرك، وتركت مقالي ذبر أذنك. أي لم تُغن حاجتي، ولم تصغ إلى معاتبي.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ فَاصْبِرُوا فِي بَيْتِهِمْ﴾ [الآية ٩٤]. وهذه استعارة، لأن حقيقة الأخذ إنما يوصف بها الأجسام. والصبيحة عَرْض من الأعراض، لأنها بعض الأصوات، إلا أنها أقوى للأسماع صكاً وقرعاً، وأبلغ

في القلوب وَجَلًا وَرُوعًا. والمراد أن هلاكهم لما كان عن الصيحة خَسًا أن يقال: إنها أخذتهم بمعنى ذهب نفوسهم، وأنت على جمعهم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْأَوْرُدُ الْأَوْرُدُ﴾ وَأَتَمُّوا فِي هَذِهِ لَعْنَةُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَسَّ الْأَوْرُدُ فَقوله تعالى: ﴿وَيَتَسَّ الْأَوْرُدُ﴾ واستعارتان. لأنه تعالى جعل فرعون في مقدمة قومه إلى النار بمنزلة الفارط<sup>(١)</sup> المتقدم للوارد إلى الورد، كما كان في الدنيا متقدمهم إلى الضلالة، وقائدهم إلى الغواية، وجعل النار بمنزلة الماء الذي يورّد، ثم قال تعالى: ﴿وَيَتَسَّ الْأَوْرُدُ الْأَوْرُدُ﴾ لأنه وُرِدَ لا يُجيز الغصة، ولا ينقع الغلة.

وقد اختلف العلماء في [فهم] قوله تعالى: ﴿وَيَتَسَّ الْأَوْرُدُ الْأَوْرُدُ﴾.

(١) الفارط: اسم فاعل من فرط بمعنى سبق وتقدم.

وهل ذلك ذم لنار جهنم على الحقيقة أو المجاز، فقال أبو علي<sup>(٢)</sup> محمد بن عبد الوهاب الجبائي: ذلك على طريق المجاز، والمعنى يَتَسَّ وارد النار. وقال أبو القاسم البلخي<sup>(٣)</sup>: بل ذلك على طريق الحقيقة.

فأما قوله سبحانه: ﴿وَأَتَمُّوا فِي هَذِهِ لَعْنَةُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَسَّ الْأَوْرُدُ﴾ فإنما قلنا إنه استعارة، لأن حقيقة الرشد العطية. يقال رَفَدَهُ يَرَفُدُهُ رَفْدًا ورَفْدًا بفتح الراء وكسرهما. ولكن اللعنة لما جعلت بدلًا من الرشد لهم عند انتقالهم من دار إلى دار، على عادة المنتجع المسترفِدِ أو الرجل المتزود، جاز أن يسمّى رَفْدًا، على طريق المجاز، كما قال تعالى: ﴿فَبَيَّرَهُمْ بِكَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران] والبشارة في الأعم، الأغلب، إنما تكون بالخير لا بالشر. ولكن لما جعل إخبارهم باستحقاق

(٢) أبو علي محمد الجبائي كان رأسًا من رؤوس المعتزلة، وشيخ علماء الكلام في عصره. وتنسب إليه طائفة «الجبائية»، والجبائي نسبة إلى «جبى» من فرى البصرة. توفي سنة ٣٠٣هـ. وذكر ابن حوقل في «المسالك والممالك» أن جبى مدينة ورستان عريض مشبك العمائر بالنخل وقصب السكر وغيرها؛ ومنها أبو علي الجبائي، الشيخ الجليل، إمام المعتزلة، ورئيس المتكلمين في عصره.

(٣) أبو القاسم البلخي هو عبد الله بن أحمد الكعبي، كان رأس طائفة من المعتزلة، يقال لهم الكعبية. والكعبي نسبة إلى بني كعب؛ والبلخي نسبة إلى بلخ، إحدى مدن خراسان. توفي سنة ٣١٧هـ.

العذاب في موضع البشارة لغيرهم باستحقاق الثواب، جاز أن يسمى في ذلك بشارة.

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ وهذه استعارة. والمعنى: منها قائم البناء، خالٍ من الأهل، ومنها منقوص الأبنية، ملحق بالأرض، تشبيهاً بالزرع المحصور. إلى هذا المعنى يومئ قوله تعالى: ﴿فَكَأَيُّ يَنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْتَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيْ خَاوِيَةٍ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِى مُعْطَلَةٌ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾. وقوله سبحانه: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة/ ٢٥٩] والعروش

الأبنية. أي خالية من أهلها، على ما فيها من بواقي أبنيتها.

وقد يجوز أن يكون ذلك كناية عن أهل القرى، فكانه سبحانه شبه الأحياء الباقين بالزرع النامي، وشبه الأموات الهالكين بالزرع الذوي. وذلك أحسن تمثيل، وأوقع تشبيه.

وقوله سبحانه: ﴿وَوَعَدْتُ كَلِمَةً رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. وهذه استعارة. والمراد ههنا بتمام كلمة الله سبحانه صدق وعيده، الذي تقدّم الخبر به، وتمام وقوع مخبره مطابقاً لخبره.



# سورة يوسف





## أهداف سورة «يوسف» (\*)

سُور القرآن، لكن القرآن كان يكتفي أحياناً بذكر حلقة أو حلقات محدودة من القصة، كحلقة قصة مولد عيسى، أو حلقة قصة نوح والطوفان، لأن هذه الحلقات تفي بالمقصود منها.

أما قصة يوسف، فتقتضي أن تتلى كلها متواليّة الحلقات والمشاهد، من بدنها إلى نهايتها، وصدق الله العظيم، إذ قال:

﴿ثُمَّ نَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رَبِّكَ رُوحًا نَحْنُ عَلِيمُونَ ۖ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذِهِ الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْقَائِلِينَ ﴿١٩﴾﴾

\*\*\*

وسورة يوسف، هي قصة يوسف مطوّعة في سردها، وطريقة أدائها،

سورة يوسف سورة مكيّة كلها، وآياتها مائة وإحدى عشرة آية فقط، وقيل إن الآيات الثلاث الأولى مدنيّات، وهو رأي ضعيف، لأن السورة كلّها قصة واحدة.

ومن العجائب أن يذكر هذا الاستثناء في المصحف المطبوع في مصر، ويزاد عليه الآية السابعة، قال السيوطي في الإتقان وهو رأي واه جداً، فلا يلتفت إليه.

\*\*\*

وحين نستعرض سورة يوسف، نجد أنها سورة فريدة من نوعها من بين سور القرآن الكريم.

فهناك قصص متعدد مبثوث في ثنايا

(\*) انتقّى هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومفاسدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ - ١٩٨٤.

للإنسانية، وجاءت بها رسالات الأنبياء  
في العصور المتلاحقة.

\*\*\*

وقد ساق القرآن دعوة صريحة إلى  
العقيدة السليمة، والإيمان بالله تعالى  
على لسان يوسف (ع) حين مكث في  
السجن يدعو إلى الله، ويأخذ بيد  
الضعفاء، ويواسي المحزونين، ويفسر  
الأحلام، ويشرح لهم سر معرفته  
وإيمانه، فيقول كما ورد في التنزيل:

﴿ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ  
قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ  
كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَتَيْتُ مِلَّةَ مَا بَوَّأَنِي لِإِزْمِيمٍ  
وَأَتَّبَعْتُ مَقْصُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ  
بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا  
وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا  
يَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾ يَصْنَعِ الْجِنُّ الْبَارِئَ أَزْيَابَ  
مُنْفَرِقُونَ خَيْرٌ أَرَأَيْتَ إِنْ أَلْهَمْتُ الْفَهَّارَ ﴿٢٩﴾  
مَا تَقْبَلُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَبَّحْتُمُوهَا  
أُنْثَىٰ وَابْتِغَايَ لَهَا نَزَلَ اللَّهُ إِلَهاً مِنْ سُلْطَانٍ  
إِنْ أَمَرْتُمْ إِلَّا بِوَأْمٍ أَلَّا تَقْبَلُوا إِلَّا بِإِذْنِهِ  
ذَلِكَ الَّذِي كَفَرْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا  
يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وبذلك نجد السورة تربط بين  
رسالات السماء جميعها برباط أساسي  
وهدف مشترك هو الدعوة إلى توحيد

وخصائصها الفنية كلها، للقضية الكبرى  
التي جاء القرآن ليعالجها ويوضحها،  
ويثبتها في القلوب، وهي قضية العقيدة  
وما يقوم عليها في حياة الناس من  
روابط ونظم وصلات، تسبقها في  
السورة مقدمة تشير إلى الوحي بهذا  
القرآن، وبقصصه الذي هو أحسن  
القصص، والذي لم يكن محمد (ص)،  
يعرف عنه شيئاً من قبل.

وتتلوها تعقيبات شتى، تفيد أن  
القَصَصَ القرآني غيب من عند الله  
سبحانه يثبت به الرسول (ص)، ويعظ  
به المؤمنين، قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي  
الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَنَ وَلَكِنْ  
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ  
شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾﴾

كذلك تضم السورة جناحيها على  
لغفات ولمسات أخرى في صفحة  
الكون، وفي أغوار النفس، وفي آثار  
الماضين، وفي ضمير الغيب المطوي،  
لا يدري البشر ما هو مخبوء خلف  
ستاره الرهيب؛ وكل هذه العظائم  
المبثوثة في حنايا السورة، تتناسب مع  
القصة، والقصة تكامل معها، لتحقيق  
القضية الكبرى التي جاء بها هذا القرآن

الله ونبذ الشركاء والأنداد، وبيان أن الإيمان بالله هو الطريق الواضح، والدين القيم الذي يسمو بصاحبه ويعصمه من الفتنة، ويمنعه من الرذيلة، ويجعله يقف ثابت اليقين، يقاوم الإغراء، ويرذ المنحرف إلى طريق الصواب، قال تعالى:

﴿وَرَوَدْنَاهُ آلِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ تُفَيْيِهِ  
وَعَلَّقَ الْآلُزْبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ  
مَكَادُ اللَّهِ إِنَّهُمْ رَفَى أَحْسَنَ مَوَآئِي إِنَّهُمْ لَا  
يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٣١﴾﴾.

### قصة يوسف

قصة يوسف أطول قصة في القرآن، تجتمع حلقاتها كلها في سورة واحدة، وتلاحظ فيها الخصائص الفنية البحتة للقصة، خصائص الموضوع وخصائص العرض والأداء.

فالقصة غنية بالعنصر الإنساني، حافلة بالانفعال والحركة؛ وطريقة الأداء تبرز هذه العناصر إبرازاً قوياً، فضلاً عن خصائص التعبير القرآنية الموحية المؤثرة.

في القصة يتجلى عنصر الحب الأبوي في صور ودرجات متنوعة، واضحة الخطوط والمعالم، في حب

يعقوب ليوسف وأخيه، وحبه لبقية أبنائه، وفي استجاباته للأحداث حول يوسف من أول القصة إلى آخرها.

وعنصر الغيرة والتحاسد بين الإخوة من أمهات مختلفات، بحسب ما يرون من تنوع صور الحب الأبوي.

وعنصر التفاوت في الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد في نفوس الإخوة، فبعضهم يقوده هذا الشعور إلى إضمار جريمة القتل، وبعضهم يشير فقط بطرح يوسف في الجُب تلتقطه بعض القوافل السيّارة، وفي قصة يوسف نجد عنصر المكر والخداع في صور شتى، من مكر إخوة يوسف به، إلى مكر امرأة العزيز بيوسف وبزوجها وبالنسوة.

وعنصر الشهوة ونزواتها، والاستجابة لها بالاندفاع أو بالإحجام، وبالإعجاب والتمني والاعتصام والتأني.

وعنصر الندم في بعض ألوانه، والعفو في أوانه، والفرح بتجتمع المتفارقين. وذلك إلى بعض صور المجتمع المتحضر في البيت والسجن والسوق والديوان، في مصر يومذاك، والمجتمع العبراني، وما يسود العصر من الرؤى والتنبؤات.

مشهدين أو حلقتين فجوة يملأها الخيال، ويكمل فيها ما حذف من حركات وأقوال، ويستمتع بإقامة الصلات بين المشهد السابق والمشهد اللاحق، فيمنح القصة بعض خصائص التمثيلية، ويملاها بالحركة والحيوية.

وهذه الطريقة متبعة في جميع القصص القرآني - على وجه التقريب - وهي شديدة الوضوح في القصص الكبيرة، خصوصاً قصة يوسف الصديق.

\*\*\*

### يوسف بين إخوته وأبيه

أكرم الله عز وجل نبيه يوسف (ع) بأصل كريم، فهو يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم، وقد رزق يعقوب اثني عشر ابناً هم الأسباط. كان يوسف وبنيامين من أم تسمى راحيل، وبقية الأسباط من أمهات أخرى.

وقد ماتت راحيل أم يوسف وتركته في الثامنة عشرة من عمره أشد ما يكون حاجة إلى قلب الأم وعطفها، ولهذا أثر يعقوب يوسف وبنيامين بالحب والحنان، فسرى داء الحسد بين بقية الإخوة، وقال قائل منهم: ألا ترون أن

وقد بدأت القصة بالرؤيا يقضها يوسف على أبيه، فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم، وينصحه بالآ يقضها على إخوته، كي لا يثير حسدهم فيغريهم الشيطان به، فيكيدون له. ثم تسير القصة بعد ذلك، وكأنما هي تأويل للرؤيا، ولما توقعه يعقوب من ورائها، حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا في النهاية أنهى السياق القصة، ولم يسر فيها كما سار كتاب (المهد القديم)، بعد هذا الختام الفني الدقيق الوافي بالغرض كل الوفاء.

\*\*\*

وما يسمى بالعقدة الفنية في القصة الحديثة واضح في قصة يوسف، فهي تبدأ بالرؤيا، ويظل تأويلها مجهولاً، ينكشف قليلاً قليلاً، حتى تجيء الخاتمة فتحل العقدة حلاً فنياً طبيعياً، يرضي الذوق الفني الخالص، ويرضي الوجدان الديني، وفي بدوره للقضية الكبرى التي سبقت القصة لها من الأساس.

والقصة مقسمة إلى حلقات، كل حلقة تحتوي على جملة من المشاهد، والسياق يترك فجوات بين المشهد والمشهد، بحيث يترك بين كل

يوسف وأخاه أحبُّ إلى أبينا منا، وأقرب إليه منا جميعاً.

وقال الثاني: إن حبَّ يوسف قد تمكَّن من قلب يعقوب، ولا شفاء ليعقوب من هذا المرض إلا بإبعاد يوسف عنه، فيجب أن نقتل يوسف، أو نتركه في أرض نائية مقطوعة حتى يموت.

وقال يهوذا: إن القتل لا يقزّه العقل ولا الدين، فلا تقتلوا يوسف، وإنما ألغوه في البئر العميق بجوار بيت المقدس، فهذا البئر ملتقى الغادي والرائح، وسيأخذه بعض القوافل ويعدون به عنكم، فوافقوا جميعاً على رأي يهوذا، وبيتوا أمرهم عليه.

### رؤيا يوسف

أصبح يوسف، فأخبر أباه أنه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدين له، فعلم الأب أن ابنه سيكون له شأن عظيم، وأن أسرته ستأتي له خاضعة معترفة بفضله، فيسجد بين يديه يعقوب أبوه [سجود تحية]، وخالته ليا وهي بمنزلة أمه، وأخوته الأحد عشر، ولكن يعقوب خشي على يوسف من حسد إخوته، فأمره أن يكتن

هذه الرؤيا والآن يخبر بها أحداً؛ ولأمر ما تسرب خبر هذه الرؤيا إلى الإخوة فأشعل نار الغيرة بينهم، واستأذنوا أباهم في مصاحبة يوسف يوماً إلى المرعى حيث الهواء الطلق والمنظر الجميل، فأذن لهم بعد تردد، وأخذوا يوسف وألقوه في ظلام البئر بعد أن استغاث بهم فلم يغيثوه؛ وألقى الله على يوسف السكينة، فاطمأن لمصيره، وجاءت قافلة تريد الماء، وألقت بدلوها إلى البئر، فتعلّق يوسف بالدلو وفرحت القافلة بمنظر الغلام الجميل، وقدموا به إلى أرض مصر، فباعوه إلى عزيز مصر بثمن بخس زهيد، ولمح العزيز في يوسف كرم الأصل وشرف العنصر وجمال الخلق وطيب المنبت، فقال العزيز لامرأته أكرمي مثوى هذا الغلام وأحسني معاملته، وحاشاك أن تزجريه زجر الخدم أو تضربيه ضرب العبيد، فإنني لأرجو إذا اكتمل عوده ونضجت سنه، أن ينفعنا أو نتخذه ولداً.

وانصرف يوسف إلى العمل في بيت العزيز في جد وأمان، فمكَّن الله له في الأرض وأودع محبته في قلوب الجميع، فلما وصل إلى سن الرشد

وَعَلَّقَتِ الْأَيْتُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴿٢٣﴾  
[الآية ٢٣].

فكلمة (راودته) من راد يرود بالإبل  
إذا ذهب بها، وجاء؛ وهي تشير إلى  
فنون الأنثى مقبلة إلى فن، مدبرة عن  
فن، من فنون الإغراء الصامتة التي  
تحاول بها أن تثير يوسف، فلما يشت  
من الصمت (غلقت الأبواب) بتشديد  
اللام، كأنها أرادت أن تجعل الأبواب  
حيطاناً، ثم عرضت نفسها على يوسف  
(وقالت هيت لك): قد تهيأت لك  
راغبة فيك؛ وهنا وقد خلعت المرأة  
ثياب الملك والعظمة والسيادة، ولبست  
ثوب الإغراء والتولّ والرغبة؛ وقف  
يوسف في عزة وإباء وإيمان، يقول،  
كما ورد في محكم التنزيل:

﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّكُمْ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ  
لَا يَقْلُحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الآية ٢٣].

فالمراة في العصور كلها أكثر عاطفة  
من الرجل وأكثر تدبناً وإيماناً، وأكثر  
مراعاة لحرمة الزوجية، وأكثر نفوراً من  
الظلم.

ولهذا عمد يوسف إلى عاطفة  
الإيمان بالله، فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾  
أستعيذ بالله من الفحشاء والمنكر، إن  
زوجك أكرمني وجعلني أميناً على بيته

والقوة، وهي تقع عادة بين العشرين  
والثلاثين، آناه الله حكماً وعلماً،  
وصواباً في الحكم على الأمور،  
ومعرفة بمصائر الأحاديث وتأويل  
الرؤيا.

وهكذا أراد إخوة يوسف به أمراً،  
وأراد الله له أمراً؛ ولكن أمر الله  
غالب، ومشيتته نافذة، فقد زادت ثقة  
العزیز في يوسف، وظهر له مكنون  
حزمه وعقله، وأمانته ونزاهته، فأدخله  
فيما بين نفسه وأهله، وبؤاه مكان  
الاشراف الأحرار، ووضع من قلبه  
موضع الأبناء الأبرار.

### يوسف وامراة العزيز

نما يوسف وترعرع وبلغت سنه  
خمساً وعشرين سنة، وصار أميناً في  
بيت العزيز. وكانت امرأة العزيز في  
سن الأربعين، ولها سلطان الملك  
وقدرة الأمر والنهي، وسيطرة النفوذ  
والجاء؛ ولكن سلطان الحب قد ملك  
قلبها، وسيطر على فؤادها.

وحاولت إغراء يوسف مستغلة فنون  
الإغراء كلها، قال تعالى:

﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَرْءُ بِمِثْلِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾

وعرضه، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان:

﴿إِنَّمَا رِزْقُكَ أَخْسَنُ مِمَّا تُؤْتِي﴾.

وهناك عين الله التي ترى وتعلم السر وأخفى، وهذا ظلم وعدوان، وإنه ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

ولكن المرأة كانت قد صمّت أذنيها عن سماع كل موعظة، وأغمضت عينيها عن رؤية الحق، ولم يبق في ذهنها إلا فكرة واحدة في مكان.. في رجل.. فهتت به صائلة عليه لتنتقم لنفسها وكرامتها، أو لترغمه على طاعتها، وهمّ بها ليضربها أو يقتلها دفاعاً عن الفضيلة والشرف، ولكن الله ألهمه أن الفرار خير من القتال، والمسالمة خير من الموائبة، وفتحت الأبواب أمامه فأسرع هارباً منها، ولكنها عدت وراه، طمعاً في تنفيذ رغبتها، أو خوفاً من افتضاح أمرها.

﴿وَأَسْبَقَ الْأَبَّ وَقَدَّتْ قَيْصَمُ مِنْ دُبُرٍ﴾ [الآية ٢٥].

ونتيجة جذبها له لترده عن الباب، وقعت مفاجأة، فقد كان العزيز يمرّ في تلك اللحظة، فرأى يوسف واقفاً وقميصه ممزقاً، وكان موقفاً يبعث على

الرّيبة ويشير الاتهام، فاتهمت المرأة يوسف، بأنه راودها عن نفسها؛ وهجم عليها في مخدعها، ولا بدّ من سجنه، أو إذاقته مرّ العذاب.

ولم يجد يوسف بداً من وصف الواقع وإيضاحه، فقال هي التي راودتني عن نفسي وجذبتني من ثوبي، وهذا قميصي شاهد على صدقي، وأمام تضارب الأقوال، استدعى الملك ابن عمها وكبير أسرته، وكان فطناً لبيباً، فسمع القضية من أطرافها، وفطن لما وراء قصّتها فقال: إن كان قميصه قدّم من الأمام فذلك إذاً من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها، فهي صادقة وهو من الكاذبين؛ وإن كان قميصه قدّم من الخلف، فهو إذاً من أثر هروبه منها، ومطاردتها له حتى الباب، فهي كاذبة وهو من الصادقين.

فلما رأى الملك بعينه أن القميص قد مزّق من الخلف، وضع الحق وظهرت براءة يوسف أمامه، والتفت العزيز إلى امرأته وقال: إنّ هذا من كيد النساء ومكرهنّ، فاستغفري لذّنيك إنك كنت من الخاطئين، وأنت يا يوسف أمسك لسانك عن الخوض في هذا الحديث، واكتم أمره عن الناس أجمعين.

## يوسف عزيز مصر

تعرض يوسف لحلقات متتابعة من الإغراء والوعد والوعيد، وتوالت عليه حملات زليخا، ونساء من وجوه المدينة، فدعا يوسف ربه أن ينجيه من كيدهن ومكرهن، بقوله كما ورد في القرآن الكريم:

﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (الآية ٣٣).

ورأى العزيز أن يضحي بهذا البريء النزيه، حتى تسكت الألسنة وتخف عن زوجته التهمة، فأدخل يوسف السجن.

وكان يوسف في السجن، مثلاً كريماً في الدعوة إلى الإيمان وتفسير الأحلام وإرشاد الناس إلى الحق؛ ثم رأى الملك في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف، وفسر يوسف هذه الرؤيا بأن البلد مقبلة على سبع سنين مخصبة يوجد فيها النيل بالماء، ثم تأتي بعدها سبع سنين مجدبة يجف فيها ماء النيل، ويعقب ذلك عام طيب مشمر، فأمر الملك بالعفو عن يوسف، ولكنه أبى أن يخرج من السجن إلا بعد التثبت من

براءته ونزاهته، فاعترفت النسوة بنزاهته وفي ذلك، يقول الله تعالى:

﴿حَسَنَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوٍّ قَالَتْ أَمَرْتُ الْأَمْرِيْنَ أَفَنُكْفَىٰ ظَنُّنَا أَنَّ رَوْدُكُمْ عَنْ نَفْسِيهِ وَإِنَّكُمْ لَيَنَّ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٥١).

فخرج يوسف من السجن بريئاً نزيهاً، ثم نال إعجاب الملك والحظوة عنده.

وعلم يوسف أن مصر قادمة على مجاعة، فالنيل سيجود بالماء سبع سنين ثم يمتنع عن الفيضان سبع سنين أخرى، ورأى يوسف ثقة الملك فيه وإعجابه بنزاهته وأمانته فقال كما ورد في التنزيل:

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ (٥٥).

واستطاع يوسف بحكمته أن ينجي مصر من المجاعة، وأن يذخر القمح في سنايلها، والذرة في كيزانها، وأن يدير التموين والأموال، وأن يحفظ لمصر مكانتها وفضلها فاستطاعت أن تساعد نفسها، وأن تمد يد العون لما حولها من البلاد.

ووصل خبر يوسف إلى البلاد

المجاورة، وإلى أرض كنعان حيث يقيم نبي الله يعقوب وأبناؤه الأسباط.

فقال يعقوب لبنيه: يا بني إن الجذب عَمَّنَا والقحط يكاد يأتي علينا، فاقصدوا هذا العزيز، وأحضروا من عنده القمح والطعام، واتركوا عندي أخاكم بنيامين. أَنَعَزَى ببقائه عن فراقكم، فرحل أبناء يعقوب إلى مصر، قاصدين مقابلة العزيز.

واستأذن الحاجب على يوسف، فقال إن بالباب عشرة رجال تشابه وجوههم، وكأنهم غرباء عن هذه الديار يستأذنون في الدخول عليك، فأذن يوسف لإخوته وعرفهم، ولكنهم لم يعرفوه، فقد تركوه في الجب ذليلاً فريداً، فأين منه هذا الأمير العزيز الذي يأمر فيطاع، ويقول فيمتثل الجميع أمره. وأكرم يوسف وفادتهم، وترك نفودهم داخل التموين الذي أمدَّهم به، وطلب منهم أن يحضروا أخاهم بنيامين معهم في المرة الثانية، ولما حضر بنيامين مع إخوته استطاع يوسف أن يستبقه معه، ثم ذهب الإخوة إلى أبيهم، فاشتدَّ حزنه لفراق يوسف وبعده بنيامين، وجلس حزيناً في محرابه يبكي أشدَّ البكاء، ويقول كما أخبرنا القرآن

الكريم ﴿يَتَأَتَّى عَلَى يُوسُفَ﴾ [الآية ٨٤].

ثم قال الأب لأبنائه، إنني أحس في قرارة نفسي بوجود يوسف على قيد الحياة، فاذهبوا إلى مصر وتحسنوا من يوسف وأخيه، ولا تياسوا من فضل الله ورحمته؛ ودخل الإخوة على يوسف، وقد اشتدَّ بهم الضر والحاجة، فطلبوا من يوسف أن يرفق بهم، وأن يتصدق عليهم، وهنا فاض قلب يوسف حناناً وعطفاً على إخوته، وسألهم عما فعلوه بيوسف في زمان جهلهم، فقالوا إنك لأنت يوسف، قال أنا يوسف وهذا أخي بنيامين:

﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١).

لقد اتقى يوسف ربه، وصبر عن الفحشاء، وتحمل السجن في طاعة الله، فلم يضع أجره، وجعله الله على خزائن الأرض، عزيزاً كريماً، فالله يتولى الصالحين.

وصفح يوسف عن إخوته وقال لهم:

﴿أَذْهَبُوا بِقِمِيمِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٢).

وعاد الإخوة إلى أبيهم، فأخس رائحة القميص من مسافة بعيدة، ولما وضع القميص على وجهه عاد بصيراً، ورحل يعقوب مع أسرته قادمين إلى مصر، ودخلوا على يوسف، وخزوا له جميعاً ساجدين [سجود تحية]، الأب والأم والإخوة، فقال يوسف:

﴿يَكُنْ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلَ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [الآية ١٠٠].

وشكر يوسف ربه إذ أخرجه من السجن، وجاء بإخوته من البادية، وجمع شمل الأسرة، ثم مكّن الله ليوسف في الأرض، وآتاه الملك

والحكمة، ليكون في قصته دليلاً للعاملين ونبراساً للمخلصين؛ وكأنه سبحانه يمهد الأسباب والمقدمات بلطفه وحكمته، لتكون العاقبة للمتقين، ومد يوسف (ع) يده لله تعالى طالباً منه حسن الخاتمة والسير في موكب الصالحين فقال، كما ورد في التنزيل:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٣).

\*\*\*

## ترابط الآيات في سورة «يوسف» (\*)

### تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «يُوسُف» بعد سورة «هود»، وقد نزلت سورة «هود» بعد «الإسراء» وقُبيل الهجرة، فيكون نزول سورة «يوسف» في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم، لأنها نزلت في قصة يوسف مع أبيه وإخوته، وتبلغ آياتها إحدى عشرة ومائة آية.

### الغرض منها وترتيبها

يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن، كما يقصد من سورتي «يونس» و«هود»، ولهذا ذكرت بعدهما، وتختلف طريقة إثباته فيها عن طريقة

إثباته فيهما، لأن طريقة إثباته فيهما، كانت بتحذيرهم أن يأتوا بسورة أو عشر سورٍ مثله؛ أما طريقة إثباته في هذه السورة، فبأنه يقصّ عليهم من تفصيل أخبار يوسف (ع)، ما لا يمكن أمياً مثله أن يعرفه.

وقد جاءت هذه السورة في هذا الغرض على ثلاثة أقسام: أولها في مقدمة، يقصد منها التمهيد لقصة يوسف، وثانيها، في قصة يوسف، وثالثها، في خاتمة تناسب ما سبقت له هذه القصة.

### المقدمة

#### الآيات (١ - ٣)

قال الله تعالى ﴿الرَّكَاءَ لَكَ مَا بَيْنَ أَلْيَمَنَ

(\*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصمدي، مكتبة الآداب بالجميزة. المطبعة النموذجية بالحكمة الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

الْثَّيْنِ ﴿١٠﴾ فَأَقْسَمَ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ، أَنْ مَا أَنْزَلَهُ هُوَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ قِرَاءَةً عَرَبِيًّا، لِيَعْقِلُوهُ وَيَفْهَمُوهُ، وَأَنَّهُ يَقْضَى عَلَيْهِ فِيهِ أَحْسَنُ الْقَضَايَا، وَقَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِهِ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْهُ، فَلَا يُمْكِنُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُنْزَلًا مِنْ عِنْدِهِ.

### قصة يوسف (ع)

الآيات (٤ - ١٠١)

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَأْتِنِي بِإِثْنَيْ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالْقَمَرَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدَةً﴾ ﴿١٠﴾ كَانَ لِيَعْقُوبَ اثْنَا عَشَرَ وَلَدًا: سِتَّةٌ مِنْ لِيَا بِنْتِ لِيَانَ، وَأَرْبَعَةٌ مِنْ سَرَيَّتَيْنِ لَهُ، وَاثْنَانِ مِنْ رَاحِيلَ بِنْتِ لِيَانَ، وَكَانَ قَدْ تَزَوَّجَهَا بَعْدَ وَفَاةِ أُخْتِهَا، فَوُلِدَتْ لَهُ بَنِيَامِينَ وَيُوسُفَ. فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ يُوسُفَ رَأَى أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يَسْجُدُونَ لَهُ، فَقَضَى مَا رَأَى عَلَى أَبِيهِ، فَفَنَاهُ أَنْ يَقْضِيَهُ عَلَى إِخْوَتِهِ، لِثَلَا يَحْمِلَهُمُ الشَّيْطَانُ عَلَى الْكَيْدِ لَهُ، وَكَانَ يُحِبُّهُ هُوَ وَأَخُوهُ بَنِيَامِينَ أَكْثَرَ مِنْهُمْ، ثُمَّ أَوَّلُهُ لَهُ بِأَنَّ رَبَّهُ يُجْتَنِبِيهِ، وَيَعْلَمُهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، وَيَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ، كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْهِ

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ؛ ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنْ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ آيَاتٌ وَعِبَرٌ لِلسَّائِلِينَ، ثُمَّ فَضَّلَهَا، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ ذَكَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَنَّ يُوسُفَ وَأَخَاهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِيهِمْ مِنْهُمْ، وَحَكَمُوا بِتَخْطِئَتِهِ فِي إِثَارِهِمَا بِزِيَادَةِ حُبِّهِ عَلَيْهِمْ، وَتَأَمَّرُوا عَلَى قَتْلِهِ أَوْ إِبْعَادِهِ فِي أَرْضٍ عَنْ أَبِيهِ؛ فَأَشَارَ بَعْضُهُمْ بِالْقَاتِنَةِ فِي جُبٍّ لَيْلَتَقَطَهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ الَّذِينَ يَمْرُونَ بِهِ، فَانْفَقُوا عَلَى هَذَا الرَّأْيِ، ثُمَّ احْتَالُوا عَلَى أَبِيهِمْ، حَتَّى يَرْسِلَهُ لِيَرْتَعَ وَيَلْعَبَ مَعَهُمْ، فَذَكَرَ أَنَّهُ يَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَهُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ، فَتَعَهَّدُوا لَهُ أَلَّا يَغْلُوا عَنْهُ، فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ أَلْفَوْهُ فِي ذَلِكَ الْجُبِّ، وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ، فَيُخْبِرُوهُ بِأَنَّ الذَّنْبَ أَكَلَهُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ عَنْهُ، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ لِيُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُمْ رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ يَبْكُونَ، وَأَخْبَرُوهُ بِأَنَّهُمْ ذَهَبُوا يَسْتَقُونَ، وَتَرَكَوا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِهِمْ، فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ، وَأَتَوْهُ بِقَمِيصِهِ وَعَلَيْهِ دَمٌ لَطَخُوهُ بِهِ، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمِيصِ فَوَجَدَهُ لَا تَمْزِيقَ فِيهِ. فَعَرَفَ كَذِبَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ أَنْفُسَهُمْ سَوَّلَتْ لَهُمْ فِيهِ أَمْرًا، وَصَبَرَ

على فقد يوسف صبراً جميلاً، واستعان الله على ما يصفون من الكذب، ليظهر أمره له، ويعلم ما فعلوه به.

ثم ذكر تعالى، أن سيارة كانت ذاهبة من مدين إلى مصر، أرسلوا واردهم ليطلب لهم الماء، فسار حتى وصل إلى ذلك الحب، فأدلى دلوه فتعلق يوسف به، فلما رآه فرح به لجماله وحسنه، واتفق هو ومن معه على أن يخفوا أمره عن سيارتهم، ويخبروهم بأن أهل الماء جعلوه بضاعة عندهم، على أن يبيعوه لهم بمصر، ثم ذكر أنهم باعوه بثمن بخس لأنهم لم يغمروا فيه شيئاً، وكان الذي اشتراه عزيز مصر، فأمر امرأته أن تكرم مشاؤه، عسى أن ينفعهم أو يتخذوه ولدًا؛ ثم ذكر جل شأنه أنه لما بلغ أشده، آتاه حكمة وعلماً، وجزاه بذلك على إحسانه وطاعته، وأن امرأة العزيز راودته عن نفسه، فاستعاذ بالله مما تطلبه منه، وخرج هارباً إلى الباب فخرجت وراءه لتمنعه، وتعلقت بقميصه فقدته من ذُبُر، فلما وصلا إلى الباب، وجدا بعلمها عنده، فرمته بأنه كان يريد بها سوءاً، وذكر له أنها راودته عن نفسه فأبى؛ وجاء شاهد من

أهلها، فذكر أن قميصه إن كان قد من قُبِل، تكون هي الصادقة، وإن كان قد من ذُبُر يكون هو الصادق، فلما رآه قد من ذُبُر علم أن اتهامها له من الكيد الذي عرفن به، وأمره أن يعرض عن هذا، لئلا يظهر للناس، وأمرها أن تستغفر من ذنبها، ولا تعود إليه.

ثم ذكر تعالى أن نسوة في المدينة عرفن ذلك، فلمنها عليه، فلما سمعت بما حصل منهن، دعتهن إليها، وأحضرت لهن طعاماً، وآتت كل واحدة منهن سكيناً لقطع الطعام، وأمرت يوسف أن يخرج عليهن، فلما رأيته أکْبَرَنه، ودُهَشَن، فوقعت سكين كل واحدة على يدها، فجرحتها، ثم أخبرتهن بأنه هو الذي لَمَنَّا فيه، وأنه إن لم يفعل ما تأمره به، فلا بد من أن تسعى في سجنه، فأثر السجن على ما دعت إليه، ولم يجيها إلى ما أرادته، فذهبت إلى بعلمها، فشكته أنه فضحها في الناس، وأنه يخبرهم بأنها راودته عن نفسه، فرأى أن يحبسها، حتى يسقط عن السنة الناس ذكر ذلك الحديث.

ثم ذكر سبحانه، أنه دخل معه السجن فتيان: أحدهما صاحب طعام

الملك، وثانيهما كان صاحب شرابه، فقص عليه صاحب الشراب، أنه رأى أنه يعصر خمراً، وقص عليه صاحب الطعام أنه رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، وطلباً منه أن يؤوّل لهما رؤياهما، فأخبرهما بأنه سيؤوّل لهما ذلك قبل أن يأتيهما طعامهما، وأن علمه بتأويل الرؤيا مما علّمه ربه، لأنه ترك ملة من لا يؤمنون به ولا باليوم الآخر، واتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ثم بين لهما بطلان ما يعبدانه من دون الله، وأوّل لصاحب الشراب رؤياه بأنه سيعود إلى عمله عند الملك، وأوّل لصاحب الطعام رؤياه، بأنه سيضلّب فتأكل الطير من رأسه، وطلب من صاحب الشراب أن يذكره عند الملك، إذا عاد إلى عمله، فلما عاد إلى عمله نسي أن يذكره عند الملك، فلبث في السجن بضعة سنين.

ثم ذكر تعالى أن الملك رأى سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع عجاف؛ وسبع سنبلات خضر وأخرى يابسات، وطلب من قومه أن يؤوّلوا له هذه الرؤيا، فعجزوا عن تأويلها له، فطلب منهم صاحب الشراب، أن يرسلوه إلى

يوسف ليؤولها، فلما قصّها عليه، أخبره بأنهم يزرعون سبع سنين متوالية، وأوصاهم أن يتركوا ما يحصدونه في سنبله، لئلا يأكله السوس، ولا يأكلوا إلا قليلاً منه؛ ثم أخبره بأنه سيأتي بعد ذلك سبع سنين مجربات، يأكلون فيها ما اذخروا لها، ثم يعودون إلى الخصب كما كانوا قبل الجذب، فلما عاد صاحب الشراب إلى الملك، وأخبره بهذا التأويل، طلب أن يأتوه بيوسف من السجن، فلما جاءه الرسول أمره أن يرجع إلى الملك، فيسأله عن حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن، لينكشف أمرهن وتعلم براءته مما اتهمته به، فسألهن الملك عن خطيئتهن، إذ راودن يوسف عن نفسه، فأجبن بأنهن لم يعلمن عليه من سوء، واعترفت امرأة العزيز بأنها هي التي راودته عن نفسه.

ثم ذكر تعالى، أن الملك أمر أن يأتوه به ليستخلصه لنفسه، فلما أتاه وكنّته، أخبره بأن قد صار عنده مكيناً أميناً؛ فطلب منه يوسف أن يجعله أميراً على خزائن أرض مصر، ليدبر أمورها في سني الجذب، فأجابه الملك إلى ما طلب من ذلك، ثم ذكر تعالى أن إخوة

يوسف جاءوا إليه يبتاعون ميرة لأهلهم، فعرفهم ولم يعرفوه، ولما جهّزهم بجهازهم، سألهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم، وأخبرهم بأنهم إن لم يأتوه به لم يعطهم شيئاً، فأخبروه بأنهم سيراودون عنه أباه، لعله يرسله معهم، ثم أمر يوسف فتَيَّانه، أن يجعلوا بضاعتهم التي ابتاعوا الميرة بها في رحالهم، ليعرفوها إذا انقلبوا إلى أهلهم، فيرجعوا إليه ثانية، فلما رجعوا إلى أبيهم، أخبروه بأنهم لا يعطون شيئاً، إذا لم يرسل معهم أخاهم بنيامين، وطلبوا منه أن يرسله معهم، وتعهّدوا له بحفظه؛ فأجابهم بأنهم قد تعهّدوا قبل ذلك بحفظ يوسف، ولم يحفظوه، وذكر لهم أن الله خير حافظ وهو أرحم الراحمين، ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم، فأخبروا أباهم بذلك، وأنهم إذا ذهبوا ثانياً يميرون أهلهم ويحفظون أخاهم، ويزدادون كيلَ بعير له، فطلب منهم أن يؤتوه موثقاً من الله ليأثنته به، فلما أتوه موثقهم، أرسله معهم، وأشهد الله عليهم؛ ثم ذكر سبحانه أنهم لما دخلوا على يوسف آوَى إليه أخاه بنيامين، وعزّفه أنه أخوه، ونهاه أن يبتس بما كانوا يفعلون؛ فلما جهّزهم بجهازهم

جعل صواع الملك في رحل بنيامين، ثم أمهلهم حتى انطلقوا، فأرسل وراءهم رسلاً اتهمهم بأنهم سرقوا صواع الملك، فرجعوا إلى يوسف وأصحابه، وأقسموا بالله أنهم ما جاءوا ليفسدوا في الأرض، وما كانوا سارقين؛ فسألهم عن جزائه إن ظهر أنه منهم، فأجابهم بأن جزاءه استرقاق من وُجد في رحله، وكان هذا هو حكم السارق في شريعة ملك مصر، وقد فعل يوسف ذلك ليأخذ أخاه منهم؛ ففتّش أوعيتهم حتى وجد الصواع في وعاء أخيه، فحكم باسترقاقه، وأخذهم منهم.

ثم ذكر تعالى، أنهم أخبروا يوسف بأن لأخيهم أباً شيخاً كبيراً، وسألوه أن يأخذ أحدهم مكانه، فأبى أن يأخذ إلا من وجد الصواع عنده، فلما يثسروا منه، تناجوا في أمرهم، وما يقولونه لأبيهم، فذكر كبيرهم أنه لن يبرح أرض مصر حتى يأذن له أبوه، أو يُمكنه الله من خلاص أخيه، وأمرهم أن يرجعوا إلى أبيهم، ويخبروه بما فعله، بنيامين؛ فلما رجعوا إليه، وأخبروه بذلك لم يصدقهم، واتهمهم بأنه دبّروا له أمراً، كما دبّروا لأخيه من

قبل، وصبر على فقدته أيضاً صبراً جميلاً. ورجا من الله أن يأتيه بأبنائه جميعاً، ثم أعرض عنهم، وأظهر أسفه على يوسف، وصار يبكي عليه حتى ذهب بصره، فأنفق عليه أبنائه، وأخبروه بأنه لا يفتأ يذكر يوسف حتى يمرض أو يهلك؛ فأجابهم بأنه إنما يشكو أمره إلى الله، ويعلم منه ما لا يعلمون، ثم أمرهم أن يذهبوا إلى مصر، فيفتشوا عن يوسف وأخيه، ولا يياسوا من رحمة الله، فأطاعوا، وذهبوا إلى مصر يمتارون ويفتشون عن أخويهم؛ فلما دخلوا على يوسف شكوا إليه ما قسم وأهلهم من الضر، وأنهم جاءوا ببضاعة ردئة يرجون أن يقبلها منهم، وأن يعطيهم بدلها كَيْلاً وافياً، ويتصدق بذلك عليهم؛ فلما شكوا إليه ذلك رَفَقَ لهم ودمعت عيناه، وسألهم عما فعلوه بيوسف وأخيه، وهم في جهل الشباب، فقالوا له ﴿إِنَّا كُنَّا نَحْنُ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْبِرِينَ﴾ (١٢٠).

ثم ذكر تعالى، أنهم لما عرفوه، اعترفوا له بالمزينة والفضل، واقرؤا

بأنهم أخطأوا فعفا عنهم، ورجا من الله أن يغفر لهم، وأمرهم أن يذهبوا بقميصه، فيلقوه على وجه أبيه ليأتي إليه بصيراً، ويأتوا بأهلهم أجمعين؛ ثم ذكر سبحانه، أنهم رجعوا إلى أبيهم، وألقوا عليه القميص فارتد إليه بصره، وأنهم أتوا بأهلهم، فلما دخلوا على يوسف، ضَمَّ إليه أبويه، ورفعهما إلى سريره الذي يجلس عليه، وأنهم خَرُّوا له سجداً سجود تكريم، وأن يوسف أخير أباه، بأن هذا هو تأويل رؤياه من قبل، قد جعلها ربه حقاً، وقد أحسن به إذ أخرجه من السجن، وجاء بهم إليه، من بعد أن نزع الشيطان بينه وبين إخوته، إنه لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيُّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَالْحَقِيقِي بِالْعَلِيِّينَ﴾ (١٢١).

### الخاتمة

الآيات (١٠٢ - ١١١)

ثم قال تعالى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٢) فذكر سبحانه،

أن قصة يوسف (ع) من غيب الماضي الذي يوحيه إليه، وما كان يعلمه، وأن أكثر الناس لا يؤمنون بالقرآن، ولو حرص على إيمانهم لتعنتهم، وأنه لا يسألهم عليه أجرًا، حتى يعرضوا عنه، وإنما هو تذكير للناس وعظة لهم؛ ثم ذكر تعالى، أن هذا الإعراض شأنهم في آياته في السماوات والأرض، وأن أكثرهم لا يؤمن به إلا وهم مشركون؛ ثم أنكر عليهم، أنهم لا يحذرون أن يؤاخذهم على تعنتهم، بغاشية من عذابه، أو تأتيهم الساعة بغتة، وهم لا يشعرون.

ثم أمر النبي (ص) أن يذكر لهم، أن هذا سبيله يدعو إليه على بصيرة، هو ومن اتبعه، ولا يأتيهم بما يقترحونه من الآيات على سبيل التعنت، ثم ذكر

سبحانه، أنه لم يرسل من قبله إلا رجالاً مثله، من أهل القرى، فلم يرسل ملائكة كما يقترحون، وأمرهم أن يسبوا في الأرض، لينظروا كيف كانت عاقبة المكذبين قبلهم؛ وذكر تعالى، أن دار الآخرة خير للمتقين، من دنياهم التي أعمتهم؛ ثم ذكر جل شأنه أنه لم يهلك المكذبين قبلهم، إلا بعد أن استأس الرسل، وظنوا أنهم قد كذبوا فيما وعدوا به من هلاكهم، وأن نصره جاءهم بعد هذا، فنجى من يشاء من المؤمنين، ولم يرز أحد عذابه عن القوم المجرمين ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَئِنْ تَصَدَّقَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ لَيَكْفُرُوا بِكُلِّ شَيْءٍ وَهُمْ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ ۖ﴾



**أسرار ترتيب سورة «يوسف» (\*)**

إخوته، فكان كالشرح، لإجمال ذلك.

وَكَذَلِكَ قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ  
 "يُوسُفَ": ﴿وَرِئِضٌ بِعَمَلِكَ وَعَلَى  
 هَالِكٍ يَفْقُوبَ كَمَا أَتَتْهَا عَلَى أَتُوبِكَ مِنْ قَبْلُ  
 إِبْرَاهِيمَ وَالْحَقُّ﴾ [الآية ٦]، فكان ذلك  
 كالمقترن بقوله تعالى في هود: ﴿رَحِمْتُ  
 اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الآية  
 ٧٣].

وقد روينا عن ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب النزول: أن «يونس» نزلت، ثم «هود»، ثم «يوسف»<sup>(١)</sup>. وهذا وجه آخر، من وجوه المناسبة في ترتيب هذه السور الثلاث، لترتيبها في النزول هكذا.

أقول: وجه وضعها بعد سورة «هود» زيادة على الأوجه الستة السابقة، أن قوله تعالى في مطلعها: ﴿تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (الآية ٣) مناسب لقوله سبحانه في مقطع تلك: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا ثَبَّتْ بِهِ. فَوَازَكَ﴾ (هود/١٢٠).

وأيضاً فلما وقع في سورة هود:  
﴿فَبَشِّرْهُمَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَأَىٰ إِسْحَاقَ  
يَعْقُوبَ ۖ﴾. وقوله تعالى: ﴿رَحِمْتُ  
أَنَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكَ أَفَلَّ الْآلِيَّةِ﴾ [هود/

ذكر هنا حال يعقوب مع أولاده،  
وحال ولده الذي هو من أهل البيت مع

(\*) انتقي هذا السبحث من كتاب: « أسرار ترتيب القرآن » للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(١) الإتقان: ٩٧/١، نقلاً عن محمد بن الحارث بن أسبغ في جزئه.



(\*) مكنونات سورة «يوسف»

١ - ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [الآية ٤].

هي الخثران، وطارق، والذبال،  
والكتفان، وقابس، ووثاب،  
وعمودان، والفيلق، والمصبح،  
والضروح، وذو الفرع، كما ورد في  
حديث مرفوع أخرجه الحاكم في

«مستدرکه»<sup>(١)</sup>.

٢ - ﴿لِيُؤْتَفَّ وَأَخُوهُ﴾ [الآية ٨].

قال قتادة: هو يثيامين، شقيقه.  
أخرجه ابن أبي حاتم.

٣ - ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾  
[الآية ١٠].

(٥) انتهى هذا المبحث من كتاب «مُتَجَمَّاتُ الْأَنْفَرَانِ فِي مُبْهِمَاتِ الْقُرْآنِ» للشَّيْخِ مُحَمَّدٍ طَباطُبا، تحقيقُ إِيَادِ خَالِدِ الطَّبَّاعِ، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) يبدو أن هذا الحديث سقط من مطبوعة «المستدرک»، حتى إن الشَّيْخَ أَحْمَدَ شَاكِرَ صَرَحَ فِي تَعْلِيلِهِ عَلَى «تَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ» بِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْهُ فِيهِ. وَلِلْعُلَمَاءِ كَلَامٌ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَ الْحَافِظُ الْيَوْصِي: «رَوَاهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بِسَدِّ ضَعِيفٍ وَمَنْقُطٍ، وَرَوَاهُ الْبَزَارُ بِتَمَامِهِ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: «الْتِمِدَانُ» بِدَلِّ «الْعُمُودَانِ»، وَالْحَاكِمُ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَيْسَ كَمَا زَعَمَ». مِنْ هَامِشٍ «الْمَطْلَبُ الْعَالِيَةُ» ٣/ ٣٤٤.

وَأُورِدَهُ ابْنُ عَرَّافٍ الْكِنَانِيُّ فِي «تَنْزِيهِ الشَّرِيعَةِ الْمَرْفُوعَةِ عَنْ الْأَحَادِيثِ الشَّيْخِيَّةِ الْمَوْضُوعَةِ» ١/ ١٩٣، وَزَادَ فِي عَزْوِهِ إِلَى سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ، وَالْمَقْبِلِيِّ فِي «الضُّعْفَاءِ» وَابْنِ مَرْدَوَيْهِ. وَقَدْ حَاوَلَ ابْنُ عَرَّافٍ إِزَالَةَ نَهْمَةِ الْوَضْعِ عَنْ الْحَدِيثِ. لَكِنْ تَعْقِبُهُ مَعْلَقَةً عَلَيْهِ الشَّيْخُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الصَّدِيقِ الْغَمَّارِيِّ، فَقَالَ: «تَنْقُضِي نَكَارَتَهُ الْحُكْمَ بِوَضْعِهِ جُزْأً». وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مَأْخُوذٌ عَنِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ.

وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَانِدِ» ٧/ ٣٩: «رَوَاهُ الْبَزَارُ، وَفِيهِ الْحُكْمُ بْنُ ظَهْرٍ وَهُوَ مَثْرُوكٌ».

وَهُنَاكَ اخْتِلَافٌ بَيْنَ النُّسخِ الَّتِي رَوَتْ هَذَا الْحَدِيثَ فِي أَسْمَاءِ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ، انْظُرْ «تَفْسِيرَ الطَّبْرِيِّ» ١٢/ ٩٠ وَ«مَجْمَعِ الزَّوَانِدِ» ٧/ ٣٩، وَ«كَشْفُ الْأَسْتَارِ» ٣/ ٥٣، وَ«الْمَطْلَبُ الْعَالِيَةُ» ٣/ ٣٤٤، وَ«تَارِيخُ جَرَجَانَ» لِحَمْزَةِ السَّهْمِيِّ: ٢٤٤، وَ«تَنْزِيهِ الشَّرِيعَةِ الْمَرْفُوعَةِ» لِابْنِ عَرَّافٍ ١/ ١٩٣، وَ«مِيزَانُ الْإِعْتِدَالِ» لِلْهَيْثَمِيِّ ١/ ٥٧٢.

قال قتادة: كنا نحدث أنه زؤبيل، وهو أكبَرُ إخوانه وهو ابن خالة يوسف<sup>(١)</sup>.

وقال السُّدي: هو يهوذا.

وقال مُجاهد: هو شمعون. أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

٤ - ﴿عَيَّنَتِ الْجَبَّتِ﴾ [الأنبان ١٠ و ١٥].

قال قتادة: بشر يبت المقدس.

وقال ابن زُيد: بحذاء طبرية<sup>(٢)</sup>، بينه وبينها أميال.

أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

وأخرج عن أبي بكر بن عياش: أن يوسف أقام في الجُب ثلاثة أيام.

٥ - ﴿يَدْمِرْ كَذِبٌ﴾ [الآية ١٨].

قال ابن عباس: كان دم سخله<sup>(٣)</sup>. أخرج ابن أبي حاتم<sup>(٤)</sup>.

٦ - ﴿فَازْسَلُوا وَارْدَهُمْ﴾ [الآية ١٩].

هو: مالك بن دُغر<sup>(٥)</sup>.

٧ - ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ﴾ [الآية ٢١].

قال ابن عباس: كان اسمه: قُطَيْفِير<sup>(٦)</sup>.

وقال ابن إسحاق: أطيْفير<sup>(٧)</sup>.

أخرجه ابن أبي حاتم.

٧ - ﴿لَا تَرَكَانِي﴾ [الآية ٢١].

قال ابن إسحاق: اسمها راعيل بنت زعائيل. أخرجه ابن أبي حاتم.

وقيل: زليخا.

٨ - ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾

[الآية ٢٦].

قال ابن عباس: صبي في المهد.

وقال مُجاهد: ليس من الإنس، ولا

من الجن، هو خلق من خلق الله.

وقال الحسن: رجل له فهم وعلم.

وقال زُيد بن أسلم: كان ابن عم لها

حكيمًا.

(١) أخوه لايه. والآخر في تفسير الطبري ٩٣/١٢.

(٢) رواه الطبري ٩٣/١٢ = ٥٦٦/١٥ ط شاكر.

(٣) السخله: ولد الشاة من المعز والضأن، ذكر أو أنثى.

(٤) والطبري في تفسيره ٩٧/١٢.

(٥) انظر تفسير الطبري ١٠٤/١٢.

(٦) تفسير الطبري ١٠٤/١٢: «قطيفير». والمثبت موافق لـ «الإنفان» ١٤٦/٢.

(٧) في «الدر المنثور» ١١/٤: «أطفيير»، وفي «تفسير الطبري»: «أطفيير بن روحيب». والمثبت موافق لـ «الإنفان».

أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

وفي «العجائب» للكُرَماني: قيل: هو رَجُلٌ من خاصة المَلِكِ، له رأي.

وقيل: هو زَوْجُهَا.

وقيل: هو سَبَوْرٌ<sup>(١)</sup> في الدار<sup>(٢)</sup>.

٩ - ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ اللَّيْحَنَ فَتَيَّانٌ﴾  
[الآية ٣٦].

قال ابن عباس: أحدهما، خازنُ المَلِكِ على طعامه، والآخر، ساقيه على شَرَابِهِ. أخرجه ابن أبي حاتم.

وأخرج عن مجاهد، وابن إسحاق: أن اسم الأول، مَجْلَثٌ<sup>(٣)</sup>، والساقى، تَبَوُّ<sup>(٤)</sup>.

وفي «المسالك» لأبي عُبيد

البكري<sup>(٥)</sup>: أن اسم الأول: راشان، والثاني: مرطش.

وقيل: الأول: بشرهم، والثاني: شرمهم.

حكاه السُّهَيْلي.

١٠ - ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنْتُمْ تَكُنَّ﴾ [الآية ٤٢].

هو السَّاقِي. قاله مُجَاهِدٌ، وغيره. أخرجه ابن أبي حاتم<sup>(٦)</sup>.

١١ - ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الآية ٤٢].

قال مُجَاهِدٌ: أي المَلِكُ الأعظم: الرِّيَّانُ بن الوليد. أخرجه ابن أبي حاتم.

١٢ - ﴿فَلَيْتَ فِي اللَّيْحَنِ يَضَعُ سِينَيْنِ﴾<sup>(٧)</sup>.

قال أنس بن مالك: سبع سنين<sup>(٨)</sup>.

(١) السُّوْر: الهر.

(٢) قال الطبري في «جامع البيان» ١١٦/١٢: «والصواب من القول في ذلك، قول من قال: كان صبياً في المهد. للخبر الذي ذكرناه عن رسول الله (ص) أنه ذكر من تكلم في المهد فذكر أن أخذهم صاحب يوسف. والثلاثة المتكلمون في المهد هم: عيسى، وصاحب يوسف، وصاحب جريج.

(٣) تفسير الطبري ١٢٧/١٢: «وقع في «الدر المنثور» ١٨/٤: «مجلب» بالياء الموحدة، وفي «الإتقان» ١٤٧/٢: «مجلت».

(٤) انظر تفسير الطبري ١٢٧/١٢، وفي «الإتقان». أن اسمه: «بنو».

(٥) أبو عبيد البكري: عبد الله بن عبد العزيز، مؤرخ جغرافي، ثقة، أديب، له مصنفات كان الملوك ينهадونها منها: «المسالك والمعالم»، مخطوط غير كامل، طبع جزء منه باسم «المغرب في ذكر أفريقيا والمغرب» و«قطع خاصة ببلاد الروس والصفبل ومصر»، وله أيضاً «معجم ما استعجم» و«شرح أمالي القاضي»، توفي سنة (٤٨٧) هـ.

(٦) انظر تفسير الطبري ١٣١/١٢.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد». «الدر المنثور» ٢٠/٤.

وقال ابن عباس: اثنتي عشرة سنة.

وقال طاووس، والضحاك: أربع عشرة سنة. أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

وفي «المعاجب» للكرماني: أنه لبث بكل حرف من قوله: (اذكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) سنة.

١٣ - ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ [الآية ٤٣].

هو ريان السابق<sup>(١)</sup>.

١٤ - ﴿اتَّبَوِي يَاخُ لَكُمْ﴾ [الآية ٥٩].

قال قتادة: هو بنيامين. وهو المتكرر<sup>(٢)</sup> في السورة.

١٥ - ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الآية ٧٧].

وقال ابن عباس: يغنون يوسف. أخرج ابن أبي حاتم<sup>(٣)</sup>.

١٦ - ﴿قَالَ كَيْفَ تُمْ﴾ [الآية ٨٠].

قال مجاهد: هو شمعون الذي تخلف، أَكْبَرُهُمْ عقلًا.

وقال قتادة: هو زوبيل، أَكْبَرُهُمْ في السن. أخرج ذلك ابن أبي حاتم<sup>(٤)</sup>.

١٧ - ﴿وَسَلَّى الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [الآية ٨٢].

قال قتادة: هي مضر، أخرج ابن أبي حاتم<sup>(٥)</sup>، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس.

١٨ - ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [الآية ٩٤].

قال ابن عباس: وَجَدَهَا من مسيرة ستة أيام.

وفي رواية عنه<sup>(٦)</sup>: ثمانية. وفي أخرى: عشرة. وفي أخرى: من مسيرة

(١) انظر الآية (٤٢) من هذه السورة في هذا الكتاب؛ وتفسير الطبري ٤/١٣.

(٢) المبتى موافق لما في «الإتقان» ١٤٧/٢؛ وانظر «تفسير الطبري» ٦/١٣.

(٣) قال الحافظ البوصيري بعد ما ذكر أثرًا عن ابن عباس: رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده»، بتعبير يوسف عليه السلام بالسرقة: «رواه الحارث. بسند ضعيف لضعف خُصَيْف، ولا سيما فيما رواه في حق الأنبياء، وهم معصومون قبل البعث وبعد». هذا هو الحق. من هامش «المطالب العالية» ٣/٣٤٥.

(٤) انظر «تفسير الطبري» ٢٣/١٣.

(٥) «تفسير الطبري» ٢٥/١٣.

(٦) انظر «تفسير الطبري» ٣٨/١٣.

ثمانين فرسخاً. أخرج ذلك ابنُ أبي حاتم<sup>(١)</sup>.

١٩ - ﴿الْبَشِيرُ﴾ [الآية ٩٦].

قال مُجاهد: هو ابنه يهوذا. أخرجه ابنُ جرير.

٢٠ - ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [الآية ٩٨].

قال ابنُ مسعود: أخرهم إلى السحر. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

وفي حديثٍ مرفوع: إلى ليلة الجمعة. أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس.

٢١ - ﴿هَؤُلَاءِ إِلَهُ آبَائِهِ﴾ [الآية ٩٩].

هُمَا أبوه، وأمه: راحيل. أخرجه ابنُ أبي حاتم عن قتادة. وأخرج عن

السُّدِّي قال: خالته، واسمها: ليا.

٢٢ - ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رَبِّي مِنْ قَبْلُ﴾ [الآية ١٠٠].

قال سلمان: كان بين رؤياه وتأويلها أربعون عاماً.

وقال قتادة: خمسة وثلاثون عاماً. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

وأخرج عن الحسن: أن يوسفَ أُلقيَ في الجُبِّ وهو ابن سبع عشرة سنة، وعاش في العبودية والمُلْكِ ثمانين سنة؛ ثم جمع الله له شَمْلَهُ بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة.

٢٣ - ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [الآية ١٠٠].

قال عليُّ بنُ أبي طلحة: من فلسطين. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

(١) المصدر نفسه ٤١/١٣.

قلت: وقد روى الحديث أيضاً الحاكم في «المستدرک» ٣١٦/١ في كتاب الصلاة، وتعبه الذهبي فقال: «هذا حديث منكر شاذ، أخاف أن يكون موضوعاً». وقال الذهبي أيضاً في «سير أعلام النبلاء» ٢١٨/٩ في ترجمة الوليد بن مسلم، بعد أن أورد الحديث: «قلت: هذا عندي موضوع، والسلام».



## لغة التنزيل في سورة «يوسف» (\*)

إليك هذه السورة، والمقصود  
محذوف لأن قوله تعالى: ﴿يَمَّا أَوْحَيْنَا  
إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ مُغْنٍ عنه.

ويجوز أن ينتصب «هذا القرآن»  
بـ «نَقُصُّ»، كأنه قيل: نحن نَقُصُّ  
عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن  
بإحاطتنا إليك.

والمراد بأحسن الاقتصاص: أنه  
اقتُصِرَ على أبداع طريقة وأعجب  
أسلوب. ألا ترى أنَّ هذا الحديث  
مُقْتَصَرٌ في كتب الأولين، وفي كتب  
التواريخ، ولا ترى اقتصاصه في كتاب  
منها مقارباً لاقتصاصه في القرآن؟

وإن أريد بالقصص المقصود،  
فمعناه: نحن نَقُصُّ عليك أحسن ما  
يُقَصُّ من الأحاديث.

١ - قال تعالى: ﴿مَنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ  
أَحْسَنَ الْقَصَصِ يَمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا  
الْقُرْآنَ﴾ [الآية ٣].

قال الزمخشري:

القصص على وجهين: يكون مصدراً  
بمعنى الاقتصاص، وتقول: قصص  
الحديث يَقُصُّه قَصَصاً، كقولك شلله  
يُشَلِّه شَللاً، إذا طَرَدَه، ويكون «فَعْلاً»  
بمعنى «مفعول»، كالنقص والحسب.  
ونحوه الثُّبَا والخَبَر: في معنى المُتَبَأ به  
والمُخْبَر به.

ويجوز أن يكون من تسمية المفعول  
بالمصدر، كالخَلْق والصيد.

وإن أريد المصدر فمعناه: ﴿مَنْ  
نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ يَمَّا أَوْحَيْنَا  
إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾، أي: بإحاطتنا

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

يَدِيهِ، وَيُوقَعُ فِيهَا الْجَوَابُ.

ويحسن بنا أن نقول: إن المعاصرين قد اصطلحوا على القِصة الجديدة، فاتخذوها مقابلاً لـ Roman عند الإفرنج، وهي نمط أدبي شاع في عصرنا الحاضر، منذ أواخر القرن الماضي، تقليداً ومحاكاة لما عند الغربيين من هذا الفن.

وقد يقال: إنه كان للعرب حكايات ومقامات، فهل هي أصل هذا الفن الجديد؟ أو أن المعاصرين اتخذوها بداية يستوحون منها؟

الجواب: ليس شيئاً من هذا اعتمده أهل هذا العصر، الذين يكتبون «القصة المعاصرة».

وقد نشأت لديهم القصة القصيرة، وربما أقصر منها، أي: القصص، والقصة الطويلة، أي: الرواية.

۲ - وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُرُسُّ لِيَ الْإِبْرَاهِيمُ يَتِيمًا إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالْفَجْرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ﴾ قُرِئَ  
بالحركات الثلاث.

ولنبسط القول في هذه المسألة

واشتقاق «القصص» من قولهم: قصَّ  
أثره إذا أتبعه، لأن الذي يَقُصُّ الحديث  
يتبع ما حَفِظَ منه، شيئاً فشيئاً.

والْقِصَّةُ الْخَبَرُ، وهو الْقِصَصُ،  
وقِصٌّ عَلَيَّ خَبَرُهُ، وَالْخَبَرُ هو  
المَقْصُودُ.

والقِصَّةُ: الأمر والحديث،  
واقْتَصَفْتُ الحديثَ: رَوَيْتُهُ عَلَى  
وَجْهِهِ.

**والْقَصُّ: البيان، والقَصَصُ الاسم.**

والقاص: الذي يأتي بالقصة على وجهها، كأنه يتتبع معانيها وألفاظها.

والْقِصَصُ: جمع القِصَّة، (بالكسر)  
التي تُكْتَبُ.

أقول: ولما كانت القصة الخبر، أو الأمر يقصه صاحبه أو يكتبه، توصل المعربون في العصر العباسي إلى أن تكون القصة لديهم ما يكتبه صاحب الحاجة، على رقعة يقدمها إلى الخليفة، أو الأمير، أو صاحب المظالم وغيرهم من أولي الأمر، يطلب فيها حقاً له اغتصب مثلاً، أو ظلاماً أخرى لحقته. وهذه الرقعة دُعيت قِصَّة، فكان صاحب الأمر ينظر في جاسية خاصة، أو يوم مخصوص في القِصص بين

اللغوية التاريخية، فنسرد أقوال المفسرين، واللغويين الأقدمين، كما جاء بها الزمخشري في «الكشاف»، ثم نعقب القول فيها، وما يبدو لنا من هذه المواد التاريخية.

قال الزمخشري<sup>(١)</sup>: التاء في «يا أبت»، تاء تانيث وَقَعَتْ عَوْضاً من ياء الإضافة، والدليل على أنها تاء تانيث قَلْبُها هاء في الوقف.

فإن قلت: كيف جاز إلحاق تاء التانيث بالمدكر؟ قلت: كما جاز نحو قولك: حمامة ذكر، وشاة ذكر، ورجل رُبْعَة، وغلّام يَفْعَة. فإن قلت: فلم ساعَ تعويضُ تاء التانيث من ياء الإضافة؟

قلت: لأن تاء التانيث والإضافة يتناسبان، في أَنَّ كُلَّ واحدٍ منهما زيادة مضمومة إلى الاسم في آخره.

فإن قلت: فما بال الكسرة لم تَسْقُطْ بالفتحة التي اقْتَضَتْها التاء، وتبقى التاء ساكنة؟

قلت: امتنع ذلك فيها، لأنها اسم، والأسماء حَقُّها التحريك لأصالتها في الإعراب، وإنما جاز تسكين الياء،

وأصلها أن تُحَرِّكَ تخفيفاً، لأنها حرف لين. وأما التاء، فحرف صحيح نحو كاف الضمير، فَلَزِمَ تحريكها.

فإن قلت: يُشَبِّه الجمع بين التاء وبين هذه الكسرة، الجمع بين العوض والمُعَوَّض منه، لأنها في حكم الياء، إذا قلت: يا غُلام، فكما لا يجوز «يا أبتى» لا يجوز «يا أبت».

قلت: الياء والكسرة قبلهما شيثان، والتاء عوضٌ من أحد الشيتين وهو الياء، والكسرة غير متعَرِّض لها، فلا يُجْمَعُ بين العَوَّض والمعوَّض منه، إلا إذا جُمع بين التاء والياء لا غير. ألا تَرَى إلى قولهم: «يا أبتا» مع كون الألف فيه بَدَلاً من التاء، كيف جاز الجمع بينها وبين التاء، ولم يَغْدُ ذلك جمعاً بين العوض والمعوَّض منه، فالكسرة أَبْعَدُ من ذلك.

فإن قلت: فقد دَلَّت الكسرة في «يا غُلام» على الإضافة، لأنها قرينة الياء ولصيقتهما.

فإن دَلَّت على مثل ذلك في: «يا أبت»، فالتاء المعوَّضة لغو، وجودها كعدمها. قلت: بل حالها مع التاء

(١) «الكشاف»: ٤٤٢/٢ - ٤٤٣.

عوضاً من صوت مصوّت هو الياء اللينة الممدودة؛ وطبيعة هذه، تختلف كل الاختلاف عن طبيعة تلك؟

وإذا كانت هذه التاء، كما زعموا، عوضاً من ياء الإضافة، فهلاً قالوا في التاء في «رُبْتُ»، و«ثُمْتُ» أنها عوض من صوت آخر هو الياء أو غيره؟ لم يقولوا شيئاً من ذلك، وإنما أشاروا إلى زيادتها في تلك المواد.

وقالوا في التاء من «لات» في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِبْ مَنَاسِي﴾ [ص].

إنها تاء التانيث، وقيل، للمبالغة، وقيل لهما جميعاً<sup>(١)</sup>.

أقول: إذا كانت التاء للتانيث فكيف تلزم الكسر؟ وما رأينا تاءً للتانيث تلزم الكسر. وتاء التانيث يُوقَف عليها بالهاء، وقالوا إن «أَبَيْت» يُوقَف عليها فتكون التاء هاء، فهل وَقَفَ على هذه التاء فصارت هاء؟ لم يُؤَثَر شيء من ذلك.

وماذا نقول في جواز فتحها وضمها؟ ولم يؤثر عن بعضهم أنه قرأ بالفتح أو

كحالتها مع الياء، إذا قلت: يا أبي. فإن قلت: فما وجه من قرأ بفتح التاء وضمها؟ قلت: أما من فتح فقد حَذَف الألف من «يا أبتا»، واستبقى الفتحة قبلها، كما فَعَلَ من حَذَف الياء في «يا غلام»، ويجوز أن يقال: حَرَكَهَا بحركة الياء المعوّض منها في قولك: «يا أبي».

وأما من صَمَّ، فقد رأى اسماً في آخره تاء تانيث، فأجراه مُجَرى الأسماء المؤنثة بالتاء، فقال: «يا أبت» كما تقول: «يا تَيْتة»، من غير اعتبار لكونها عوضاً من ياء الإضافة.

أقول: هذا التَمَطُّ من المُعالجة يكثر عند اللغويين، حينما يعرضون لمسائل صرفية، فيرتكبون من الشطط ما يرتكبون، ويتعسفون تعسفاً في سبيل الوصول إلى ما يريدون.

قالوا: إن «التاء» في «يا أبت» عوض من ياء الإضافة في قولهم: «يا أبي».

أقول: ولِمَ كانت التاء وهي صوت ساكن CONSONNE في علم الأصوات،

(١) كيف تكون التاء في «لات» للتانيث وللمبالغة؟ هذا منطوق غريب. وقد أدرك ضعف هذا القول اللغويون، فنظروا إلى المسألة نظراً آخر، فقالوا: نزاد التاء في أول كلمة «حين» فتصبح «تحين» وكان التاء أداة تعريف، وعلى هذا تكون «لات حين» هي «لا تحين». ومثل حين «الآن» فقالوا: ثلاث.

الضم. وإذا كُسِرَتْ أو ضُمَّت فهل تكون للتأنيث؟ ولم نعرف لهذا الضرب من تاء التأنيث نظائر.

وإذا كان الأب مذكراً فما فائدة تاء التأنيث؟ وإذا قالوا لنا إن «أبت» مع التاء نظير: حمامة ذَكَرٌ، ورجلٌ رَبْعَةٌ، فالرد عليهم أن التاء في «حمامة» هي للتأنيث، ولكنها وُصِفَتْ بذكر لإبعاد التأنيث الحقيقي. أما التاء في «رَبْعَةٌ»، فهي ليست تاء تأنيث وإن كان اللفظ مؤنثاً، وهو كالتأنيث في «حمزة»، و«عرفة» من أعلام الذكور، وعلى هذا فقولهم: إن «أبت» والتاء فيها مثل حمامة ذكر، ورجل رَبْعَةٌ، قول مُتَهَاوٍ.

وأما قولهم: إن «يا أبت» هي مثل «يا أبي»، ولكن الياء امتنعت، لأن التاء عوض منها، ولا يجتمع عوض ومعوَض منه.

قلت: إن التاء ليست عوضاً، وأشرت إلى اختلاف الصوتين طَبِيعَةً ومخرجاً وحِيزاً، ولكني أقول الآن: إن الياء كأنها موجودة، اجتزى منها بالكسرة، فلم تحذف. ومثل هذا قولنا: يا قوم ويا رب، فحذفنا الياء، أي: المَدَّ الطويل، واجتزأنا منه

بالحركة القصيرة، التي هي شيء من الياء اللينة، وهذا يعني أن «يا قوم» هي «يا قومي»؛ وقُصِّرَ المَدُّ يُوْذِي غرضاً صوتياً، هو تخفيف الطول.

إذن فكيف نقول الآن في «يا أبت»، بعد أن بينا ضعف الأقوال الصرفية، المتكلفة التي يرفضها العلم اللغوي من نواح عدة.

أقول: إن «التاء» في «يا أبت» زيادة، وهذه الزيادة قد كانت من إحساس العربي القديم، أن الأسماء الثنائية أسماء ناقصة، فلا بد من أن تكون ثلاثية، ألا ترى أنهم في الجمع والنسب والتصغير جعلوا: «شَفَّة»، و«سِنَّة»، و«أب»، و«أم»، كلمات ثلاثية، فجاءوا بالواو تارة، وبالياء تارة أخرى، فقالوا: سَنَوَات، وَسَنَهَات، وَسَنَوِي، وَسَنِيَّة، وَسَفَوِي، وَسَفَهِي، وشَفَاه، وشَفَهِيَّة، وآبَاء، وأُمَّهَات، وَأَبَوِي، وَأُمُوِي.

وإذا زِيدَت التاء في «أب» على هذا النحو في اللغة القديمة، فقد زِيدَت في «رب»، و«ثُمَّ»، و«ثُمَّ»، على أنها صارت ثلاثية بالتضعيف. وإلى هنا أمل أن تكون المسألة قد اكتسبت الإيضاح الكافي.

٣ - وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [الآية ٤].

القول في «رأيت»، أي: رأى في نومه حلمًا.

الفعل رأى في العربية، يكون رؤية ورأياً بالعين، ويكون رأياً بالعقل، بمعنى عَلِمَ واعتقد، كقولهم: فلان يرى العقل خير سلاح، ويكون رأى رؤيا في النوم، كما في الآية. ويفرق بينها في المصدر. كما بينا.

٤ - وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْئِلُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [الآية ٦].

ما التأويل؟

التأويل في الآية هو «تأويل الأحاديث»، والأحاديث الرؤيا، وتأويلها عبارتها وتفسيرها، وكان يوسف (ع) أعبرَ للرؤيا وأصحهم عبارة لها؛ ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث؛ معاني كتب الله وسنن الأنبياء.

وفي التنزيل: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاكَ﴾ [الآية ١٠٠]، أي: عبارتها.

وقال أهل اللغة: التأويل تفسير ما

يؤول إليه الشيء، وقد أولته تأويلاً وتأولته بمعنى.

وأما قول الله - عز وجل -: ﴿مَنْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف/٥٣].

فقال أبو إسحاق: معناه، هل ينظرون إلا ما يؤول إليه أمرهم من البعث.

وهذا التأويل هو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَكْمِلُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [ال عمران/٧]، أي: لا يعلم متى يكون أمر البعث. أقول: هذا هو التأويل في القرآن، فأين نحن منه الآن؟

التأويل في لغة عصرنا يعني التفسير والشرح بشيء خاص، وهذا الشيء الخاص قد يجعل للمسألة تفسيرين أو أكثر، وإن منها ما فيه افتئات على الحقيقة.

وكان التأويل أحياناً في استعمال المعاصرين، ضرب من التحريف والتزوير المقبول على علاقته، ولم يفتن المعاصرون إلى أن «التأويل»، هو الرجوع إلى «الأول».

٥ - وقال تعالى: ﴿أَقْنَلُوا يُوسُفَ أَوْ أَمْرَهُهُ أَرْضًا يَحِلَّ لَكُمْ وَجْهَ أَيْكُمُ﴾ [الآية ٩].

قوله تعالى: ﴿يَحْتَلِّ لَكُمْ وَتَهُ آيَاتُكُمْ﴾ أي: يُقْبَلُ عليكم إقبالة واحدة، لا يلتفت عنكم إلى غيركم. والمُراد سلامة محبته لهم، ممن يشاركونهم فيها وينازعونهم إياها.

أقول: وهذا من مجازات القرآن البديعة، واستعمال الوجه وخلوه، لمعنى الإقبال من كون الرجل يُقبل بوجهه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَوَيْتَنَ وَتَهُ رَوَيْكَ﴾ [الرحمن/٢٧].

٦ - وقال تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقُولُوا يُوسُفَ وَالْقَوْءُ فِي غَيْبَتِ الْحَبِي يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ قَائِلِينَ﴾ [١٥].

المعنى: بعض السيارة، أي: بعض الأقسام الذين يسيرون في الطريق. بالتاء على المعنى، لأن بعض السيارة سيارة.

وُثِرِي: «تلتقطه» بالتاء على المعنى، لأن بعض السيارة سيارة.

أقول: وعلى هذا تكون «بعض» دالة على الجمع، وليس الواحد، كما ذهب غير واحد من أهل عصرنا.

ثم إن «السيارة» اسم جمع، وبناء «فقاله» من أبينية الجمع القديم،

كالبغالة، والجمالة، والخمارة لأصحاب البغال والجمال والحمير، ومنه الرجالة، والجلابة، والميارة.

أقول: وهذا بناء من أبنية الجمع القديم، ولا سيما لأصحاب الحرف كالطَّحانة، والدُّقانة، والصُّبَاغة، وغيرهم، للعاملين في حِرَف الطحن للحبوب، والعاملين في بيع الدهان، والعاملين في الصباغة.

وما زال هذا الجمع واسع الاستعمال في العربية السائرة، كالسَّفَاكة لباعة السَّمَك، والسَّفَاة للعاملين في السفن، والحصانة لأصحاب الخيل، وغير ذلك كثير.

٧ - وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ [الآية ١٧].

والمعنى: وما أنت بمُصَدِّق لنا.

أقول: وهذا غير بعيد من «المؤمن»، وهو واحد المؤمنين، كالمؤمن بالله فهو مُصَدِّق لله، مُقِرُّ بحقيقته، وعدله، ووحدانيته، وسائر صفاته، جل شأنه.

٨ - وقال تعالى: ﴿وَيَأْمُرُ عَلَى قَبِيحِهِ بِدَرٍ كَذِبٍ﴾ [الآية ١٨].

والمعنى: بدم ذي كَذِبٍ. أو وصف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب

وعينه، كما قالوا للكذاب: هو الكَذِبُ بعينه والزور بذاته<sup>(١)</sup>.

أقول: وقولهم: شاهد عَذْل، هو من هذا الباب، أي شاهد ذو عَذْل، أو من باب الوصف بالمصدر مبالغة، كما قلنا في الآية.

٩ - وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَآتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الآية ٢٢).

أي: آتياه حكمةً وعِلماً.

ودلالة الحكم على الحكمة، مما أثبتته لغة التنزيل، وذلك لأن «الحكم» في غير لغة القرآن قد يفيد الحكمة، ولكنه نادر كل النادرة؛ والغالب فيه مصدر الفعل «حَكَمَ»، وهذا الفعل مشهور معروف في دلالاته الكثيرة.

١٠ - وقال تعالى: ﴿وَزَوَّدْتُهُ الْآنُ هُوَ فِي بَيْتِهِمَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأُتُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوًى﴾ (الآية ٢٣).

المُرَاوَدَةُ: مُفاعلة من «رَادَ يَرُوْدُ»، إذا جاء وذَهَبَ، كأنَّ المعنى: خَادَعَتْهُ عن نفسه، أي فَعَلَتْ ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء، الذي لا يريد أن يُخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه،

ويأخذه منه، وهي عبارة عن التحمل، لمواقفته إياها.

أقول: وغلبت «المُرَاوَدَةُ» على محاولة خداع المرأة، لأجل النيل من شرفها وعفتها، وذلك لأن المعربين لم يعرفوا استعمالات راوَدَ الأخرى، التي تبتعد عن هذه المحاولة الدنيئة، وهذا الضيق في المعنى من سمات لغة العصر.

ومن هذه الدلالات لهذا الفعل، قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَزَوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ (١١).

والمراودة هنا هي المخادعة أيضاً، ولكنها لا تتصل بالاعتداء على العفة والشرف، كما رأينا في الآية: ٢٣.

والمراودة هنا في هذه الآية الأخيرة، هي ضرب من الاجتهاد والاحتيال، لانتزاع إخوة يوسف لأخيهم، الذي سأل عنه يوسف، وهو أخو يوسف وشقيقه «بنيامين».

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّقَتْ الْأُتُوبَ﴾ قيل: كانت سبعة، ومن أجل كثرة الأبواب استعمل الفعل المضاعف، فالتضعيف يفيد الكثرة.

(١) «الكشاف»: ٤٥١/٢.

و«فَتَيْتَ» قُرئ بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء، وبناءه كبناء أَيْنَ وَعَيْطٌ.

و«فَتَيْتَ» كَجَبَرٍ. وَهَيْتُ كَحَيْثُ. وَهَيْتُ بِمَعْنَى تَهَيَّأْتُ، وَيُقَالُ: هَاءُ يَهْيَاءُ، مِثْلُ جَاءَ يَجِيءُ: إِذَا تَهَيَّأَ. وَهَيْتُ لَكَ.

وَأَمَّا فِي الْأَصَوَاتِ فَلِلْبَيَانِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَكَ أَقُولُ هُنَا، كَمَا نَقُولُ: هَلُمُّ لَكَ.

أَقُولُ: لَعَلِّي أَمِيلُ إِلَى تَفْسِيرٍ مِنْ يَقُولُ هَيْتُ بِمَعْنَى تَهَيَّأْتُ، فَهَذَا تَفْسِيرٌ يُوَيِّدُ مَا نَعْرِفُ مِنْ مَعَانِي الْفِعْلِ «هَيَّا»، فَهُوَ يَفِيدُ «الْكُونُ» وَ«الْوُجُودُ» كَمَا فِي مَادَّةِ «هَيْثَةَ» فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَهِيَ بِهَذَا الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ الْعِبْرَانِيَّةِ، وَمَعْنَى «هَيْتُ»، أَيُّ: كُنْتُ وَوُجِدْتُ أَيُّ: «هَإِنَّا ذَا».

١١ - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْءُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَمَاهُ رَبُّهُنَّ رَبِّيُ﴾ [الْأَبْسَةُ: ٢٤].

هَمُّ بِالْأَمْرِ إِذَا قَصَّذَهُ وَعَزَمَ عَلَيْهِ، قَالَ:

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْسَنِي تَرَكْتُ عَلَى غُثْمَانٍ تَبْكِي خَلَابِلُهُ وَمِنْهُ قَوْلُكَ: لَا أَفْعَلْ ذَلِكَ وَلَا كِيدًا

وَلَا هَمًّا، أَيُّ وَلَا أَكَادُ أَنْ أَفْعَلَهُ كِيدًا، وَلَا أَفْعَلُ بِفَعْلِهِ هَمًّا.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْءُ﴾، أَيُّ: هَمَّتْ بِمُخَالَطَتِهِ، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أَيُّ وَهَمَّ بِدَفْعِهَا عَنْهُ.

أَقُولُ: إِنْ فَعَلَ الْهَمُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى امْرَأَةٍ الْعَزِيزِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَعْنِي الْقَصْدَ وَالْعَزِيمَةَ عَلَى فَعْلِ الشَّرِّ، وَلَعَلَّ انْصِرَافَ «الْهَمِّ» إِلَى الْقَصْدِ إِلَى الشَّرِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قَدْ حَمَلَ الضَّمُّ عَلَى «الْهَمِّ» فِي مَعْنَاهِ الْعَامِّ، وَهُوَ الْقَصْدُ دُونَ أَنْ يَعْيُنَ مَسْرَاهُ، أَشَرُّ أُرِيدَ بِهِ أَمْ خَيْرٌ. وَهَذَا الْانْصِرَافُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا لَدَى غَيْرِ الْعَافِرِينَ بِمَعَانِي الْعَرَبِيَّةِ.

وَفِي اللُّغَةِ الْمَعَاصِرَةِ، الْكَثِيرُ مِنْ هَذَا النُّوعِ الَّذِي تَنْصَرِفُ فِيهِ الْمَادَّةُ اللَّغَوِيَّةُ إِلَى شَيْءٍ خَاصٍّ لَمْ يَكُنْ لَهَا فِي الْحَقِيقَةِ، إِلَّا تَرَى أَنْ قَوْلَ الْمَعَاصِرِينَ: إِنْ هَذَا الشَّيْءُ مُمْتَازٌ، يَرِيدُونَ بِهِ الْجِدَّ وَالْغَايَةَ فِي الْجُودَةِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُمْتَازٌ بِصِفَةِ أَوْ بِشَيْءٍ، قَدْ يَكُونُ حَسَنًا وَقَدْ يَكُونُ غَيْرَ حَسَنٍ.

١٢ - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ [الْأَيَةُ ٢٥].

وَالْمَعْنَى: وَتَسَابَقَا إِلَى الْبَابِ عَلَى

حذف الجار وإيصال الفعل، كقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ مَوْسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف/ ١٥٥] على تضمين «استبقا» معنى «ابتدرا».

أقول: وليس لنا في العربية المعاصرة الفعل «استبق»، أي: سابق، والثاني هو المتداول المتعالم.

١٣ - ﴿وَقَالَ يَسُوهُ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرِيدُ فَتَنَّا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [الآية ٣٠].

قالوا: النسوة اسم مفرد لجمع المرأة، وتانيثه غير حقيقي كتانيث اللمة، ولذلك لم تلحق فعله تاء التانيث.

أقول: لا أرى أن النسوة اسم مفرد لجمع المرأة، والذي أراه أنه جمع؛ وهو على أبنية الجمع نظير نساء سواء بسواء.

وأما مسألة عدم لحوق تاء التانيث للمفعول، فهذا يتصل بلغة القرآن التي ورثت خصائص العربية. ومن خصائص العربية التاريخية، أن علامة التانيث فيها لم تأخذ مكانها الثابت، ومن أجل إثبات هذه الحقيقة التاريخية، تعالوا معنا لنستقري كلمة

«طائفة» في لغة التنزيل لتبين لحوق تاء التانيث وعدمه؛ قال تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُثْلِفُونَكُمْ﴾ [آل عمران/ ٦٩].

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُونَا﴾ [آل عمران/ ٧٢].

﴿فَلَقِمْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَمَكًا﴾ [النساء/ ١٠٢].

﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَوْ يُصَلُّوا﴾ [النساء/ ١٠٢].

﴿وَلِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُزِيلَتْ يَوْمًا﴾ [الأعراف/ ٨٧].

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة/ ١٢٢].

﴿وَطَائِفَةٌ لَوْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف/ ٨٧].

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [آل عمران/ ١٥٤].

فأنت تجد أن التاء لحقت الفعل في آيات، وعزى الفعل عنها في آيات أخرى، كما تجد آيات أخرى أسند الفعل فيها إلى ضمير الجمع المذكر؛ وهو من غير شك، مراعاة للمعنى، على جهة التغليب للمذكر.

وإذا قرأنا قوله تعالى:

﴿وَلَيْنَ كَايِفَتَايَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَنُوا فَأَصْلَحُوا بِهِنَّ﴾ [الحجرات/٩].

فالمرعاة في هذه الآية لجمع الذكور في قوله تعالى: ﴿أَفْتَنُوا﴾، ثم جاء قوله تعالى: ﴿فَأَصْلَحُوا بِهِنَّ﴾ فعاد ضمير الاثنين مراعاة للفظ المثني، وهو «طائفتان».

أقول: هذا كله من خصائص هذه اللغة الشريفة، التي سجلت الكثير من خصائص هذه اللغة التاريخية.

١٤ - وقال تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [الآية ٣٠].

قوله تعالى: ﴿شَغَفَهَا﴾، أي خَرَقَ حُبُّهُ شَغَافَ قَلْبِهَا، حتى وصل إلى الفؤاد، والشَّغَاف حجاب القلب، قال قيس بن الخطيم:

إني لأهراق غبير ذي كذب  
قد شَفَ مني الأحشاء والشَّغَفُ  
وقال النابغة:

وقد حال همٌ دون ذلك والنج  
مكأن الشَّغَاف تَبَتَّغِيهِ الأصابع  
وقرئ: شَغَفَهَا بمعنى تَيْمَمَهَا، وشَغَفَهُ الهَوَى إذا بَلَغَ منه، وفلان مَشْغُوفٌ

بفلانة، وقراءة الحسن: شَغَفَهَا، بالعين المهملة، هو من قولهم: شَغِفْتُ بها، كأنه ذَهَبَ بها كُلُّ مَذْهَبٍ.

وشَغَفَهُ الحُبُّ: أحرَقَ قلبه، وقيل: أَمْرَضَهُ.

وقال الليث: وشَغَفَهُ القلب: رأسه عند مُعَلِّقِ الثَّيَاطِ.

أقول: إذا كان الفعل بالغين المعجمة، فأصله من «شَغَاف القلب» أي: حجابُه، وإذا كان بالعين المهملة، فأصله من «شعفة القلب» أي رأسه، وفي كلا الوجهين، بَرَعَتِ العربية في توليد الأفعال، ذات الدلالات المعنوية العقلية، من الأصول الحسية.

١٥ - وقال تعالى: ﴿تَدَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُتُنَّهُمْ حَتَّى يَجِئَ الشَّعْبُ﴾.

قوله تعالى: ﴿تَدَّ بَدَا لَهُمْ﴾ فاعله مضمر، لدلالة ما يفسره عليه، وهو: ﴿لِيَسْجُتُنَّهُمْ﴾، والمعنى:

بَدَا لَهُمْ بَدَاءٌ، أي: ظَهَرَ لَهُمْ رَأْيٌ فقالوا لِيَسْجُتُنَّهُ، والضمير في «لهم» للعزير وأهله.

ومن هذا قولهم: وبدا لي بداء، أي: تَقَيَّرَ رأيي على ما كان عليه.

أقول: وليس من هذا قول المعاصرين: وبدا لي أن أفعل كذا وكذا، ويبدو لي أن الأمر كذا وكذا، فالفاعل فيها ظاهر، وهو المصدر من أن والفعل، وأن واسمها وخبرها.

١٦ - وقال تعالى: ﴿وَأَنبِئْهُمْ مَّا كَانَ آبَاءُكَ يَفْعَلُونَ إِذْ أَتَوْهُم بِبَنَاتِكُمْ فَأَغْوَاهُمْ فَاصْطَفَىٰ بَنَاتَهُنَّ لِيَفْجُرْنَ فِيهَا وَالْأَفْجَارُ مِن دُونِهَا تُسَقَّىٰ بَٰرِدًا مُّضًّىٰ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ أَرْبَابٍ مُّنتَظَرِينَ إِذْ يَصُوبُونَ إِلَيْهِ الْأَفْجَارُ أَثَارُ الْآبَارِ الَّتِي يَنْقُوعُ فِيهَا السَّيِّئَاتُ الْأَفْجَارُ أَمْثَلُ الْآبَارِ الْأَفْجَارُ أَثَارُ الْآبَارِ الْأَفْجَارُ أَثَارُ الْآبَارِ﴾ [الآية ٣٨].

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَنَا﴾ أي: ما صَحَّ لنا معشر الأنبياء، أن نشرك بالله.

أقول: وهذا من معاني «كان»، وقد مررنا بنظيره في آيات أخرى.

١٧ - وقال تعالى: ﴿مَّا تَقْبَلُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَبَّيْتُمُوهُمَا أَنَّتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [الآية ٤٠].

قوله تعالى: ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما أنزل الله بتسميتها من حُجَّةٍ.

أقول: أساء المعاصرون استعمال هذه الآية، واقتباسها في مواطن يمتنع اقتباسها امتناعاً مطلقاً، فيقولون مثلاً: هذه أخبار ما أنزل الله بها من سلطان، أي: محض كذب وباطل.

والكذب والباطل لا يمكن بأي حال

أن يُنْزَلَ بها حجة من الله، وليس هذا كحال الأمم السالفة، التي أشار إليها الله في آياته، فقد كانوا يعبدون أصناماً وأوثاناً، ما أنزل الله بها حُجَّة، توجب عبادتها، فليس هذا مثل ذلك.

١٨ - وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُبُلُكَيْنِ﴾ [الآية ٤٣].

القول في هذه الآية على «البقرات» والسُّبُلَات واليابسات» فكلمها جمع مؤنث بالالف والتاء، وهذا الجمع من الجموع التي تنصرف إلى القلة في الغالب. أقول في الغالب، لأنه قد يأتي من الأسماء المؤنثة وغيرها، ما لا يجمع إلا بالالف والتاء، فلا يمكن في هذه الحالة أن ينصرف إلى القلة إلا بقرينة كالعدد وغيره، فإذا قلنا مثلاً: حمامات، فهي جمع كثرة إلا إذا قلنا: سبع حمامات. أما الجموع في الآية، فهي للقلة من غير أن تكون مقيدة بالعدد «سبع»، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشْبَهُ عَلَيْنَا﴾ [البقرة/٧٠].

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَسْرِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمُ شُهُومَهُمَا﴾ [الأنعام/١٤٦].

ولو أريد الكثرة أيضاً لقليل «سنايل»،

إلا أن تقيد «السنابل» بعدد كما جاء في الآية :

﴿كَثَلْ حَبَّةَ أَثْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾  
[البقرة/ ٢٦١].

١٩ - وقال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرِّئَايَا  
تَعْبُرُونَ﴾.

و: «تعبرون» للرؤيا.

قالوا: عَبَرَ الرُّؤْيَا يَعْبُرُهَا عَبْرًا  
وعبارةً، وَعَبَرَهَا: قَسَرَهَا، وَأَخْبَرَ مَا  
يُؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرَهَا.

وعُذِّي الفعل باللام في الآية ، كما  
فسي: ﴿قُلْ عَمَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾  
[النمل/ ٢٧٢]. أي: رَدَفَكُمْ.

وقال الزجاج: هذه اللام أَدْخَلَتْ  
على المفعول للبتين، والمعنى إن كنتم  
تعبرون وعابرين، وتسمى هذه اللام  
لام التعقيب، لأنها عَقَبَتْ بالإضافة.

وقال الجوهري: أصل الفعل باللام،  
كما يقال: إِنْ كُنْتَ لِلْمَالِ جَامِعًا.

أقول: وجيء بهذه اللام، لأن  
المفعول قد تقدّم الفعل، وهذا يحسن  
في كل جملة، حصل فيها هذا  
التقديم، ألا ترى أنك تقول: إِنِّي

للخبز آكلٌ، وعلى هذا يكون ما قاله  
الجوهري سديدًا؛ ولعل اللام قد جيء  
بها، لأن المفعول معترف بالألف  
واللام، وهذه اللام تقوّي المفعولية.

٢٠ - وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ بِمَثَافِئِ  
﴾ [الآية ٤٥].

قُرئ: ﴿وَأَذْكُرْ﴾ بالذال.

قال الزمخشري، وهو الفصح<sup>(١)</sup>.

وكان ينبغي أن يكون جواب  
الزمخشري: أن «أَذْكُرَ» بالذال هي  
القراءة المشهورة، والقراءة سُنَّةٌ متبعة،  
فقد تخرج عن المشهور الشائع من  
الأبنية والأفيسة.

وقال الزمخشري: إن أصل «أَذْكُرَ»  
هو «تَذَكَّرَ»، والصحيح أن الأصل هو  
«أَذْكُرَ» أي: أن الفعل «ذَكَّرَ» قد بُنِيَ  
على «افْتَعَلَ»، فيكون «أَذْكُرَ»، فيبدل  
من التاء دالاً، فيكون «اذكرك»، كما  
تقول في «رَحِمَ» ازدحم. وقد يحصل  
الإدغام، أي: إدغام الذال في الدال،  
فيكون «أَذْكُرَ»، كما تقول «ادّعى»،  
والأصل «ادّعى». فأما أن يدغم  
«الدال» الذي أصله التاء في الذال،

(١) «الكشاف» ٢/ ٤٧٥.

ويكون «أَذْكَرَ» فهو شيء لا نعرفه إلا في «أَذْخَرَ»، والأصل «ذَخَرَ».

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ أَتَوَّعٍ﴾، أي: بعد مدة طويلة، وكما تكون الأمة قوماً وتكون زمناً، ومثله القرن والجيل، وغير ذلك.

٢١ - وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يُعْصِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾ من الغوث أو من الغيث، يقال غِيثَتِ البلاد إذا مُطِرَتْ. هذا هو قول الزمخشري.

ولنبسط القول في هذه الكلمة المفيدة.

يقال: غَاثَ الغَيْثُ الأرضَ: أصابها، ويقال: غاثهم الله، وأصابهم غَيْثٌ، وغَاثَ الله البلادَ يَغِيثُهَا غَيْثاً إذا أنزل بها الغيثَ.

ومنه الحديث: فاذُعُ الله يَغِيثُنَا (بفتح الياء).

وَعَيَّثَ الأرضَ، تُغَاثُ غَيْثاً، فهي مَغِيْثَةٌ ومَغِيْثَةٌ: أصابها الغَيْثُ. وَغَيْثُ القَوْمِ: أصابهم الغيث.

قال الأصمعي: أخبرني أبو عمرو بن

العلاء، قال: سمعتُ ذا الرُّمَّة يقول: قَاتَلَ اللهُ أُمَّةَ بني فلانٍ، ما أَفْصَحَهَا! قلت لها: كيف كان المطر عندكم؟ فقالت: غَشْنَا ما شِئْنَا.

أقول: هذا هو معنى الغيث، وهو المطر يُراد به الرحمة والخير والحياة، ومن هنا صارت العربية إلى الغوث ومنه الإغاثة، والغوث بمعنى النجدة والمعونة والمساعدة. وكأَنَّ التحول من الياء إلى الواو، وسيلة، لاستحداث معنى جديد، بينه وبين الأصل القديم وشيجة رَجِمَ. ألا ترى أن من هذا بَيْنَ وبُون، وَعَيْنَ وعَوْن، وغير هذا.

أما قوله تعالى: ﴿يُعْصِرُونَ﴾، فقد ذكر الزمخشري، أنهم يعصرون العُثْبَ والزيتون والسُّنْسَم.

أقول: ومن قَرَأَ «يُعْصِرُونَ» بالبناء إلى المفعول كانت قراءته وجيهة، وهو من عَصَرَهُ إذا أنجاه، وهو مطابق للإغاثة. ويجوز أن يكون المبني للفاعل بمعنى ينجون، كأنه قيل: يُغَاثُ الناس وفيه يغيثون أنفسهم، أي: يُغِيْثُهُمُ اللهُ، ويغيث بعضهم بعضاً.

وقيل: «يُعْصِرُونَ» يُمَطِّرُونَ، من

٢٤ - وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ أَلِيمٌ لَّدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَكِينٌ﴾ أي: ذو مكانة.

وهذه من باب الاشتقاق من الاسم، فكلمة «مكان» هي الأصل الذي جاء منه هذا الوصف، وجاء منه جميع ما يتصل بهذه الكلمة من فعل واسم مثل: مَكْنٌ، ويمكن، وأمكن، وإمكان، ومُكْنَةٌ، ومكن، وتمكين وغير ذلك.

أقول: إن «المكان» أصل في جميع ما يتصل بهذه المادة، لمنزلة «المكان» في العربية فكراً، وواقعاً، وسلوكاً.

ومن المفيد أن نُشير إلى أن «المكان» جاء من «الكون»، بمعنى الوجود والهيئة، ولمنزلته التي أخذها في تفكير العرب، صار أصلاً لحاجات كثيرة.

٢٥ - وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالُوا أَتُوقُونَ أَيَّامَ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ﴾ [الآية ٥٩].

أقول: أراد الجهاز عُدَّة السفر من الزاد، وما يحتاج إليه المسافرون من الميرة. والجهاز بهذا المعنى غير معروف في العربية الفصيحة المعاصرة، ولكن شيئاً منه معروف في عامية

أعصرت السحابة. وفيه وجهان: إما أن يُضْمَنَ أعصرت معنى مُطرت، فيُعْدَى تعديته، وإما أن يقال: الأصل أعصرت عليهم، فحذِفَ الجار، وأوصل الفعل.

أقول: وبين قوله تعالى: ﴿يَعَاثُ﴾، وقوله: ﴿يَعْمِرُونَ﴾ على الوجهين حُسْنُ مناسبة فيها إصابة للمعنى.

٢٢ - وقال تعالى: ﴿أَلَفَنَّا حَصَصَ الْحَقُّ﴾ [الآية ٥١].

وقوله تعالى: ﴿حَصَصَ الْحَقُّ﴾ أي: بُتِّ واستقر.

٢٣ - وقال تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَنَازِلٌ بِالشُّرُوءِ إِلَّا مَا رَجَعُ رَبِّي﴾ [الآية ٥٣].

قالوا في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَجَعُ رَبِّي﴾، إلا البعض الذي رَجَعَهُ رَبِّي بالعصمة، كالملائكة.

ويجوز أن يكون «ما رَجَعُ» في معنى الزمن، أي: إلا وقت رحمة ربي، يعني أن النفس أنارة بالسوء في كل وقت وأوان.

أقول: وهذا الوجه الأخير حسن، وهو أن يثبت أنه قد يُلْمَح إلى وجه من وجوه استعمال «ما»، هذا الوجه المبهم الذي يفيد الزمن.

[بعض البلاد العربية]<sup>(١)</sup>، فهم يقولون: جَهَّاز العروس لما تزود به من أمتعة، وأثاث، ورياش، وملبس وغير ذلك، وكان الكلمة أو شك أن يمنحي ظلها. ولكننا في عصرنا نقول: الجهاز الإداري، والجهاز الفني في الحكومة وغير ذلك، وهذا كله من العربية الجديدة. على أن «الجهاز» بكسر الجيم من أسماء الأدوات والآلات في العصر الحديث، فالجديد من المخترعات الميكانيكية يسمى كله جهازاً، وجمعه أجهزة.

وهذا مؤلَّد جديد بُني على «فعال» جرياً على كثير من آلتهم وأدواتهم.

٢٦ - وقال تعالى: ﴿وَيَبْدُرُ أَهْلُنَا﴾ [الآية ٦٥].

والميرة الطعام يمتاره الإنسان. وجلب الطعام للبيع.

وقالوا: وهم يمتارون لأنفسهم، ويميرون غيرهم ميراً.

أقول: وقد ورث العراقيون أصولاً عربية في العصر الحديث، مم استعمله الأتراك في الشؤون العسكرية، فكان

في تنظيمات الجيش العراقي مديرية الميرة.

٢٧ - وقال تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْفِقًا مِنْ اللَّهِ﴾ [الآية ٦٦].

أقول: اجتزئ بكسرة النون عن الباء في «تؤتوني»، وذلك أحفل في السماع في التلاوة المستجادة، من المذ الطويل الذي يكون في الباء.

لقد مرت بنا نظائر لهذا الاجتزاء بالكسرة، وكان آخرها قوله تعالى:

﴿فَإِنْ لَرَّ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كِبَلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونَ﴾ [١٦].

ولكن السبب في هذا الاجتزاء بالكسرة، في هذه الآية، أنها فاصلة، وآخر كلمة في الآية يحسن الوقف عليها، فتطوى الكسرة، ويبقى النون ساكناً.

ومثل هذا كثير في الوقف.

٢٨ - وقال تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَهِشْ يَمَا كَاثِرًا يَعْمَلُونَ﴾ [٢٨].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَهِشْ﴾ معناه فلا تحزن ولا تستبكن.

(١) في الأصل «أهل العراق المعاصرة».

ابتأس الرجل، إذا بَلَغَ شيء يكرهه .  
وليس بعيداً أن يكون الفعل ابتأس  
بهذه الدلالة، إذا كان البأس هو الشدة  
والعذاب والحرب، والبأساء كالبؤس  
أيضاً .

٢٩ - وقال تعالى: ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ  
الْمَلِكِ﴾ (الآية ٧٢) .

قالوا: الصُّوع هو السُّقاية التي  
وردت في الآية التي قبلها في قوله  
تعالى: ﴿قَلْنَا جَهَنَّهُمْ بِجَهَنَّا جَمَلًا  
السُّقَايَةَ فِي رَتلٍ أَخِيهِ ثُمَّ أَدْنَى مَوْزَنُ أَيْتُهَا  
الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ (٧٢) قَالُوا وَأَقْبَلُوا  
عَلَيْهِمْ مَاذَا نَفَقْدُونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا نَفَقْدُ  
صُوعَ الْمَلِكِ﴾ .

والسُّقاية، هي المَشْرَبَة التي كان  
يَشْرَب منها الملك، ثم جُعِلَ صاعاً في  
السنين الشُّداد القحاط، يُكَال به  
الطعام .

وقرأ أبو هريرة: نَفَقْدُ صَاعِ الْمَلِكِ .

وقرأ يحيى بن يعمر: صُوعُ الْمَلِكِ .

وقرأ سعيد بن جبیر: صُوعِ الْمَلِكِ .

أقول: والقراءة بالعين مرةً وبالغين  
أخرى، دليل تعاقب الصوتين في طائفة  
من كلمات العربية، مسايرة للغات  
الخاصة، وهو ما ندعوه بـ «اللهجات»  
في عصرنا، وسيأتي من هذا الباب  
قراءات في آيات أخرى سنشير إليها .



## المعاني اللغوية في سورة «يوسف» (\*)

بجعل (ما) اسماً للفعل وجعل (أَوْحَيْنَا) صلة.

وقال تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ﴾ [الآية ٤] بتكرير الفعل وقد يستغنى بأحدهما. وهذا على لغة الذين قالوا «ضَرَبْتُ زَيْدًا ضَرْبَتَهُ»، وهو تأكيد مثل قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَتَعْمُونَ﴾ [الجن ١٥] وصر [٧٣].

وأما قوله تعالى ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ﴾ فإن السياق لما جعلهم كمن يعقل في السجود والطواعية، جعلهم كالإنس في تذكيرهم، إذا

قال تعالى: ﴿إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [الآية ٥١] وقال بعض أهل العلم: «إنهن راودنه لا امرأة الملك»، وقد يجوز، وإن كانت واحدة أن تقول (راوَدْتُنَّ) كما ورد في التنزيل: ﴿إِنَّ أَتَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران/ ١٧٣] ها هنا واحد، يعني بقوله تعالى ﴿لَكُمْ﴾ النبي (ص) «أبا سُفْيَانَ» فيما ذكروا.

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ [الآية ٢٤]، فلم يكن هم بالفاحشة، ولكن دون ذلك مما لا يقطع الولاية.

وقال تعالى: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الآية ٣] أي ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [الآية ٣] بوحينا ﴿إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ [الآية ٣] (١)

(\*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) نقله في إعراب القرآن ٤٩٩/٢.

جمعهم، كما في قوله تعالى ﴿عَلَّمَنَا مِطْقَ الظُّلَمِ﴾ [النمل/١٦]. وقال الشاعر [من الخفيف، وهو الشاهد الثالث والثلاثون بعد الميتين]:

ضدّها منطِقُ الدُّجَاجِ عَنِ الْقَضْ

بِ وَضُرْبِ النَّاقُوسِ قَاجُنْبِ

وقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْلُ أَدْعَاؤُا مِّنْكَتَمٍ﴾ [النمل/١٨] اذ تكلمت نملة فصارت كمن يعقل وقال سبحانه ﴿فِي فَلَكَ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء/٣٣ ويس/٤٠] لما جعلهم يطيعون، شبههم بالإنس، مثل ذلك أيضاً قوله تعالى ﴿قَالَتْ أَيْنَمَا طَائِفَتٌ مِّنَ الْبَنِيِّ﴾ [نضلت/١١] على هذا القياس، بالتذكير، وليس مذكراً كما يذكر بعض المؤنث. وقال قوم: إنما قال تعالى ﴿طَائِفَتٌ مِّنَ الْبَنِيِّ﴾ لأنهما أتا وما فيهما، فتوهم بعضهم «مذكراً» أو يكون كما قال سبحانه ﴿وَسَتِلِ الْقَرْيَةَ﴾ [الآية ٨٢] وهو يريد أهلها. وكما تقول «صلى المسجِدُ» وأنت تريد أهل المسجِد، إلا أنك تحمل الفعل على

الآخر، كما قالوا: «اجتمعت أهل البيامة» وقال تعالى ﴿وَمِنْ مَّآثِرِهِ الْقِيلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [نضلت/٣٧] لأن الجماعة، من غير الإنس مؤنثة. وقال بعضهم «لِلَّذِي خَلَقَ الْآيَاتِ» ولا أراه قال ذلك، إلا لجهله بالعربية. قال الشاعر<sup>(١)</sup> [من البسيط، وهو الشاهد الرابع والثلاثون بعد الميتين]:

إِذْ أَسْرَفَ الدِّبْكُ يَدْعُو بَعْضَ أَسْرَفِهِ

إلى الصُّبْحِ وَهُنَّ قَوْمٌ مُّعَاذِلٌ<sup>(٢)</sup>

فجعل «الدجاج» قوماً في جواز اللغة. وقال الآخر وهو يعني الذيب [من الطويل، وهو الشاهد الثاني والثلاثون بعد الميتين]:

وَأَنْتَ أَمْرٌ تَغْدُو عَلَى كُلِّ غِرَّةٍ

فَتُخْطِئُ فِيهَا مَرَّةً وَتُصِيبُ

وقال الآخر [من الرجز، وهو الشاهد الخامس والثلاثون بعد الميتين]:

(١) هو عبدة بن الطيب؛ شعر عبدة بن الطيب ٧٩، والاختبارين ٩٩، والمفضليات ١٤٣، واللسان «عزل».

(٢) في الصاحبي ٢٥١ «إلى الصباح» وكذلك في الصحاح «عزل» واللسان أيضاً وفي الاختبارين وفي شعره أيضاً: «الذي الصباح».

فَصَبَّحْتَ وَالطُّيُنُزُ لَمْ تَكَلِّمْ  
جَابِيَةً<sup>(١)</sup> طُمْتُ بِسَبِيلِ مُنْعَمٍ<sup>(٢)</sup>

وقال تعالى: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾  
[الآية ٥] أي: فيستخذوا لك كيداً.  
وليست مثل ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلزُّرْعَةِ  
تَعْمُرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

بإيصال الفعل إليها باللام، كما  
يوصل بـ «إلى»، كما تقول: «قَدَّمْتُ لَهُ  
طَعَاماً» تريد: «قَدَّمْتُ إِلَيْهِ». وقال  
تعالى ﴿يَا أَكْفَرُ مَا قَدَّمْتَ لِلْحَيِّ﴾ [الآية ٤٨]  
ومثله ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس/ ٣٥]  
وإن شئت كان ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ في  
معنى «فَيَكِيدُوكَ»، بجعل اللام مثل  
اللام في قوله تعالى ﴿لِيَرْيَبَهُمْ  
يَرْهَبُونَ﴾<sup>(٤)</sup> [الأعراف] وقوله سبحانه  
﴿لِيَرْيَبَهُمْ يَرْهَبُونَ﴾<sup>(٥)</sup> إنما هو: «لِمَكَانٍ  
رَبَّهُمْ يَرْهَبُونَ».

وقال تعالى: ﴿أَوْ أَطْرَحُوهُ أَوْ مَآ يَحُلْ  
لَكُمْ﴾ [الآية ٩] وليس الأرض ههنا

بظرف. ولكن حذف منها «في» ثم  
أعمل فيها الفعل، كما تقول «تَوَجَّهْتُ  
مَكَّةً».

وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [الآية  
١٤] و«العُصْبَةُ» و«العصابة» جماعة ليس  
لها واحد<sup>(٦)</sup> كـ «القَوْم» و«الزُّرْعَةُ».

وقال تعالى: ﴿يَذَرُ كَذِبًا﴾ [الآية  
١٨] بجعل «الدَّم» «كذِباً» لأنه كَذِبٌ فيه  
كما تقول «الليلة الهلال» فترفع، وكما  
قال تعالى ﴿فَمَا رِيحَتُ يَخْتَرِفُهُمْ﴾  
[البقرة/ ١٦]<sup>(٧)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا  
وَارِدَهُمْ﴾ [الآية ١٩] بالتذكير بعد التأنيث  
لأن «السَّيَّارَةَ» في المعنى للرجال<sup>(٨)</sup>.

وقال تعالى: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾  
[الآية ٢٣] أي: أَعُوذُ بِاللَّهِ مَعَاذاً. جعله  
بدلاً من اللفظ بالفعل، لأنه مصدر،  
وإن كان غير مستعمل مثل «سُبْحَانَ»،  
وبعضهم يقول «مَعَاذَةُ اللَّهِ»، ويقول «ما

(١) جاء في الهامش: الجابية: الحوض الذي يُجْنَى فيه الماء للابل. يجبي أي: يجمع، قاله الجوهري.

(٢) الرجز في الصحاح «نعم» واللسان «طعم» و«نعم» و«كلم» وفي أول مواضعه من اللسان بـ «خابية» وفي ثالث مواضعه منه بـ «حقت». وهو في الصحاح ٢٣/١.

(٣) نقله في التهذيب ٤٦/٢ «عصب».

(٤) قد نقله في التهذيب ١٦٧/١٠ وزاد المسير ١٩٣/٤.

(٥) نقله في زاد المسير ١٩٣/٤.

أَحْسَنَ مَعْنَاءَ هَذَا الْكَلَامِ، يَرِيدُ الْمَعْنَى.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥٥﴾ أي «إِلَّا السَّجْنُ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ لِأَنَّ «الْخَفِيفَةَ، وَمَا عَمِلَتْ فِيهِ، اسْمٌ بِمَنْزِلَةِ «السَّجْنِ».

وقال تعالى: ﴿وَلْيَكُونَا مِنْ الصَّانِعِينَ ٣٢﴾ [الآية ٣٢] فالوقف عليها (وَلْيَكُونَا)؛ لِأَنَّ النون الخفيفة إذا انفتح ما قبلها، فوقفت عليها، جعلتها ألفاً ساكنة بمنزلة قولك «رَأَيْتُ زَيْدًا»، ومثله قوله تعالى ﴿لَتَنفَعَا بِالنَّاصِيَةِ ٥٦﴾ [العلق] الوقف عليها ﴿لَتَنفَعَا ٥٦﴾.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُنَنَّهُ حَتَّىٰ جِئَ ٢٥﴾ بإدخال النون في هذا الموضع، لِأَنَّ هَذَا مَوْضِعَ تَقَعِ فِيهِ «أَيٌّ»، فَلَمَّا كَانَ حَرْفُ الِاسْتِفْهَامِ يَدْخُلُ فِيهِ، دَخَلَتْهُ النون، لِأَنَّ النون تكون في الاستفهام،

تَقُولُ «بَدَأَ لَهُمْ أَيُّهُمْ يَأْخُذُونَ» أَيَّ اسْتَبَانَ لَهُمْ.

وقال تعالى ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَلْحَامِ بِصَالِينَ ٥٨﴾ فإحدى الباءين لوصل الفعل إلى الاسم، والآخرى دخلت لـ «مَا» وهي الأخيرة.

وقال تعالى ﴿وَأَذْكُرْ بِمَا أَنشَأَ ٤٥﴾ [الآية ٤٥] وَإِنَّمَا هِيَ «إِفْتَقَلَّ» مِنْ «ذَكَرَ» فَأَصْلُهَا «إِذْنَكُرَ»، وَلَكِنْ اجْتِمَاعًا فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَمَخْرَجَاهُمَا مُتَقَارِبَانِ، وَارَادُوا أَنْ يَدْغَمُوا، وَالْأَوَّلُ حَرْفٌ مَجْهُورٌ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ الْأَوَّلُ فِي الْآخِرِ، وَالْآخِرُ مَهْمُوسٌ، فَكَرِهُوا أَنْ يَذْهَبَ مِنْهُ الْجَهْرُ، فَجَعَلُوا فِي مَوْضِعِ التَاءِ حَرْفًا مِنْ مَوْضِعِهَا مَجْهُورًا، وَهُوَ الدَّالُ لِأَنَّ الْحَرْفَ الَّذِي قَبْلَهَا مَجْهُورٌ. وَلَمْ يَجْعَلُوا الطَّاءَ، لِأَنَّ الطَّاءَ مَعَ الْجَهْرِ مُطَبَّقَةٌ. وَقَدْ قَرَأَ بَعْضُهُمْ (مُذَكِّرٌ) فِي سُورَةِ الْقَمَرِ <sup>(١)</sup> فَأَبْدَلَ التَّاءَ ذَالًا ثُمَّ أَدْخَلَ الذَّالَ فِيهَا. وَقَدْ قُرِئَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (أَنَّ يَصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا) [النساء/١٢٨] <sup>(٢)</sup>

(١) الآيات: ١٥ و ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠ و ٥١. وبالدال المضغفة، المفتوحة هي في الطبري ٩٦/٢٧ قراءة عبد الله بن مسعود، في البحر ١٧٨/٨ قراءة قتادة فيما نقل ابن عطية، وفي معاني القرآن ١٠٧/٣ أن لغة بعض بني أسد يقولون «مذكور».

(٢) هذه القراءة هي في الطبري ٢٧٨/٩ قراءة عامة قراءة أهل المدينة، بعض أهل البصرة؛ وفي الشواذ ٢٩ إلى الجحدري، وكذلك في المحتسب ٢٠١، وزاد في الجامع ٤٠٤/٥ عثمان البتي، وفي التيسير ٩٧ إلى غير الكوفيين. والغرامة المثبتة في المصحف الشريف «أَنْ يَصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا».

وهي «أَنْ يَفْتَعِلَا» من «الضَّلَح»، فكانت التاء بعد الصاد، فلم تدخل الصاد فيها للجهر والإطباق. فأبدلوا التاء صاداً، وقرأ بعضهم (يَضْطَلِحَا) وهي الجيدة لما لم يُقدَّر على إدغام الصاد في التاء، حُوِّلَ في موضع التاء حرفٌ مطبق.

وقال تعالى ﴿ثُمَّ أَسْخَرَجَهَا مِنْ وَعْدِ آخِيهِ﴾ [الآية ٧٦] بالتأنيث، وقال تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ بِهٖ جِلْدٌ بَيِّنٌ﴾ [الآية ٧٢] لعودة الضمير الى «الضَّوَاعِ» و«الضَّوَاعِ» مذكر، ومنهم من يؤنث «الضَّوَاعِ»<sup>(١)</sup> و«أريد» ههنا «السَّقَايَةُ» وهي مؤنثة. وهما اسمان لواحد مثل «الشُّوبُ» و«المِلْحَفَةُ»، مذكر ومؤنث لشيء واحد.

وقال تعالى ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [الآية ٨٠] بجعل «النَّجِي» للجماعة مثل قولك: «هُم لي صديق».

وقال تعالى ﴿يَتَأَسَّفَنَّ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾

[الآية ٨٤] فإذا سكنت، ألحقت في آخره الهاء، لأنها مثل ألف التذنية.

وقال تعالى ﴿تَاللَّهِ تَفَتُّوا تُذَكِّرُ يُوسُفَ﴾ [الآية ٨٥] فزعموا أَنَّ (تَفَتُّا) «تَزَالُ» فلذلك وقعت عليه اليمين، كأنهم قالوا: «وَاللَّهِ لَا تَزَالُ تُذَكِّرُ يُوسُفَ».

وقال تعالى ﴿لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [الآية ٩٢] بعد ﴿الْيَوْمَ﴾ وقف ثم ورد الاستئناف<sup>(٢)</sup> بقوله تعالى ﴿يَتَوَفَّرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [الآية ٩٢] فدعا لهم بالمغفرة مستأنفاً.

وقال تعالى ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ [الآية ٨٠] فزعموا أنه أكبرهم في العقل، لا في السن.

وفي قوله تعالى ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [الآية ٨٣] أريد الذي تخلف عنهم، معهم، وهو كبيرهم في العقل.

(١) انظر المذكر والمؤنث ٩٦، وكتاب التذكير والتأنيث ٢٢، والبلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث ٨٣.

(٢) نقله في الجامع ٢٥٨/٩.



## لكل سؤال جواب في سورة «يوسف» (\*)

فإن قيل: ما الحكمة في تكرار رأيت؟

قلنا: قال الزمخشري: ليس ذلك تكراراً، بل هو كلام مستأنف وضع جواباً لسؤال مقدر من يعقوب عليه السلام، كأنه قال له بعد قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [الآية ٤] كيف رأيتهما سائلاً عن حال رؤيتهما؟ فقال مجيباً له ﴿رَأَيْتُهُمَا فِي سَجِيدٍ﴾ [١] وقال الزجاج: إنما كرر الفعل تأكيداً لما طال الكلام كما في قوله تعالى ﴿وَمَنْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفُورُونَ﴾ [الروم ٧] ﴿وَمَنْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفِيرُونَ﴾ [٢] وقال غيره، إنما كرره تعظيماً للرؤية وتعظيماً لها.

فإن قيل: لم أجريت مجرى العقلاء في قوله تعالى ﴿رَأَيْتُهُمَا﴾ وفي قوله

إن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الآية ٤] ولم يقل ثلاثة عشر كوكباً وهو أوجز وأخصر، والذي رآه كان أحد عشر كوكباً غير الشمس والقمر؟

قلنا: قصد عطفهما على الكواكب تخصيصاً لهما بالذكر وتفضيلاً لهما على سائر الكواكب، لما لهما من المزية والرتبة على الكل، ونظيره تأخير جبريل وميكائيل عن الملائكة عليهم السلام، ثم عطفهما عليهم، إن قلنا إنهما غير مرادين بلفظ الملائكة، وكذا قوله تعالى ﴿حَنَفُوا عَلَى الصَّكَاوَاتِ وَالصَّكَاوَاتُ أَلْوَسْنَ﴾ [البقرة/٢٣٨] إن قلنا إنها غير مرادة بلفظ الصلوات.

(\*) انظر هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

﴿سَجِدْ﴾ ① وأصله رأيتهما ساجدة؟

قلنا: لما وصفها بما هو من صفات من يعقل، وهو السجود أجرى عليها حكمه، كأنها عاقلة، وهذا شائع في كلامهم أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه، فيعطى حكماً من أحكامه إظهاراً لأثر الملازمة المقارنة، ونظيره قوله تعالى ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْكُلَهَا الْكَفَلُ أَذْخُلُوا﴾ [النمل/١٨] وقوله تعالى في وصف السماء والأرض ﴿قَالَتْ أَأَبْنَاءُ طَالِيِينَ﴾ [فصلت].

فإن قيل: لم قال تعالى ﴿يَرْزُقْ وَيَكْمِبْ﴾ [الآية ١٧] وكانوا عاقلين بالغين، وأنبياء أيضاً في قول البعض، وكيف رضي يعقوب عليه السلام لهم بذلك؟

قلنا: على قراءة الياء لا إشكال، لأن يوسف عليه السلام كان يومئذ دون البلوغ فلا يحرم عليه اللعب، وعلى قراءة النون نقول كان لعبهم المسابقة والمناضلة، ليعودوا أنفسهم الشجاعة لقتال الأعداء لا للهو، وذلك جائز بالشرع، ويعضد هذا قولهم كما ورد في التنزيل ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [الآية ١٧] وإنما سموه لعباً لأنه في صورة اللعب. ويرد على أصل السؤال أن

يقال: كيف يتوزعون عن اللعب وهم قد فعلوا ما هو أعظم حرمة من اللعب، وأشد، وهو إلقاء أخيهما في الحب على قصد القتل.

فإن قيل: لم اعتذر إليهم يعقوب عليه السلام بعذرین أحدهما ﴿إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ [الآية ١٣] لأنه كان لا يصبر عنه ساعة واحدة، والثاني خوفه عليه من الذنب، فأجابوه عن أحد العذرین دون الآخر؟

قلنا: حبه إياه، وإشاره له، وعدم صبره على مفارقتها، هو الذي كان يغيظهم ويؤلمهم، فأضربوا عنه صفحاً، ولم يجيبوا عنه.

فإن قيل: لم قال تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ [الآية ١٥] وهو يومئذ لم يكن بالغاً، والوحي إنما يكون بعد الأربعين؟

قلنا: المراد به وحي الإلهام، لا وحي الرسالة الذي هو مخصوص بما بعد الأربعين؛ ونظيره قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَرْسُلْنَاكَ بِالْقَمَرِ﴾ [القمر/٧] وقوله تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ﴾ [النحل/٦٨].

فإن قيل: لم قال تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ

أَشَدُّهُ مَا بَيَّنَّتْ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿[الآية ٢٢]﴾  
وقال في حق موسى عليه السلام ﴿وَلَمَّا  
بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ بَيَّنَّتْ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾  
[القصاص/١٤].

قلنا: المراد بببلوغ الأشد دون  
الأربعين سنة على اختلاف مقداره،  
والمراد بالاستواء بلوغ الأربعين أو  
الستين، وكان إتياء كل واحد منهما،  
الحكم والعلم، في ذلك الزمان، فأخبر  
عنه كما وقع.

فإن قيل: لِمَ وُحِدَ الباب في قوله  
تعالى ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ [الآية ٢٥] بعد  
جمعه في قوله ﴿وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابُ﴾  
[الآية ٢٣].

قلنا: لأن إغلاق الباب للاحتياط،  
لا يتم إلا بإغلاق أبواب الدار جميعها،  
سواء أكانت كلها في جدار الدار أو  
لا، وأما هربه منها إلى الباب، فلا  
يكون إلا إلى باب واحد، إن كانت  
كلها في جدار الدار، ولأن خروجه في  
وقت هربه، لا يتصور إلا من باب  
واحد منها، وإن كان بعض الأبواب  
داخل بعض، فإنه أول ما يقصد الباب

الأدنى لقربه، ولأن الخروج من الباب  
الأوسط والباب الأقصى، موقوف على  
الخروج من الباب الأدنى، فلذلك وُحِدَ  
الباب.

فإن قيل: لم قال تعالى ﴿وَشَهِدَ  
شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [الآية ٢٦] ولم يكن  
قوله شهادة؟

قلنا: لما أدى معنى الشهادة في  
ثبوت قول يوسف عليه السلام،  
وبطلان قولها، سمي شهادة، فالمراد  
بقوله ﴿شَهِدَ﴾: أعلم، وبين، وحكم.

فإن قيل: قَدْ قَمِصَهُ مِنْ دُبُرٍ يَدُلُّ  
على أنها كاذبة، وأنها هي التي تبتعه،  
وجذبت قميصه من خلفه فقذته، وأما  
قَدْهُ مِنْ قُبُلٍ، فكيف يدل على أنها  
صادقة؟<sup>(١)</sup>

قلنا: يدل من وجهين: أحدهما أنه  
إذا طلبها وهي تدفعه عن نفسها بيدها  
أو برجلها، فإنها تقد قميصه من قُبُلٍ  
بالدفع. الثاني: أنه يسرع خلفها وهي  
هاربة منه، فيعثر في مقدم قميصه  
فيشقه. ويرد على الوجه الثاني أنه  
مشترك الدلالة من جهة العثار الذي هو  
نتيجة الإسراع، لأنه يحتمل أن يكون

(١) انظر الآيتين ٢٦ و ٢٧ من سورة يوسف.

إسراعاً في الهرب منها، وهي خلفه فيعثر، فيبتدئ قميصه من قُبْلِ.

فإن قيل: لم قال تعالى ﴿وَقَالِيَ أَخْرِجْ عَلَيْنِ﴾ [الآية ٣١] وإنما يقال خرجت إلى السوق، وطرقت عليه الباب فخرج إلي؟

قلنا: إذا كان الخروج بقهر وغلبة، أو بحمال وزينة، أو بآية وأمر عظيم، فإنما يعدى بـ «على»، ومنه قولهم خرج علينا في السفر قطاع الطريق، وقوله تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القمر/٧٩] وقوله تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ [مريم/١١].

فإن قيل: كيف شبهن يوسف عليه السلام بالملوك، فقلن كما ورد في التنزيل ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [٣١] وهن ما رأين الملائكة قط؟

قلنا: إن كن ما رأين الملائكة، فقد سمعن وصفها. الثاني: أن الله تعالى قد ركز في الطباع حسن الملائكة، كما ركز فيها قبح الشيطان، ولذلك يشبه كل متناه في الحسن بالملك، وكل متناه في القبح بالشيطان.

فإن قيل: لم ورد على لسان يوسف

عليه السلام ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [٢٧] وترك الشيء، إنما يكون بعد ملاسته والكون فيه، يقال ترك فلان شرب الخمر، وأكل الربا، ونحو ذلك إذا كان فيه ثم أقلع عنه، ويوسف عليه السلام لم يكن على ملة الكفار قط؟

قلنا: الترك نوعان: ترك بعد الملاسة ويسمى ترك انتقال، وترك قبل الملاسة ويسمى ترك إعراض، كقوله تعالى في قصة موسى عليه السلام ﴿وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَهُ﴾ [الأعراف/١٢٧] وموسى عليه السلام مالا بس عبادة فرعون ولا عبادة آلهته في وقت من الأوقات، وما نحن فيه من النوع الثاني، وسيأتي نظير هذا السؤال في سورة الأعراف في قوله تعالى ﴿أَوْ تَعَوَّدَنَ فِي مِلَّةٍ قَالِ أُولَئِكَ كَفَرُوا﴾ [الأعراف/٨٨].

فإن قيل: لم قال تعالى ﴿أَنزَلَ الْأَنْبِيَاءَ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الآية ٤٠] فسر الأمر بالنهي، أو بما جزء منه النهي، وهما ضدان؟

قلنا: فيه إضمار أمر آخر، تقديره أمر اقتضى أن لا تعبدوا إلا إياه، وهو

كقوله تعالى ﴿فَأَيُّنَى قَائِدُونَ﴾ (العنكبوت) فإنه باعتبار تقديم المفعول في معنى الحصر كما قال في قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة). الثاني أن فيه إضمار نهي تقديره: أمر ونهي، ثم فسر الأمرين بقوله تعالى ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا إِيَّاكَ﴾ (الآية ٤٠).

الثالث: أن قوله تعالى ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ﴾ وإن كان مضاداً للأمر من حيث اللفظ، فهو مرافق له من حيث المعنى، فلم قلت إن تفسير الشيء بما يضاده صورة، ويوافقه معنى، غير جائز بيان موافقته معنى، من وجهين: أحدهما أن النهي عن الشيء أمر بضده، وعبادة الله ضد لا عبادة الله. الثاني أن معنى مجموع قوله تعالى ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا إِيَّاكَ﴾ أعبدوه وحده، فيكون تفسيراً للأمر المطلق.

فإن قيل: الأنبياء عليهم السلام، أعظم الناس زهداً في الدنيا، ورغبة في الآخرة، فلم ورد على لسان يوسف عليه السلام ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَازِنٍ فِي الْأَرْضِ﴾ (الآية ٥٥) طلب أن يكون معتمداً على الخازن، متولياً لها، وهو من أكبر مناصب الدنيا؟

قلنا: إنما طلب ذلك ليتوصل به إلى إرضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحق، وبسط العدل، ونحوه، مما يُبْتَغَى له الأنبياء، ولعلمه أن أحداً غيره، لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء لوجه الله تعالى، وسعياً لمنافع العباد ومصالحهم لهم، لا لحب الملك والدنيا، ونظيره قوله تعالى ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَنَسَخْنَهُ مِنْ الْكِتَابِ﴾ (الأعراف/١٨٨) يعني لو كنت أعلم أي وقت يكون القحط، لأذخرت لزمن القحط طعاماً كثيراً، لا للحرص، لكن لأتمكن من إعانة الضعفاء والفقراء، وقت الضرورة والمضايقة، ويحتمل أن يكون علم تعينه بذلك العمل، فكان طلبه واجباً عليه.

فإن قيل: كيف جاز ليوسف عليه السلام كما ورد في التنزيل أن يأمر المؤذن أن يقول ﴿إِنِّي أَنَا الْغَيُّبُ﴾ (النسب) وذلك بهتان وتسريق بالصواع لمن لم يسرقه، وتكذيب للبريء، واتهام من لم يسرق بأنه سرق؟

قلنا: قوله تعالى ﴿إِنِّي أَنَا الْغَيُّبُ﴾ (النسب) تورية عما جرى منهم مجرى السرقة، وتصوّر بصورتها، من

فعلهم بيوسف ما فعلوه أو لا. الثاني: أن ذلك القول كان من المؤذن بغير أمر يوسف عليه السلام، كذا قاله بعض المفسرين.

الثالث: أن حكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية، التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية، كقوله تعالى لَأَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَعَزَّ بِيدِكَ مِغْنًا فَأَنْزِلْ بِهِ وَلَا تَحْتَسِبْ﴾ [ص/٤٤] وقول إبراهيم عليه السلام في حق زوجه هي أختي لتسلم من يد الكافر، وما أشبه ذلك.

فإن قيل: لم تأسف يعقوب عليه السلام على يوسف دون أخيه بقوله ﴿يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ﴾ [الآية ٨٤] والرؤء الأحدث أشد على النفس وأعظم أثراً؟ قلنا: إنما يكون أشد إذا تساوت المصيبتان في العظم ولم يتساويا هنا، بل فقد يوسف كان أعظم عليه وأشد من فقدان أخيه؛ فإنما خصه بالذكر، ليدل على أن الرؤء فيه مع تقادم عهده، ما زال غصاً طرياً.

فإن قيل: لم قال تعالى ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ [الآية ٨٤] والحزن لا يحدث بياض العين لاطتاً ولا عرفاً؟ قلنا: قال ابن عباس: أي من

البكاء، لأن الحزن سبب البكاء، فأطلق اسم السبب وأراد به المسبب، وكثرة البكاء، قد تحدث بياضاً في العين يغشى السواد، وهكذا حدث ليعقوب عليه السلام، وقيل إذا كثرت الدموع محقت سواد العين، وقلبت إلى بياض كدر.

فإن قيل: لم قال يعقوب عليه السلام ﴿إِنَّمَا لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ إِلَا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٤٧] مع أن من المؤمنين من يبأس من روح الله، أي من فرجه وتنفيه، أو من رحمته على اختلاف القولين، إما لشدة مصيبتة، أو لكثرة ذنوبه، كما جاء في الحديث في قصة الذي أمر أهله، إذا مات أن يحرقوه ويذروا رماده في البر والبحر، ففعلوا به ذلك، ثم إن الله غفر له، كما جاء مشروحاً في الحديث المشهور، وهو من الصحاح، مع أنه ينس من رحمة الله تعالى، وضم إلى يأسه ذنباً آخر وهو اعتقاده أنه إذا أحرق وذري رماده لا يقدر الله على إحيائه وتعذيبه، ومع هذا كله يغفر له، فدل على أنه لم يمت كافراً؟

قلنا: إنما يبأس من روح الله الكافر لا المسلم عملاً بظاهر الآية، وكل

مؤمن يتحقق منه اليأس من روح الله، فهو كافر في الحال، حتى يعود إلى الإسلام، بعوده إلى رجاء روح الله؛ وأما الرجل المغفور له في الحديث، فلا نسلم أنه لم يكفر، ثم إن الله تعالى لما أحياه في الدنيا، عاد إلى الإسلام، بعوده إلى رجاء روح الله تعالى، فلذلك غفر له، وقد يكون قد عاد إلى رجاء روح الله تعالى، قبل موته الأولى، ولم يتسع له الزمان أن يرجع عن وصيته التي أوصى بها أهله، فمات مسلماً فلذلك غفر له.

فإن قيل: في قوله تعالى ﴿وَعَزَّوْا لَهُمْ سُبْحَانَ﴾ [الآية ١٠٠] كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله تعالى؟

قلنا: لعله كان السجود عندهم تحية وتكرمة كالقيام والمصافحة عندنا.

وقيل: كان انحناء كالركوع، ولم يكن بوضع الجبهة على الأرض، إلا أن قوله تعالى ﴿وَعَزَّوْا﴾ يأبى ذلك، لأنَّ الخُرُورَ عبارة عن السقوط، ولا يَرُدُّ عليه قوله تعالى ﴿وَعَزَّوْا﴾ [صرا] [٢٤] لأنهم قالوا أراد به ساجداً، فعبّر عن السجود بالركوع، كما عبّر عن الصلاة في قوله تعالى ﴿وَأَذْكُرُوا مَعَ أَزْكَىٰ﴾ [البقرة] أي صلّوا مع

المصلين. وقيل له: أي لأجله، فاللام للسببية لا لتعدية السجود إلى يوسف عليه السلام، فالمعنى وخزوا لأجل يوسف سجداً لله تعالى، شكراً على جمع شملهم به، وقيل الضمير في له، يعود إلى الله تعالى، وهذا الوجه يدفعه قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [الآية ١٠٠].

فإن قيل: لم ذكر يوسف عليه السلام نعمة الله تعالى في إخراجه من السجن، فقال كما ورد في التنزيل ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [الآية ١٠٠] ولم يذكر نعمته عليه في إخراجه من الجُبِّ وهو أعظم نعمة، لأن وقوعه في الجُبِّ كان أعظم خطراً؟

قلنا: إنما ذكر هذه النعمة دون تلك النعمة، لوجوه: أحدها: أنَّ محنة السجن ومصيبته، كانت أعظم لطول مدتها، فإنه لبث فيه بضع سنين، وما لبث في الجُبِّ إلا مدة يسيرة. الثاني: أنه إنما لم يذكر الحب، كي لا يكون في ذكره توبيخ وتقريع لإخوته، عند قوله لهم كما ورد في التنزيل ﴿لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [الآية ٩٢].

الثالث: أن خروجه من السجن،

كان مقدمة لملكه وعزه، فذلك ذكره،  
وخروجه من الجُبِّ، كان مقدمة الذل  
والرق والأسر، فذلك لم يذكره.

الرابع: أن مصيبة السجن، كانت  
أعظم عنده، لمصاحبة الأوباش  
والأراذل وأعداء الدين؛ بخلاف مصيبة  
الجُبِّ، فإنه كان مؤنسه فيه جبريل  
وغيره من الملائكة عليهم السلام.

فإن قيل: لم قال تعالى على لسان  
يوسف ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [الآية ١٠١] وهو  
يعلم أن كل نبي لا يموت إلا مسلماً؟

قلنا: يجوز أن يكون دعا بذلك، في  
حالة غلبة الخوف عليه، غلبة أذهلته  
عن ذلك العلم، في تلك الساعة.  
الثاني: أنه دعا بذلك، مع علمه،  
إظهاراً للعبودية والافتقار وشدة الرغبة،  
في طلب سعادة الخاتمة، وتعليماً  
للأمة، وطلباً للثواب.

فإن قلنا: كيف يجتمع الإيمان  
والشرك، وهما ضدان، حتى قال تعالى  
﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ  
شُرَكَاءُ﴾ [١٦]؟

قلنا: معناه وما يؤمن أكثرهم، بأن  
الله تعالى خالقه ورازقه وخالق  
السموات والأرض، قولاً إلا وهو

مشرك بعبادة الأصنام فعلاً. الثاني، أن  
المراد بها المنافقون، يؤمنون بالسهم  
قولاً، ويشركون بقلوبهم اعتقاداً.  
الثالث أن المراد بها تلبية العرب، كانوا  
يقولون: لبيك لاشريك لك، إلا شريكاً  
هو لك، تملكه وما ملك؛ فكانوا  
يؤمنون بأول تلبيتهم بنفي الشريك،  
ويشركون بآخرها بإثباته.

فإن قيل: هذه التلبية، توحيد كلها  
ولا شرك فيها، لأن معنى قولهم إلا  
شريكاً هو لك: إلا شريكاً هو مملوك  
لك، موصوفاً بأنك تملكه، وتملك ما  
ملك، واللام هنا للملك، لا لعلاقة  
الشركة؛ وهذا الاستثناء يحتمل أن  
يكون حقيقياً، ويحتمل أن يكون  
مجازياً؛ بيان الأول، أننا إن قلنا إن  
اللام حقيقة في المعنى العام في  
مواردها، وهو الاختصاص، يكون  
قولهم: لاشريك لك، عاماً في نفي  
كل شريك، يضاف إلى الله تعالى بجهة  
اختصاص ما، فيدخل في النفي من  
جهة لفظ الشريك المضاف بجهة  
المملوكية، وهو شريك زيد وعمرو  
ونحوهما، ثم يقع عليه الاستثناء،  
فيكون استثناء حقيقياً؛ وإن قلنا إنها  
مشتركة بين المعاني الثلاثة الموجودة

في موارد استعمالها، وهي الملك والاستحقاق، ويقال الاختصاص، فقولهم: لاشريك لك يكون عاماً أيضاً، عند من يجوز حمل المشترك على مفهومه في حالة واحدة، فيكون الاستثناء أيضاً حقيقياً كما مر؛ وأما على قول من لا يجوز ذلك يكون النفي وارداً على أحد مفهوماته، وهو علاقة الشركة، فيكون الاستثناء بعده مجازياً من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم، وهو نوع من أنواع البلاغة المذكور في علم البيان، وشاهده قول الشاعر:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُبُوقَهُمْ

بِهِمْ قُلُوبٌ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَائِبِ

معناه: إن كان هذا عيباً ففيهم عيب، وهذا ليس بعيب فلا يكون فيهم عيب، فكذا هنا معناه: إن كان الشريك المملوك لك، يصلح شريكاً فلك شريك، وهو لا يصلح شريكاً لك، فلا يكون لك شريك، لأن كل ما يدعي أنه شريك لك، فهو مملوك لك، وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى ﴿صَرِّحَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الروم/ ٢٨].

قلنا: على الوجه الأول إنه ليس بصحيح، لأنه لو جعلنا اللام حقيقة في المعنى العام وهو الاختصاص، يلزم منه الكفر حيث وجد نفي الشريك من غير استثناء، لأنه يلزم منه نفي ملكه تعالى، شريك زيد وعمر ونحوهما، وهو كفر، واللازم منتف، لأنه إيمان محض بلا خلاف.

فإن قيل: إنما لم يكن كفراً مع عمومه، لأن الحقيقة العرفية عند عدم الاستثناء، نفي كل شريك يضاف إلى الله تعالى بعلاقة الشريك، لا نفي كل شريك، يضاف إليه بجهة ما، فصارت الحقيقة اللغوية مهجورة بالحقيقة العرفية، عند عدم الاستثناء، والجواب عن أصل السؤال، أنه سؤال حسن محقق، وأن هذه التلبية توحيد محض على التقديرين، فإن صح النقل أن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عنها، فإنما نهى عنها لأنها توهم إثبات الشريك، لمقتضى الاستثناء عند قاصري النظر، وهم عوام الناس، فلهذه المفسدة نهى عنها.



## المعاني المجازية في سورة «يوسف» (\*)

في هذا القول، مأمورة أمر من يعقل، جَرَى الْخَطَابُ عليها جزيه على من يعقل. مثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِبُلُورِهِمْ لَمْ يَشْهَدُوا عَلَيْنَا﴾ (نضلت/ ٢١)، لأنها لما شهدت عليهم شهادة العقلاء المخاطبيين، أُجِرُوا - كما في هذا الخطاب - مُجَرَى العقلاء المخاطبيين. ومن الشاهد على ذلك قول عبدة بن الطيب:

إِذْ أَشْرَفَ الدُّبُكُ يَدْعُو بَعْضُ أَشْرَفِهِ  
لَدَى الصُّبْحِ وَهُمْ قَوْمٌ مَعَارِيلٌ<sup>(١)</sup>

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ إِيَّيْ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. وهذه استعارة، لأن الكواكب والشمس والقمر منا لا يعقل، فكان الوجه أن يقال. ساجدة. ولكنها لما أطلق عليها فعل من يعقل، جاز أن توصف بصفة من يعقل، لأن السجود من فعل العقلاء. وهذا كقوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الْكَلْبُ أَدْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سَيِّئُنَّ وَيَخْرُجُوا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل]، فلما كانت النمل

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشراف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) هذا البيت من قصائد «المفضليات» للضيبي، والقصيدة كلها كاملة في ديوان المفضليات، بتحقيق الأستاذين أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون - ص ١٣٣ - ١٤٣ ج١. وترجمة عبدة بن الطيب في اللآلي، والأغاني، والإصابة، والشعر والشعراء لابن فتيبة، وهو صاحب البيت المشهور في الرثاء:

فما كان فيس هلكه هلك واحد ولكن بنيان قوم نهذا

فلما جعله بمنزلة الداعي جعل  
الديكة بمنزلة القوم المدعوين،  
وجعلهم أئمة له؛ وأسرّة الرجل قومه  
ورحطه. والمعاذيل الذين لاسلّاح  
معهم. فكانه جعله مستنصراً مَنْ لا  
نصرة له، ولا غناء عنده. وقريب من  
ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهُمْ لَمَّا  
خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء] على أحد  
القولين. فكان السياق، ردّ خاضعين  
إلى أصحاب الأعناق، لا إلى الأعناق،  
لأن الخضوع منهم يكون على  
الحقيقة.

وقد يجوز أيضاً أن يكون قوله تعالى  
في ذكر الكواكب والشمس والقمر:  
﴿رَأَيْتُمْ لِي مَنَاجِدَ﴾ [١] إنما حُسن  
على تأويل تلك الرؤيا. وتأويلها يتناول  
من يعقل من إخوة يوسف وأبويه.  
فجرى الوصف على تأويل الرؤيا،  
ومصير العقبى. وهذا موضع حسن،  
ولم يعض لي كما تقدم.

وقوله سبحانه: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِرِهِ،

يَدْمِرُ كَذِبٌ﴾ [الآية ١٨] وهذه استعارة.  
لأن الدم لا يوصف بالكذب على  
الحقيقة. والمراد بذلك - والله أعلم -  
بدم مكذوب فيه، والتقدير بدم ذي  
كذب.

وإنما يوصف الدم بالمصدر الذي  
هو (كذب) على طريق المبالغة. لأن  
الدعوى التي عقلت بذلك الدم، كانت  
غاية في الكذب.

وقال بعضهم: قد يجوز أيضاً أن  
يكون «كذب» فهنا، صفة لقول  
محذوف يدل عليه الحال. فكان  
التقدير: وجاءوا على قميصه بدم،  
وجاءوا بقول كذب، إذ كانت إشارتهم  
إلى آثار الدم في القميص، قد صحبها  
قول منهم يؤكد تلك الحال، وهو  
قولهم: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ وَيَرْزُقُنَا  
يُؤَسِّفُ عِنْدَ مَتْنَعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ﴾ [الآية  
١٧]. والقول الأول أصوب. ومن  
غرائب التفسير ما روي عن أبي  
عمرو بن العلاء<sup>(١)</sup> أنه قال: سمعت

(١) أبو عمرو بن العلاء. واسمه زتان بن عمار كان إماماً في اللغة والأدب، وكان من أعلم الناس بالأدب والقرآن  
والشعر، وأعراب الجاهلية. توفي سنة ١٥٤هـ بالكوفة. وله ترجمة موجزة في «المزهر» للسيوطي. وانظر  
«الأعلام» للزركلي.

بعض الرواة يقول: بدم كذب  
بالإضافة، من الدال<sup>(١)</sup>. وقال: هو  
الجذبي في كلام الكنعانيين، وأنشد  
لبعضهم:

ظَلْتُ دِماءَ بني عوبٍ كآتهم

عند الهياج رُعاة بين أكدابٍ  
وقيل: إنهم لَطَخُوا قميص يوسف  
عليه السلام، بدم ظبي ذبحوه.

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ  
أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [الأنبياء ١٨]  
وهذه استعارة. وحقيقة التسويل تزيين  
الإنسان لغيره أمراً غير جميل.

جَعَلَ سبحانه أنفسهم، لُما قوي فيها  
الإقدام على ذلك الأمر المذموم،  
بمعزلة الغير الذي يحسن لهم فعل  
القيح، ويحملهم على ركوب العظيم.

وقوله سبحانه: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾  
[الأنبياء ٣٠] وهذه استعارة. والمراد بها أن  
حبه تغلغل إليها، حتى أصاب شغافها،  
وهو غشاء قلبها. كما تقول: بَطِئْتُ  
الرَّجُلَ. إذا أصبت بطنه. ويقال: معنى

شَغَفَهَا أي سَلَبَ شَغَافَ قلبها، على  
طريق المبالغة في وصف حبها له، كما  
تقول: سَلَبْتُ الرَّجُلَ، إذا أخذت  
سَلْبَهُ.

وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا أَصْنَعْتَ أَفْطَرًا  
وَمَا تَحْنُ يَتَأَوَّلُونَ الْأَفْطَرِ بِتِلْكَ﴾ وهذه  
أبلغ استعارة وأحسن عبارة، لأن أخذ  
الأصغاث: ضِغْتُ. وهو الخليط من  
الحشيش المضموم بعضه إلى بعض،  
كالحزمة وما يجري مجراها، فشبه  
سبحانه اختلاط الأحلام، ما مر به  
الإنسان من المحبوب والمكروه،  
والمساءة والسرور باختلاط الحشيش  
المجموع من أخفاف<sup>(٢)</sup> عدة، وأصناف  
كثيرة.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ  
سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُنَّ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا  
تَحْشُرُونَ﴾ [١٣]. وهذه استعارة. والمراد  
بالسبع الشداد: السُّنُونُ المجدبة.  
ومعنى ﴿يَأْكُنَّ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾، أي ينفد  
فيهن، ما أذخرتموه لهن من السنين  
المخصصة.

(١) وقرأ الحسن وعائشة بدم كذب بالوصف لا بالإضافة، وبالدال المهملة أي بدم طري. يقال للدم الطري: الكذب.

(٢) الأخفاف: جمع خِفَف، وهو كل هبوط وارتقاء في سفح الجبل، أو ما ارتفع عن سبيل الماء.

وجرى على ذلك عادة العرب في قولهم: أكلت آل فلان السنة. يريدون منهم الضر، في عام الجذب، وزمان الأزل<sup>(١)</sup>. حتى كأنهم ليسمون السنة المجذبة: الضُّبُع. فيقولون: أكلتهم الضُّبُع. أي نهكتهم سنة الجذب.

وقال بعضهم: إنما نسب تعالى الأكل إليهم، لأن الناس يأكلون فيهن ما اذخروه، ويستغفدون ما أعدوه. كما يقال: يوم آمن. وليل خائف. أي يأمن الناس في هذا، ويخافون في هذا.

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَهْدِي كَيْدَ الْمُنَافِقِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

[وهذه استعارة. لأنه تعالى أقام كيد الخائنين] مقام الخابط في الطريق، ليصل إلى مضرة المكيدة وهو غافل عنه؛ فأعلمنا سبحانه أنه لا يهديه، بمعنى لا يوفقه لإصابة الغرض، ولا يسدده لبلوغ المقصد، بل يدعه يخط في ضلاله، ويتسكع في متاهه، لأنه كالساري في غير طاعة الله، فلا يستحق

أن يهدي لرشد، ولا يسدّد لقصد.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَفَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [الآية ٥٣]. وهذه استعارة. لأن النفس لا يصح أن تأمر على الحقيقة.

ولكن الإنسان لما كان يتبع دواعيها إلى الشهوات، وينقاد بأزمتها إلى المقيحات، كانت بمنزلة الأمر المطاع، وكان الإنسان بمنزلة السامع المطيع. وإنما قال سبحانه: ﴿لَأَفَّارَةٌ﴾. ولم يقل لأمرّة، مبالغة في صفتها بكثرة الدفع في المهادي، والقود إلى المغاوي. لأن «فعالاً»<sup>(٣)</sup> من أمثلة الكثير، كما أن «فاعلاً» من أمثلة القليل.

وقوله سبحانه: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ﴾ [الآية ٧٦]. وهذه استعارة. لأنه ليس هناك على الحقيقة بناء يوطد، ولا درجات تشيد. وإنما المراد به تلبية معالم الذكر في الدنيا، ورفع منازل الثواب في الآخرة.

وقوله سبحانه: ﴿وَسَخَّلَ الْقَرِيَةَ آلِي

(١) الأزل: الضيق، والشدة، والدائمة.

(٢) أصل الآية كاملة: ﴿ذَٰلِكَ يَلْمُ الَّذِي تَمَّ أَكْثُهُ بِالنِّيبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْمُنَافِقِينَ﴾.

(٣) فعال: أي الصيغة التي على وزن فعال. وهذه تدل على الكثرة والمبالغة، فالرجل القتال، هو الكثير القتل.

كُنَّا فِيهَا وَالْعِمَرُ الْأَيُّ أَقَلْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨٢].

وهذه استعارة من مشاهير الاستعارات. والمراد: وإشأ أهل القرية التي كنا فيها، وأصحاب العير التي أقبلنا فيها. ومما يكشف عن ذلك، قوله تعالى في السورة التي يذكر فيها الأنبياء عليهم السلام: ﴿وَيَجِيئُهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ لَفْجَشًا﴾ [الأنبياء: ٨٢]. والقرية هي الأبنية المفروشة، والخطط المسكونة لا يصح منها عمل الخبائن؛ فعلم أن المراد بذلك أهلها. ومن الشاهد على ذلك أيضاً، قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَءٍ فَاعْرِفْتُهُمْ بِجَمِيعٍ﴾ [الأنبياء: ٨٢]. وقال بعضهم: إن القرية هي الجماعة المجتمعة، لا الأبنية المشيدة. وذلك مأخوذ من قولهم: قَرَى الماء في الحوض. إذا جمعه؛ والعير: هي الإبل وفيها أصحابها. وإنما أنث السياق ضمير القرية بقوله تعالى: ﴿الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ على اللفظ كما

يقول القائل: قامت تلك الطائفة، وتفرقت تلك الجماعة، على اللفظ. ويحسن منه أن يقول عقيب هذا الكلام: وأكلوا، وشربوا، وركبوا، وذهبوا، خُملاً على المعنى دون اللفظ. كما قال تعالى: ﴿مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ لَفْجَشًا﴾. ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَءٍ﴾ على المعنى.

وكذلك القول في العير، فإنما أنث ضميرها على اللفظ، لأن العير مؤنثة. قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعَمْرُ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وهذه استعارة. والمراد ولا تأسوا من فَرْجِ الله. والروح هو تنسيم الريح، التي يَلْدُ شَمِيمُهَا، ويطيب نَسِيمُهَا. فشبّه تعالى الفَرْجَ الذي يأتي بعد الكُرْبَةِ، ويترك بعد اللَّزْبَةِ<sup>(١)</sup> بنسيم الريح الذي تترتاح القلوب له، وتثلج الصدور به. ومثل ذلك ما جاء في الخبر: (الريح من نَفْسِ الله)<sup>(٢)</sup> أي من تنفيسه عن خلقه.

(١) اللَّزْبَةُ: الشَّدَّةُ والْفَحْطُ. يقال شَدَّ لَزْبَةً أي شديدة.

(٢) وفي نهاية الأربع ج ١ ص ٩٥ روي عن رسول الله (ص) أنه قال (الريح من روح الله تعالى تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فلا تسبوا، واسألوا الله خيرها، واستعذوا بالله من شرها) أخرجه البيهقي في سننه.

يريد سبحانه أن القلوب نستروح إليها،  
كما يستروح المكروب إلى نفسه، وذو  
الخناق إلى نفسه.

وقوله سبحانه: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ  
غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ [الآية ١٠٧]. وهذه

استعارة. والمراد بذلك المبالغة في  
صفة العذاب بالعموم لهم، والإطباق  
عليهم، كالغاشية التي تشتمل على  
الشيء، فتجلله من جميع جنباته،  
وتستره عن العيون من كل جهاته.



# سورة الرعد





## أهداف سورة «الرعد» (\*)

القرآنية التي تستولي على النفس، وتثير الوجدان، وتزحم الحس بالصور والمشاهد. ثم تأخذ النفس من أقطارها جميعاً، فإذا هي في مهرجان من الصور والمشاعر. وتسلك السورة سبيلها إلى القلب وترتاد به آفاقاً وأكواناً وعوالم وأزماناً، وهو مستيقظ مبصر، مدرك، شاعر بما يمحج حوله من المشاهد والصور.

إنها ليست ألفاظاً وعبارات، ولكنها صور حية تستولي على الفؤاد، وتلمس الوجدان وتوحي بالإيمان.

### موضوع السورة

موضوع سورة الرعد الرئيس هو العقيدة. وقضاياها هي التوحيد

سورة الرعد من السور التي اختلفت في مكنتها ومدنيتها، فقال قوم إنها مكينة، لأنها شبيهة بالسور المكينة في قضتها وموضوعاتها، وقال آخرون إنها مدنية، ولكن موضوعاتها تشبه موضوعات السور المكينة. وفي المصحف المطبوع في القاهرة سورة الرعد مدنية، وآياتها ٤٣، نزلت بعد سورة محمد.

وفي تفسير مقاتل بن سليمان، سورة «الرعد» مكينة، ويقال مدنية. وتسمى سورة الرعد لقوله سبحانه فيها:

﴿وَيَسِّجُ الرَّعْدُ يَحْمَدُوهُ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الآية ١٣].

وسورة «الرعد» من أعاجيب السور

(\*) انشقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كل سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحانه، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ - ١٩٨٤.

والبعث، وهذا الموضوع تَكَرَّرَ عرضه في سور سابقة ولاحقة.

ولكنه يُغرض في كل مرة بطريقة جديدة. وفي ضوء جديد. ويتناول عرضه مؤثرات وموحيات ذات إيقاع جديد وإيحاء جديد.

تطوف سورة الرعد بالقلب البشري في مجالات وآفاق وآماد وأعماق، وتعرض عليه الكون كله في شتى مجالاته الأخاذة: في السموات المرفوعة بغير عَمَدٍ؛ وفي الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مسعى؛ وفي الليل يغشاها النهار؛ وفي الأرض الممدودة وما فيها من رواسٍ ثابتة وأنهار جارية، وجنات وزرع ونخيل مختلف الأشكال والطعوم والألوان، ينبت في قطع من الأرض متجاورات، ويسقى بماء واحد؛ وفي البرق يخيف ويطمع؛ والرعد يستبح ويحمد؛ والملائكة تخاف وتخشع؛ والصواعق يصيب بها من يشاء؛ والسحاب الثقال؛ والمطر في الوديان؛ والزُّبد الذي يذهب جفاء، ليبقى في الأرض ما ينفع الناس.

وهي تلاحق ذلك القلب أينما توجه:

تلاحقه بعلم الله النافذ الكاشف الشامل، يحيط بالشارد والوارد والمستخفي والسارب، ويتمقب كلَّ حي ويحصي عليه الخواطر والخواالج. والغيب المكنون الذي لا تدركه الظنون مكشوف لعلم الله، وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار.

إنها تغزب لمدارك البشر شيئاً من حقيقة القوة الكبرى، المحيطة بالكون ظاهره وخافيه، جليله ودقيقه، حاضره وغيبه. وهذا القدر الذي يمكن لمدارك البشر تصوّره هائل مخيف، ترتجف له القلوب.

وذلك إلى الأمثال المصوّرة، تتمثل في مشاهد حية، حافلة بالحركة والانفعال، إلى مشاهد القيامة، وصور النعيم والعذاب، وخَلَجَات الأنفس في هذا وذاك، إلى وقفات على مصارع الغابرين، وتأملات في مَبِيرِ الراحلين، وفي سنة الله التي مشت عليهم، فإذا هم دائرون.

### مشاهد الكون في سورة الرعد

تبدأ سورة الرعد بقضية عامة من قضايا العقيدة: قضية الوحي بهذا

الكتاب والحق الذي اشتمل عليه فيقول سبحانه :

﴿الرَّ تِلْكَ مَآئِثُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وهذا الافتتاح يلخص موضوع السورة كله، ويشير الى جملة قضاياها، وتسترسل السورة في استعراض آيات القدرة وعجائب الكون الدالة على قدرة الله الخالق وحكمته وتدبيره؛ وأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحي لتبصير الناس، وأن يكون هناك بعث لحساب الناس. وأن من مقتضيات تلك القدرة، أن تكون مستطاعة بعث الناس ورجعهم الى الخالق الذي بدأهم وبدأ الكون كله قبلهم، وسخره لهم ليبلوهم فيما آتاهم.

وتبدأ الآيات الرائعة في رسم المشاهد الكونية الضخمة نظرة الى السماوات، ونظرة الى الأرضين، ونظرة الى مشاهد الأرض وكوامن الحياة.

قال تعالى :

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ السَّمَاءَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاقٍ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ أَنْهَارًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وهذه اللفظة الأولى الى مظاهر القدرة الإلهية تحرك الوجدان، فيقف أمام هذا المشهد الهائل يتملأه، ويدرك أنه ما من أحد يقدر على رفع السماء بلا عمد - أو حتى بعمد - إلا الله جلَّت قدرته؛ وقصارى ما يرفعه الناس بعمد أو بغير عمد، تلك البنايات الصغيرة الهزيلة، القابعة في ركن ضيق من الأرض لا تتعدها؛ ثم يتحدث الناس عما في تلك البنايات من عظمة ومن قدرة واتقان، غافلين عما يشملهم ويعلوهم من سماوات مرفوعة بغير عمد، وعما وراءها من القدرة الحق، والعظمة الحق، وال إتقان الذي لا يتناول إليه خيال إنسان.

ومن هذا المنظور الهائل الذي يشاهده الناس في خلق الله، الى المغيب الهائل الذي تتقاصر دونه المدارك والأبصار :

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْغَرَضِ﴾.

أي استولى على ملك الموجودات جميعها، وأحاطت قدرته الكائنات جميعها.

ومع الاستعلاء والتسخير، الحكمة والتدبير.

﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وإلى حدود مرسومة وفق ناموس مقدر.

﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾.

ويمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة في الفضاء، فتجري لأجل لا تتعده.

ومن قدرة الله سبحانه، أنه مذل الأرض وبسطها أمام البصر، وأمدها بمقومات الحياة:

﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ أُتَتَبَتَيْنِ﴾.

ليكمل إبداع الخلق وتناسقه، ثم تابع الله، جلّت قدرته، بين الليل والنهار في انتظام عجيب، ونظام دقيق يبعث على التأمل في ناموس هذا الكون، والتفكير في القدرة المبدعة التي تدبره وترعاه:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أدلة الألوهية في سورة الرعد

نحن في سورة الرعد أمام عدد من أدلة الألوهية يتوارد بعضها وراء بعضها في سياق بديع، وعرض شائق.

فهناك الأرض التي تزرع بألوان مختلفة من النبات فيها.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْصَانِ النَّخْلِ أَكْثَبَ وَزَرْعًا وَثَمَرًا وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخْلِ وَزَيْتُونِ الْآيَةِ ٤﴾.

منه ما هو عود واحد، ومنه ما هو عودان أو أكثر، في أصل واحد، وكله:

﴿يُسْقَىٰ مِنْ لَحْمٍ وَنَجْوَىٰ﴾ [الآية ٤].

والثربة واحدة، ولكن الثمار مختلفات الطعوم:

﴿وَفَقَعْنَا لَهَا إِحْدَى الثَّمَرَاتِ لَكُلٍّ لِّقَوْمٍ ذِي بَالٍ﴾ [الآية ٤].

فمن غير الخالق المدبر يفعل ذلك؟

إن القرآن، بمثل هذه اللفتة، يبقى جديداً أبداً، لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد في الكون والنفس، وهي لا تنفذ ولا يستقصيها إنسان في عمره المحدود، ولا تستقصيها البشرية في أجلها الموعود.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ومن أدلة الألوهية: إحاطة علم الله بالجنين في بطن أمه، وبالسرممكنون في الصدور، وبالحركة الخفية في جنح الليل، وبكل مختف في الليل وظاهر في النهار، وهو سبحانه محيط بكل من تكلم همساً، أو تكلم جهراً، فإن كل شيء مكشوف تحت المجهر الكاشف يتبعه شعاع من علم الله، وتتعبه حفظة تحصى الخواطر والنوايا.

إلا أنها الرهبة الخاشعة التي لا تملك النفس معها إلا أن تلجأ إلى الله، تطمنن في حماه، وهي تصور علم الله المحيط بكل شيء. ونلاحظ أن بعض الآيات في سورة الرعد، يلمس آفاق الكون الهائل، مثل الآيات الأربع الأولى من السورة.

وبعض الآيات، يلمس أغوار النفس ومجاهل السرائر، مثل الآيات الممتدة من ٨ إلى ١٠ حيث يقول سبحانه:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا يُوَسِّصُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَرْجَاوُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عِلْمُ الْقَتَبِ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْعَمَلُ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ يَنْكُرُ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِالنُّزُولِ وَمَنْ يَنْهَارُ ﴿١٠﴾﴾

\*\*\*

ثم يأخذ السباق في جولة جديدة في وإد آخر، تجتمع فيه مناظر الطبيعة ومشاعر النفس، متداخلة متناسقة. حيث يقول سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُخَوِّفُكُمْ وَأَن يَسْجُدَ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِن خِيفَتِهِ﴾

والبرق والرعد والسحاب مشاهد معروفة وكذلك الصواعق التي تصاحبها في بعض الأحيان، وهي بذاتها مشاهد ذات أثر في النفس، حتى اليوم، وعند الذين يعرفون مزيداً عن طبيعتها. والسورة تذكر هذه الظواهر متتابعة، وتضيف إليها الملائكة والتسبيح والسجود والخوف والطمع، لتصوير سلطان الله، المتفرد بالقهر والنفع والضّر.

وقد سميت السورة بسورة الرعد، لقوله سبحانه:

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾

والرعد هو ذلك الصوت المقرق المدوي، وهو أثر من آثار الناموس الكوني الذي صنعه الله، أيّاً كانت طبيعته وأسبابه، فهو رجع صنع الله في

الكون كله وظلاله، جائية خاضعة من طريق الإيمان أو غير الإيمان سواء، كلها تسجد لله.

﴿وَلِلَّهِ تَسْبُحٌ مِّن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا ۖ إِنَّ تَسْبُحَ لَّهُ وَالْأَصْوَادُ﴾

### النصف الثاني من سورة الرعد

في النصف الاول من سورة الرعد حدثتنا السورة عن المشاهد الهائلة في آفاق الكون وأعماق الغيب وأغوار النفس.

وفي النصف الثاني من السورة تسترسل الآيات في لمسات وجدانية وعقلية وتصويرية دقيقة رقيقة، حول قضية الوحي والرسالة، وقضية التوحيد والشركاء، ومسألة طلب الآيات واستعجال تأويل الوعيد. وهي جولة جديدة حول تلك القضايا في السورة.

وتبدأ هذه الجولة بلمسة في طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر، فالأول عِلْم والثاني عَمَى:

﴿أَفَمَن يَمْشِي أَنَا أَنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَقَدْ كُنَّا هُنَا أَعْمَى﴾ [الآية ١٩].

وتُبين الآيات طبيعة المؤمنين وطبيعة

هذا الكون، وهو يحمد ويسبح بلسان الحال، للقدرة التي صاغت هذا النظام، كما أن كل مصنوع جميل متقن، يسبح ويعلن عن حمد الصانع والثناء عليه، بما يحمله من جمال وإتقان.

وقد اختار التعبير أن يجعل صوت الرعد تسبيحاً للحمد، اتباعاً لمنهج التصوير القرآني في مثل هذا السياق، وخلع سمات الحياة وحركاتها على مشاهد الكون الصامتة، لتشارك في المشهد بحركة من جنس حركة المشهد كله، وقد انضم الى تسبيح الرعد بحمد الله، تسبيح الملائكة من خوفه ومن تعظيمه، وفي آية أخرى يقول سبحانه:

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى/٥].

وفي الحديث النبوي يقول الرسول (ص): «أطَّت السماء وحق لها أن تئيط، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك راکع أو ساجد يسبح الله تعالى». ثم يعبر السياق عن خضوع الكائنات جميعها لمشينة الله تعالى بالسجود، وهو أقصى رمز للعبودية، فتسجد الكائنات ويسجد ظلها معها عند انكسار الأشعة، وامتداد الظلال؛ فإن شخوص

الكافرين، والصفات المميزة لهؤلاء وهؤلاء، ثم يتلوها مشهد من مشاهد القيامة، وما فيها من نعيم للأولين وعذاب للآخرين. ويعقب ذلك لمسة في بسط الرزق وتقديره، ورّد ذلك الى الله سبحانه، فجولة مع القلوب المؤمنة المطمئنة بذكر الله، فوصف لهذا القرآن الذي يكاد يسير الجبال، وتقطع به الأرض ويكلّم به الموتى؛ فلمسة بما يصيب الكفار من قوارع تنزل بهم، أو تحل قريباً من دارهم، فجدل تهكمي حول الآلهة المدّعاة، فلمسة عن مصارع الغابرين، ونقص أطراف الأرض منهم حيناً بعد حين؛ يختم هذا كله، بتهديد الذين يكذبون برسالة الرسول (ص) بتركهم للمصير المعلوم.

من ذلك نرى أن الإيقاعات والمطارق المتوالية في شطر السورة الأول، تحضّر المشاعر وتهيئها لمواجهة القضايا والمسائل في شطرها الثاني وهي على استعداد وتفتح لتلقيها؛ وإن شطري السورة متكاملان، وكل منهما يوقع على الحس طرقاته وإيحاءاته، لهدف واحد وقضية واحدة، هي الإيمان عن يقين كامل

وأدلة مقنعة، يطمئن لها القلب وتسكن إليها النفس. قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (١٨).

فقلب الكافر في ضلال، وقلب الجاحد مضطرب هواء، وقلب المؤمن يطمئن لصلته بالله، والأنس بجواره، والأمن في جانبه وحماه، يطمئن من قلق الوحدة وحيرة الطريق بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير، ويطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما يشاء الله، مع الرضا بالابتلاء والصبر على البلاء؛ ويطمئن برحمة الله في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة.

وليس أشقى على وجه الأرض ممن يُحرمون طمأنينة الأنس الى الله. ليس أشقى ممن يعيش لا يدري لِمَ جاء، ولم يذهب، ولم يعاني في الحياة؟ ليس أشقى في الحياة، ممن يشق طريقه فريداً وحيداً شارداً في فلاة، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هادٍ ولا معين.

وإن هناك شدائد في الحياة، لا يصمد لها بشر، إلا أن يكون مرتكناً الى الله، مطمئناً الى حماه، مهما أوتي

من القوة والثبات والصلابة والاعتداد .  
ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله ،  
فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله :

﴿أَلَا يَذَكِّرُ اللَّهُ تَقْلِيمًا  
الْقُلُوبَ ۖ﴾ .

### التناسق الفني في سورة الرعد

مِمَّنْ نَلْحَظُهُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ عَنَابَتُهَا  
بِالْمُقَابِلَةِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ ، وَالْهُدَى  
وَالضَّلَالِ ، وَالْإِطْمِئْنَانِ وَالْحَيْرَةِ . وَحِينَ  
تَعْرِضُ السُّورَةُ لِرَسْمِ مَشَاهِدِ الْكَوْنِ ،  
غُنِيَتْ بِإِبْرَازِ الْمَشَاهِدِ الْمُتَقَابِلَةِ مِنْ سَمَاءٍ  
وَأَرْضٍ ، وَشَمْسٍ وَقَمَرٍ ، وَلَيْلٍ وَنَهَارٍ ،  
وَشَخْصٍ وَظِلَالٍ ، وَجِبَالٍ رَاسِيَةٍ ،  
وَأَنْهَارٍ جَارِيَةٍ ، وَزَبَدٍ ذَاهِبٍ ، وَمَاءٍ بَاقٍ ،  
وَقِطْعٍ مِنَ الْأَرْضِ مُتَجَاوِرَاتٍ  
مُخْتَلِفَاتٍ ، وَنَخِيلٍ صِنْوَانٍ وَغَيْرِ  
صِنْوَانٍ ؛ وَمِنْ ثَمَّ تَطَرَّدَ هَذِهِ التَّقَابِلَاتُ  
فِي كُلِّ الْمَعْنَايِ وَكُلِّ الْحَرَكَاتِ وَكُلِّ  
الْمَصَائِرِ فِي السُّورَةِ ، لِنَتَّسِقَ التَّقَابِلَ  
الْمَعْنَوِيَّ فِي السُّورَةِ مَعَ التَّقَابِلَاتِ  
الْحِسِّيَةِ ، وَتَنَسَّقَ فِي الْجَوِّ الْعَامِ .

وَمِنْ ثَمَّ يَتَقَابَلُ الْاسْتِعْلَاءُ فِي  
الْإِسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ ، مَعَ تَسْخِيرِ  
الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَيَتَقَابَلُ مَا تَغْبِضُ  
الْأَرْحَامُ مَعَ مَا تَزِدُّدُ ، وَيَتَقَابَلُ مِنْ أَسْرَ  
الْقَوْلِ مَعَ مَنْ جَهَرَ بِهِ ، وَمَنْ هُوَ

مُسْتَخَفٌ بِاللَّيْلِ مَعَ مَنْ هُوَ سَارِبٌ  
بِالنَّهَارِ ؛ وَيَتَقَابَلُ الْخَوْفُ مَعَ الطَّمَعِ  
نَجَاهَ الْبَرْقِ ، وَيَتَقَابَلُ تَسْبِيحُ الرَّعْدِ حَمْدًا  
مَعَ تَسْبِيحِ الْمَلَائِكَةِ خَوْفًا ، وَتَتَقَابَلُ  
دَعْوَةُ الْحَقِّ لِلَّهِ مَعَ دَعْوَةِ الْبَاطِلِ  
لِلشُّرَكَاءِ ، وَيَتَقَابَلُ مَنْ يَعْلَمُ مَعَ مَنْ هُوَ  
أَعْمَى ، وَيَتَقَابَلُ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ مِنْ أَهْلِ  
الْكِتَابِ بِالْقُرْآنِ مَعَ مَنْ يَنْكُرُ بَعْضَهُ ،  
وَيَتَقَابَلُ الْمَحْوُ مَعَ الْإِثْبَاتِ فِي الْكِتَابِ .  
وَبِالْإِجْمَالِ ، تَتَقَابَلُ الْمَعْنَايِ وَتَتَقَابَلُ  
الْحَرَكَاتُ وَتَتَقَابَلُ الْإِتْجَاهَاتُ ، لِنَتَّسِقَ  
الْجَوِّ الْعَامِ فِي الْأَدَاءِ . وَهَذَا التَّنَاسُقُ  
الْفَنِّي ، مِنْ بَدَائِعِ الْإِعْجَازِ فِي الْقُرْآنِ  
الْكَرِيمِ ، هَذَا الْقُرْآنُ الْعَجِيبُ الَّذِي لَوْ  
كَانَ مِنْ شَأْنِ قُرْآنٍ أَنْ تُسَيِّرَ بِهِ الْجِبَالَ أَوْ  
تُقَطِّعَ بِهِ الْأَرْضَ أَوْ يُكَلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ،  
لَكَانَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنَ الْخُصَائِصِ  
وَالْمَوْثُرَاتِ مَا تَتَحَقَّقُ مَعَهُ هَذِهِ الْخَوَارِقُ  
وَالْمُعْجَزَاتُ ، وَلَكِنَّهُ جَاءَ لَخَطَابِ  
الْمُكَلِّفِينَ الْأَحْيَاءِ ، فَإِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ  
فَقَدْ آَنَ أَنْ يَبْأَسَ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ، وَأَنْ  
يَدْعُوهُمْ وَيَتْرَكُوهُمْ ، حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ  
لِلْمُكَذِّبِينَ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ  
قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلَّ يَوْمَ  
الْآخِرَةِ جِمْمًا لَقُلْنَا يَأْمُرُ الْذِّكْرَ ءَامِنُونَ أَنْ  
لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جِمْمًا وَلَا يَزَالُ

الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ  
تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى لَا يَقِيَّ وَعَدَ اللَّهُ إِن  
اللَّهُ لَا يَخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٦﴾

ولقد صنع هذا القرآن في النفوس  
التي تلقته وتكيفت به، أكثر من تسيير  
الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى،  
لقد صنع في هذه النفوس، وبهذه  
النفوس، خوارق أضخم وأبعد أثراً في  
أقدار الحياة، بل أبعد أثراً في شكل  
الأرض، ذاته، فكسب غير الإسلام  
والمسلمون من وجه الأرض الى جانب  
ما غيروا من وجه التاريخ؟

وإن طبيعة هذا القرآن ذاتها، طبيعته  
في دعوته وفي تعبيره، طبيعته في  
موضوعه وفي أدائه، طبيعته في حقيقته  
وفي تأثيره، إن طبيعة هذا القرآن  
لتحتوي على قوة خارقة نافذة بحسبها  
كل من له ذوق وبصر وإدراك للكلام،  
واستعداد لإدراك ما يوجه إليه ويوحى  
به. والذين تلقوه وتكيفوا به سيروا ما  
هو أضخم من الجبال، وهو تاريخ  
الأمم والأجيال. وقطعوا ما هو أصلب  
من الأرض، وهو جمود الأنكار  
وجمود التقاليد. وأحيوا ما هو أخمَد  
من الموتى، نعني الشعوب التي قُتل  
روحها الطغيان والأوهام؛ والتحول  
الذي حصل في نفوس العرب وحياتهم

أضخم بكثير من تحوّل الجبال عن  
رسوخها، وتحوّل الأرض عن  
جمودها، وتحوّل الموتى عن الموت:  
﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾

وهو الذي يختار نوع الحركة وأدائها  
في كل حال. فإذا كان قوم بعد هذا  
القرآن لم تتحرك قلوبهم، فما كان  
أجدر بالمؤمنين الذين يحاولون  
تحريكها ان ييأسوا من القوم، وأن  
يدعوا الأمر لله؛ فلو شاء سبحانه لخلق  
الناس باستعداد واحد للهدى، وهدى  
الناس جميعاً على نحو خلقه الملائكة،  
لو كان يريد.

لقد شاء الله جلّ جلاله أن يوجد  
الإنسان على وجه الأرض، ومعه العقل  
والإرادة والاختيار والكسب، حتى  
يتميز المؤمن من الكافر، والمستقيم  
من العاصي. وبذلك تتحقّق الحكمة  
الإلهية في تنوع الخلق واختلاف  
مشاربهم:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً  
وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ  
وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ  
جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

[هود].

\*\*\*



## ترابط الآيات في سورة «الرعد» (\*)

### تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «الرعد» بعد سورة «محمّد». ونزلت سورة «محمّد» بعد سورتين من سورة «النساء»، وكان نزول سورة «النساء» فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك، فيكون نزول سورة «الرعد» في ذلك التاريخ أيضاً، وعلى هذا تكون سورة «الرعد» من السور التي نزلت بالمدينة، وقبل إنها نزلت بمكة، لأنها تجري في أغراض السور التي نزلت بها، وقال الأصم: إنها مدنية بالإجماع. وكأنه لم يقم وزناً لهذا القول، ولا شيء في أن تجري بقص السور المدنية في أغراض السور المكية، لأن المشركين الذين نزلت فيهم السور المكية لم ينقطع أمرهم بعد

الهجرة، وكان كثير منهم يحيط بالمدينة، وكانت دعوتهم لا تزال قائمة، ومما يؤيد أن هذه السورة مدنية، قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ۖ﴾.

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في الآية ١٣ منها: ﴿وَيَسِّحُ الرِّعْدُ بِحَمَلِهِ﴾. وتبلغ آياتها ثلاثاً وأربعين آية.

### الغرض منها وترتيبها

يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن، كما يقصد من السور الثلاث المذكورة قبلها، ولهذا ذكرت هذه

(\*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المنعم الصمدي، مكتبة الآداب بالجميزة - المطبعة النموذجية بالحكمة الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

السورة بعدها، وقد ابتدئت بمقدمة ذكر فيها أن الذي أنزل إليه من ربه هو الحق، وأن الذي يمنعهم من تصديقه أنه يدعو الى التوحيد وهم لا يؤمنون به، وقد استطرِد فيها الى إثبات هذا التوحيد، ثم عاد السياق الى المقصود من الكلام على تنزيل القرآن، فذكر شبهتين لهما عليه وأخذ في إبطالهما، وبهذا ينحصر المقصود من هذه السورة في هذه الأمور الثلاثة.

### المقدمة

#### الآيات [١ - ٦]

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَى الْكُتُبَ وَالَّذِينَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فاقسم سبحانه بهذه الحروف أن ما أنزله هو آيات الكتاب، وأن ما أنزل إليه منه هو الحق، ولكن الذي يمنعهم من تصديقه أنه يدعو الى التوحيد وهم لا يؤمنون به؛ ثم استطرِد السياق من هذا الى إثبات توحيده جلّ وعلا، فذكر أنه سبحانه هو الذي رفع السماوات بغير عمد، وسخر الشمس والقمر يجريان لأجل مُسمى، ودبر أمر خلقه وفصل آياته لهم لعلمهم بلفظه يؤمنون؛ ثم ذكر

غير هذا من الآيات الدالة على توحيد الله تعالى، وأنه لا بد لهم من لقائه، وعَجِبَ من إنكارهم بعد هذا أن يخلقوا من جديد بعد أن يصيروا تراباً، وهذهم عليه بأنهم ستوضع الأغلال في أعناقهم، وأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون؛ ثم ذكر أنهم يستعجلونه سبحانه بهذا: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقَرٍّ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلُمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

#### رد شبهتهم الأولى على القرآن

##### الآيات [٧ - ٢٦]

ثم قال تعالى: ﴿وَقُولُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَائِدَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فذكر شبهتهم الأولى على القرآن، وهي إنكارهم له وطلب آية غيره، وقد رد عليهم بأن النبي (ص) إنما هو منذر، فليس بيده إجابتهم الى تلك الآيات، وبأن كل قوم لهم هاد يبعث بالآية التي تناسبهم في علمه بأحوالهم؛ ثم ذكر من علمه بأحوالهم أنه يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، الى غير هذا مما ذكره في إثبات علمه ليرضوا

الواحد القهار؛ ثم ضرب مثلاً لحقه وباطلهم بعد تلك الأمثال، شبه فيه حالهما بحال ماء أنزله من السماء فسالت به أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدًا ربابًا، وبحال ذهب أوقد عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع فاحتمل زبدًا أيضًا، فما يبقى تحت الزبد من الماء والذهب الخالص مثل للحق، والزبد مثل للباطل؛ فأما الزيد فيذهب ويفنى وكذلك الباطل، وأما الماء والذهب الخالص فيبقى كل منهما ليتنفع منهما الناس به، وكذلك الحق.

ثم وعد أهل الحق الذين استجابوا له بأن لهم الحسنی، وأوعدهم أهل الباطل الذين لم يستجيبوا له بأن لهم سوء الحساب، وماوهم جهنم وبئس المهاد، ثم ذكر أنه لا يمكن أن يسوئ بين الفريقين في ذلك، وأنه لا يتذكر هذا إلا لأولو الألباب، وهم الذين يُوقُونَ بعهد ولا ينقضون ميثاقهم، ويصلون ما أمر به أن يصل، ويخشونه ويخافون سوء حسابهم، ويصبرون ابتغاء وجهه، ويقومون الصلاة، وينفقون مما رزقهم سرًا وعلانية، ويذرون بالحسنة السيئة. ثم وعدهم بأن لهم عُقبى الدار، جنات

بما اختاره لهم من آياته؛ ثم انتقل السياق من إثبات علمه تعالى إلى إثبات قدرته على ما يقترحوه من تلك الآيات، فذكر أنه جل شأنه هو الذي يريهم البرق خوفًا وطمعًا وينشئ السحاب الثقال، وأنه يستبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء؛ ثم ذكر أنهم يجادلون في وحدانيته سبحانه وهو شديد المحال، وهو الذي إذا دُعِيَ أجاب ﴿لَمْ دَعُوْهُ لَقِيْ﴾ [الأنبياء ١٤] وشركاؤهم لا يستجيبون لهم بشيء، إلا كباط كُفِّهِ إلى الماء ليلغ فاه وما هو ببالغه، لأنه لا يمكنه أن يستجيب له؛ ثم ذكر تعالى أن له يسجد من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا، وأمر النبي (ص) أن يسألهم ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنبياء ١٦] وأن يجيب عن سؤاله بأنه الله لأنه لا رب لها غيره، وأن ينكر منهم مع هذا أن يتخذوا من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، وأن يذكر لهم أنه لا يستوي الأعشى والبصير ولا الظلمات والنور، ثم أمره أن يسألهم: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء ١٦] وأمر النبي (ص) أن يجيب عنه بأنه خالق كل شيء وهو

يكفرون به ولا يقدرّون رحمته؛ ثم أمره أن يؤمن به، ويتوكل عليه، ويتوب إليه، ولا يلتفت إليهم.

ثم أجابهم ثالثاً بأنه لو كان هناك قرآن سيّرت به الجبال، أو قطعت به الأرض، أو كلّم به الموتى، لكان هذا القرآن الذي لا يؤمنون به، وذكر أن الأمر له في إنزال ما ينزله من الآيات، وأنه لو شاء سبحانه لهدى الناس جميعاً من غير معجزة من المعجزات، وذكر أنهم لا يزالون تصيبهم، بتعتّهم في طلب الآيات، قارعةً من سبي أو قتل، أو تحلّ قريباً من دراهم، حتى يأتي وعده تعالى بنصر المؤمنين عليهم؛ ثم ذكر سبحانه أنه قد استهزأت قبلهم أمم باقتراح الآيات على رسلهم، فأملى لهم ثم أخذهم بما أخذهم به من العقاب، وانتقل السياق من هذا إلى إثبات قدرته جلّ شأنه، عليهم، وعجز آلهتهم عن دفع شيء عنهم، فذكر أنه لا يكون من هو قائم على كل نفس بما كَسَبَتْ كمن لا يقوم على شيء، وأمرهم تعالى أمر تعجيز أن يُسْئُوا هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم له؛ وذكر أنهم يدعون له شركاء لا يعلمهم لعدم وجودهم، وإنما يأخذون في هذا

عدن يدخلونها الخ، وأوعد الذين ينقضّون عهده من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر به أن يوصل، ويفسدون في الأرض، بأن لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الزُّزْجَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٤٣﴾﴾.

### رد شبهتهم الثانية على القرآن الآيات [٢٧ - ٤٣]

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا يُوَفَّى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَجْرَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

فذكر شبهتهم الثانية على القرآن، وهي شبهتهم الأولى بعينها، وقد أجابهم أولاً بأنه يضل من يشاء فلا يؤمن، ولو أجيب إلى ما يقترحه من الآيات، ويهدي إليه من أناب فيؤمن بغير اقتراح آيات؛ ثم وصف من أناب بأنهم الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكره سبحانه، إلى غير هذا مما وصفهم به.

ثم أجابهم ثانياً بأنه أرسل النبي (ص) في أمّة هي آخر الأمم، فخصّه بمعجزة القرآن ليتلوها عليهم. فيبقى إعجازها قائماً بينهم رحمة بهم، وهم مع هذا

بظاهر من القول، وليس عندهم شيء من العلم، وقد زُيِّنَ لهم ما هم فيه، وصدّوا عن السبيل، فلا يمكن اهتداؤهم؛ ثم أوعدهم بأن لهم عذاباً في الحياة الدنيا وعذاباً أشق منه في الآخرة؛ ووَعَدَ المتقين بأن لهم جنّة تجري من تحتها الأنهار، أَكُلُّهَا دائم وظلّها.

ثم أجابهم رابعاً بأن أهل الكتاب يفرحون بهذا القرآن الذين لا يؤمنون به، وإن كان من أحزابهم من ينكر بعضه لمخالفته لما عندهم؛ وأمر النبي (ص) أن يعبدّه ولا يشرك به، وأن يدعو إليه وحده؛ ثم ذكر أنه أنزل القرآن حكمة عربية لا يصح طلب آية بعدها؛ وحذّر النبي (ص) من أن يتبع أهواءهم فيما يطلبونه من الآيات، بعد أن جاء من العلم ما لا يصح معه اتباع أهوائهم.

ثم أجابهم خامساً بأنه أرسل رسلاً

من قبله، وكانوا بشراً مثله لهم أزواج وذوّة، فلا يمكنهم أن يأتوا بآية إلا بأذنه، ولكل أجل قُدْرُهُ لآياته كتاب، لا تمكن مخالفته، وكل ما يحصل من محو أو إثبات يأتي على وفق ما فيه؛ ثم ذكر للنبي (ص) أنه قد يريه بعض ما يعدهم من العذاب وقد يتوقّاه قبله، فليس هذا من شأنه، وإنما عليه أن يبلغهم وعليه هو حسابهم؛ ثم نبههم إلى أن ما يعدهم به قد حصل بعضه، فذكر ما حصل من انتقاص المسلمين أطراف أرضهم، وأنه قد حكم بنصر المؤمنين عليهم، وهو حكم لا معقب له ولا تأخير فيه؛ ثم ذكر أنه قد مكر من كان قبلهم فلم يغدهم مكرهم، لأن له المكر جميعاً، يعلم ما تكسب كل نفس، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ يَأْلَهُ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.



## أسرار ترتيب سورة «الرعد» (\*)

أقول: وجه وضعها بعد سورة «يوسف»: أنه سبحانه قال في آخر تلك: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يَمْشُونَ عَلَىٰهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف]. فذكر الآيات السماوية والأرضية مجملة، ثم فصل في مطلع هذه السورة.

فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِتَمِيمٍ عَمَدَ قُرُونَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَهْتَفُونَ ﴿١﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا

رُؤُوسَ رَّاسٍ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْثِي آلِيلَ النَّهَارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾ وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّتَبَعُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْشَىٰ وَرْدِجٍ وَخَيْلٍ صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْثَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ تفصيل الآيات الأرضية.

هذا مع اختتام سورة يوسف بوصف الكتاب، ووصفه بالحق، وافتتاح هذه بمثل ذلك<sup>(١)</sup>، وهو من تشابه الأطراف.

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) ختام سورة «يوسف»: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي فَصْمِهِمْ لَئِنْ لَّمْ يَأْتُوا بِالْحَقِّ الْبَيِّنَاتِ حَرَبًا حَرِيكًَا يُفْتَنُوا وَلَعَلَّهُمْ يَتَوَلَّوْنَ﴾ [يوسف]. وافتتاح «الرعد»: ﴿الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَفْضَلُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَكِيمًا﴾ [الرعد]. وافتتاح «الرعد»: ﴿الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَفْضَلُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَكِيمًا﴾ [الرعد]. وافتتاح «الرعد»: ﴿الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَفْضَلُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَكِيمًا﴾ [الرعد].



## مكنونات سورة «الرعد» (\*)

قال سعيد بن جبيرة: هو جبريل.  
أخرجهما ابن أبي حاتم.

وقال ابن عباس: هُم اليهود  
والنصارى. أخرجه ابن جرير<sup>(٢)</sup>؛  
وأخرج عن قتادة، قال: كُنَّا نَحْدُثُ أَنَّ  
مِنْهُمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ، وَسَلْمَانَ  
الْفَارِسِيَّ، وَتَمِيمَ الدَّارِيَّ<sup>(٣)</sup>.

١ - ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ [الآية  
١٣].

نَزَلَتْ فِي أَزْدَ بْنِ قَيْسٍ، وَعَامِرِ بْنِ  
الطُّفَيْلِ. كَمَا أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ<sup>(١)</sup>  
وغيره.

٢ - ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ الْكِتَابِ﴾  
قال عِكْرِمَةُ: هو عبد الله بن سلام.

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب «مفجعات الأقران في مبهمات القرآن» للشبوطي، تحقيق إيهاد خالد الطباع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) في «الأوسط» والكبير بنحوه، وفي إسنادهما عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف. قاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٤٢/٧.

(٢) ١١٨/١٣.

(٣) والأثر في «الطبري» ١١٩/١٣.



(\*) لغة التنزيل في سورة «الرعد»

أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً.  
وَقُرئ: يُغْشَى، بالتشديد.

وظاهر الحال أن الفعل «يُغْشَى»  
ينصب مفعولين؛ وحقيقة ذلك، أنه  
مجاوز الى مفعول واحد، وأما الثاني  
فبالخافض، وعرض له الحذف، ثم  
وصل.

٢ - وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ  
قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾ [الآية ١٦].

والمراد بقوله سبحانه: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ  
مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾ عقوبات أمثالهم  
من المكذبين، فما لهم لم يعتبروا بها  
فلا يستهزئوا.

والمَثَلَةُ: العقوبة بوزن السُمرة.  
والمَثَلَةُ لما بينَ العقاب والمُعاقب عليه  
من المماثلة.

١ - قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ  
الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ  
الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْآبِلُ  
الْأَنْهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ  
يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أقول: أراد تعالى بقوله: ﴿جَعَلَ فِيهَا  
زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أنه سبحانه خلق فيها من  
أنواع الشُّمرات جميعها زوجين حين  
مدّها، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوّعت.

وقيل: أُرِيدَ بالزَّوْجَيْنِ: الأسود  
والأبيض، والحلو والحامض،  
والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من  
الأصناف المختلفة.

وأما قوله جلَّ وعلا: ﴿يُغْشَى الْآبِلُ  
الْأَنْهَارُ﴾ فالمراد يُلْبِسُه مكانه، فيصير

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

أقول: وهذه من مواد القرآن التي لا نعرفها في عربية معاصرة.

٣ - وقال تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِإِنْتِزَالِ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ﴾.

والمعنى: سواء عنده من استخفى، أي: طلب الخفاء في مُخْتَبَأٍ بالليل في ظلمته، ومن يضطرب في الطرقات ظاهراً بالنهار يصره كلُّ أحد.

أقول: وليس لنا في العربية المعاصرة إلا المزيد «سَرَب» و«تَسَرَّب» ومعناهما شيء آخر ذو خصوصية أخرى، فيقال مثلاً: سَرَبَ خبراً، وتَسَرَّبَ الخبر، وكلُّه شيء مؤلَّد جديد.

٤ - وقال تعالى: ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الْفُقَالَ﴾.

و(السحاب) في الآية يفيد الجمع بدلالة الوصف (الثقال).

ومن المفيد أن نعرض لكلمة «السحاب» في لغة التنزيل، لنرى تصاقب الجمع والإفراد فيها، قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الْيَنْبُغِ وَالسَّحَابِ الْمُسَحَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (البقرة/ ١٦٤).

﴿وَأَنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا

سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ (الطور).

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَفْلَحَ سَحَابًا فَقَالَ سُقْنَنُهُ لِيَكُنَّ مَيْتَتَيْنِ﴾ (الأعراف/ ٥٧).

فالسحاب في الآية الأولى مفرد بدلالة الوصف (المُسَخَّر)، ومثله في الآية الثانية؛ وأما الآية الثالثة ففيها شيء آخر، فقد وصف السحاب بصفة الجمع (الثقال)، ثم عاد الضمير عليه في (سقناه) فعُدَّ مفرداً.

وحقيقة الأمر أن «السحاب مفرد كسائر أسماء الجمع، كالنخل والشجر وغيرهما، ولكن هذه الأسماء ذات معانٍ تؤذي الجمع. على أن الشيء يكون مفرداً مرةً وجمعاً أخرى باعتبار لفظه، وباعتبار معناه، وهذا من خصائص لغة التنزيل.

٥ - وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَنِّدُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾.

المحال والمماحلة سواء، وهما مصدر الفعل «ماخَلَ»، ويعنيان شدة المماكرة والمكايدة.

أقول: مصدر «فَاعَلَ» قياسي، فهو الفعل والمُفاعلة، مثل سَابَقَ سباقاً ومسابقة، ولكن قد يُشيع بناء من هذين المصدرين ويكاد الآخر يُنسى فلا يرد

في نثر المعربين وشعرهم وكلامهم .  
ألا ترى أنهم يقولون «تفاق» ولا  
يقولون: منافقة ويقولون: مجارة  
ومباراة ولا يقولون: جراء وبراء،  
ويقولون مراسلة وملاعنة، وقلما تجد  
رسالاً ولعناً. وهذا كله من خصائص  
هذه اللغة العريقة .

٦ - وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَقْدَحَ  
جُفَاءً﴾ [الآية ١٧] .

قالوا: معنى (جفاء) باطلاً .

قال الفراء: أصله الهمزة، والجفاء،  
ما نفاه السيل .

وجفأ الوادي: مَسَحَ غُثاءه، وقيل:  
الجفاء كما يقال الثَّأ .

أقول: والجفاء بهذا المعنى من  
الكلم المفيد الذي حسن استعماله في  
لغة التنزيل .

٧ - وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا  
لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى﴾ [الآية ١٨] .

والمراد بـ (الحُسْنَى) الجزاء الحسن .  
والْحُسْنَى ضدُّ السُّوْأَى، وهو مصدر  
كَالْتَعْمَى والبُؤْسَى وغيرهما .

وقد يكون أصل هذا المصدر

الصفة، فهو مؤنث أحسن، مثل أعلى  
وعليا، وأقصى وقُضيا، ثم حَوَّلَهُ  
الاستعمال الكثير الى المصدر كتحول  
العافية والعاقبة الى المصدر، وأصلهما  
اسم الفاعل .

وهذا كُلُّهُ من سَعَةِ هذه العربية التي  
نَفَنَ بها أهل اللُّسُن والفصاحة .

٨ - وقال تعالى: ﴿وَمَا لَمْ يَكُنِ فِي  
الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ .

أقول: والمعنى: وما الحياة الدنيا  
في جنب نعيم الآخرة إلا شيء يسير  
كعجالة الراكب، وهو ما يَتَعَجَّلُهُ من  
ثُميرات، أو شربة سويق، أو نحو  
ذلك<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى: ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ ضرب  
من الإيجاز الجميل، والمعنى كما  
أشرنا من قول الزمخشري .

ثم إنَّ جَعَلَ الحياة الدنيا متاعاً،  
إشارة الى أن نعيمها زائل، وأنها لا  
تدوم، وأنها تافهة قليلة الغناء كخلة  
المتاع الذي يتزود به المسافر، وهو  
بُلْغَةٌ يتبلَّغ بها مدة سفره . وما زال  
«المتاع» زاد الراكب والمسافر في  
عصرنا، وإن أخذ يزول بسبب من تقدّم

(١) «الكتاب» ٢/ ٥٢٨ .

الحضارة، وتهيئ الوسائل المتقدمة في السفر وما يتصل به.

ومن عجيب، أن مواد هذه الكلمة تدل على القلة ذلك أن «المتعة» (مثلثة الميم) هي البلغة، ويقول الرجل لصاحبه، أبغني متعة أعيش بها، أي: ابغ لي شيئاً آكله، أو زاداً أتزود به، أو قوتاً أقتاته.

٩ - وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَاآبَ الْقَائِلِينَ﴾.

قُرئت: (طوبى لهم وحسن ماآب) برفع (طوبى) ونصبها.

أقول: والتَّصَبُّ على معنى الدُّعاء. وطُوبَى: مصدر كالبُشْرَى والتَّغْمَى ونحو ذلك، وقوله تعالى: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾، أي: أصبتم خيراً وطيباً على إرادة الدعاء. واستعمال اللام في ﴿لَهُمْ﴾ مؤذن بذلك كقولهم سلاماً لك، كما تقول أيضاً سلام لك، وكله دُعاء.

١٠ - وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، أي: أصل كل كتاب، وهو اللوح المحفوظ.

أقول: واستعمال (أُم) وإضافتها للكتاب لتوليد هذا المعنى، أو قل هذا المصطلح يؤيده ما ذرَّج عليه العرب من النظر الى كلمة (أُم)، التي أضافوها الى كلمات لا حصر لها لتوليد مُسميات كثيرة، يأخذك العجب إذا ما أردت أن تعرف طرائق إدراكهم للأشياء، واختيار الكلم لذلك.

وحسبك أن تنظر في كتاب «المرضع» لمجد الدين ابن الأثير<sup>(١)</sup> وهو في الآباء والأمهات والأبناء والذوات والذوين، لتدرك آفاق هذه اللغة البعيدة المرامي.

١١ - وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (الآية ٣١).

قال الزمخشري<sup>(٢)</sup> في ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ جوابه محذوف، كما تقول

(١) انظر: «المرضع»، لابن الأثير، من مطبوعات وزارة الأوقاف في العراق.

(٢) «الكشاف» ٢/ ٥٢٩.

لغلامك: لو أني قمت إليك، وتترك  
الجواب.

والمعنى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قَوْمًا شِئِرَتْ يَدُ  
الْجِبَالِ﴾ عن مقازها، وزُعرِعتْ عن  
مضاجعها، ﴿أَوْ قُطِعَتْ يَدُ الْأَرْضِ﴾  
حتى تتصدع وتترابل قطعاً، ﴿أَوْ كَلِمَ يَدُ  
الْمَوْقِ﴾ فتسمع ونجيب، لكان هذا  
القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في  
الإنذار والتخويف؛ كما قال تعالى:  
﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ  
خَانِقًا مُّتَصَدَّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾  
[الحشر/ ٢٦].

أقول: وهذا الأسلوب من حذف  
الجواب يخدم الغرض البلاغي، وهو  
أن يدع السامع يتفكر في عظم ما يريد  
الله سبحانه أن يفعله.

أما قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ  
آمَنُوا﴾ فالمراد بها: أفلم يعلم.

قيل: هي لغة قوم من النخع.  
وقيل: إنما استعمل اليأس بمعنى العلم  
لتضمنه معناه، لأن اليأس عن الشيء  
عالم بأنه لا يكون، كما استعمل الرجاء  
في معنى الخوف، والنسيان في معنى  
الترك لتضمن ذلك، قال سحيم بن  
وثيل الرياحي:

أقول لهم بالشعب إذ ينسرونني  
ألم تباؤوا أني ابن فارس رَهْدَمِ  
ويدل عليه أن علياً وابن عباس  
وجماعة من الصحابة والتابعين قرأوا:  
أَفَلَمْ يَتَّبِعْنِ، وهو تفسير ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيَنَّ﴾.

١٢ - وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي  
الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَكْمُلُ لَآ  
مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

وقوله تعالى: ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾،  
أي: لا راد لحكمه، والمعقب الذي  
يكر على الشيء فيبطله، وحقيقته:  
الذي يعقبه أي: يُقَيِّه بالرد والإبطال.  
ومنه قيل لصاحب الحق: معقب لأنه  
يقضي غريمه بالاقضاء والطلب، قال  
ليبد:

حتى تهجر في الرواح وهاجها  
طَلَبُ المعقبِ حَقُّ المظلومِ  
والمعنى أنه حكَم للإسلام بالعَلْبَة  
والإقبال، وعلى الكفر بالإدبار  
والانتكاس.

أقول: وهذه كلمة فتية هي من أوائل  
ما عُرف من المصطلح القضائي.



## المعاني اللغوية في سورة «الرعد» (\*)

ظرفاً لشيء مذكور قبله، ثم جعل هذا الذي استفهم عنه استفهاماً آخر، وهذا بعيد. وإن شئت لم تجعل في (إذا) استفهاماً وجعلت الاستفهام في اللفظ على (إننا)، كأنك قلت «يوم الجمعة أعبد الله منطلق» وأضمرت فيه. فهذا موضع قد ابتدأت فيه (إذا) وليس بكثير في الكلام. ولو قلت «اليوم إن عبد الله مُنْطَلِقٌ» لم يحسن وهو جائز. وقد قالت العرب «مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ لَصَالِحٌ» يريد: إِنَّهُ لَصَالِحٌ مَا عَلِمْتُ.

وقال تعالى: ﴿مُسْتَخْفٍ بِأَلْيَلٍ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ﴾ فقوله سبحانه: ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ أي: ظاهر. و(السارب): المُنْوَري.

قال تعالى: ﴿كُلٌّ يَمْرِي﴾ [الآية ٢] يعني كُلُّهُ كما تقول «كُلُّ مُنْطَلِقٍ» أي: كُلُّهُمْ.

وقال تعالى: ﴿رَوَّيْنِ﴾ [الآية ٣] فواحدتها «رايئة».

وقال تعالى: ﴿أَوَدَا كُنَّا تَرْبَا أَوَدَا لَنِي خَلَقَ جَدِيدٌ﴾ [الآية ٥]. وفي موضع آخر: ﴿أَوَدَا كُنَّا تَرْبَا وَمَاؤُنَا أَنِنَا لَمُخْرِجُونَ﴾ [النمل] فالآخر هو الذي وقع عليه الاستفهام والأول حرف، كما تقول «أَبْزَمَ الْجُمُعَةِ زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ». ومن أوقع استفهاماً آخر جعل قوله تعالى: ﴿أَوَدَا يَتَنَا وَكُنَّا تَرْبَا﴾ [المؤمنون/ ٨٢، والصافات/ ١٦ و٥٣، وق/ ٣، والواقعة/ ٤٧]

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

وَأَمَّا (الْمُعْقَبَاتُ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿لَمْ يُقَيِّمْتَ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الْأَيَّةُ ١١]  
فَإِنَّمَا أَتَيْتَ لِكثْرَةِ ذَلِكَ مِنْهَا نَحْوِ  
«السَّابَةِ» وَ«الْعَلَامَةِ»، ثُمَّ ذُكِرَ السِّيَاقُ  
لِأَنَّ الْمَعْنَى مَذْكُرٌ، فَقَالَ تَعَالَى:  
﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup> [الْأَيَّةُ ١١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَالْقُدُّوْا وَالْأَمَّا﴾<sup>(٢)</sup>  
و﴿يَالْفَسِيْهِ وَالْإِبْكَارِ﴾<sup>(٣)</sup> [آلِ عِمْرَانَ،  
وغافر/٥٥]<sup>(٢)</sup> بِجَعْلِ ﴿يَالْقُدُّوْا﴾ يَدُلُّ عَلَى  
الْعُدَاوَةِ وَإِنَّمَا «الْعُدُوْا» فِعْلٌ. وَكَذَلِكَ  
(الْإِبْكَارُ) إِنَّمَا هُوَ مِنْ «أَبْكَرَ» [إِبْكَارًا].  
وَالَّذِينَ قَالُوا (الْأَبْكَارُ)<sup>(٣)</sup> احْتَجَّوْا بِأَنَّهُمْ  
جَمَعُوا «بُكَرًا» عَلَى «أَبْكَارَ». وَ«بُكَرَ» لَا  
تَجْمَعُ لِأَنَّهُ اسْمٌ لَيْسَ بِمَتَكِّنٍ، وَهُوَ  
أَيْضًا مُصَدَّرٌ مِثْلُ «الْإِبْكَارِ»؛ فَأَمَّا الَّذِينَ  
جَمَعُوا فَقَالُوا إِنَّمَا جَمَعْنَا «بُكَرَةً»  
و«عُدُوَّةً». وَمِثْلُ «الْبُكَرَةِ» وَ«الْعُدُوَّةِ» لَا  
يَجْمَعُ هَكَذَا. لَا تَجِيءُ «فُعْلَةٌ» وَ«أَفْعَالٌ»  
وَأَمَّا تَجِيءُ «فُعْلَةٌ» وَ«فُعِلَ».

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾

[الْأَيَّةُ ١٦] فَهَذِهِ (أَمْ) الَّتِي تَكُونُ مَنْقُطَةً  
مِنْ أَوَّلِ الْكَلَامِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَاكَتْ أَرْوَاهُ بِقَدْرِيهَا﴾  
[الْأَيَّةُ ١٧] تَقُولُ: «أَعْطِنِي قَدْرَ شَيْبِرٍ»  
وَقَدْرَ شَيْبِرٍ» وَتَقُولُ: «قَدْرْتُ» وَأَنَا  
أَقْدِرُ» «قَدْرًا» فَأَمَّا الْمِثْلُ فَفِيهِ «الْقَدْرُ»  
و«الْقَدَرُ».

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَتَّعَ رَبِّي نَفْلَهُمُ﴾  
[الْأَيَّةُ ١٧] أَيْ: «وَمَنْ ذَلِكَ الَّذِي يَوْقِدُونَ  
عَلَيْهِ رَبِّيَ مِثْلَ هَذَا».

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَذْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ  
بَابٍ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿سَلَّمَ عَلَيْكَ﴾ [الْأَيَّةُ ٢٤] أَيْ:  
يَقُولُونَ «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ».

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ  
مَتَابٍ﴾<sup>(٥)</sup> فـ ﴿طُوبَى﴾ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ  
يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ رَفْعُ ﴿وَحَسَنُ مَتَابٍ﴾  
وَهُوَ يَجْرِي مَجْرَى «وَيْلٌ لِّزَيْدٍ» لِأَنَّكَ  
قَدْ تَضَيَّفْتَهُمَا بِغَيْرِ لَامٍ تَقُولُ «طُوبَاكَ»،  
وَلَوْ لَمْ تَضَفْهَا لَجَرَتْ مَجْرَى «نَفْسًا  
لِّزَيْدٍ». وَإِنْ قُلْتَ: «لَكَ طُوبَى» لَمْ

(١) نقله في التهذيب ١/٢٧٣ عقب، وزاد المعبر ٤/٤١٢.

(٢) في البحر ٢/٣٥٣ قراءة كسر الهمزة إلى الجمهور.

(٣) في الشواذ ٢٠ إلى بعضهم.

يَحْسُنْ، كما لا تقول: «لَكَ وَنَيْلٌ».

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ [الآية ٣٣] فهذا في المعنى «أَفَمَنْ هُوَ قائم

على كل نفس مثل شركائهم»، وحذف، فصار ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يدل عليه.





## لكل سؤال جواب في سورة «الزهد» (\*)

فكان المعنى: سواء منكم اثنان: مستخف بالليل، وسارب بالنهار.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَاةُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي في ضياع وبطلان، والكفار يدعون الله تعالى في وقت الشدائد والأهوال، ومشارفتهم الفرق في البحر، فيستجيب لهم؟

قلنا: المراد: وما عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال، ويعضده قوله تعالى قبله في الآية نفسها: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي يعبدون.

فإن قيل: كيف طابق قولهم كما ورد في التنزيل ﴿لَوْلَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ آيَاتِنَا مِن رَّبِّكَ﴾ (بونس/ ٢٠) قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَفْطَرْنَ وَهُوَ ظَاهِرٌ لِّأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (آب/ ١٧)؟

إن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِآيَاتِي وَسَارِبٌ بِأَنْهَارِي﴾ ولم يقل ومن هو سارب بالنهار، ليتناول معنى الاستواء المستخفي والسارب، وإلا فقد تناول واحداً هو مستخف وسارب: أي ظاهر، وليناسب لفظ الجملة الأولى والثانية، فإنه قال في الجملة الأولى: ﴿مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ (الآية ١٠).

قلنا: قوله تعالى: ﴿وَسَارِبٌ﴾ معطوف على ﴿وَمَنْ﴾ لا على مستخف، فيتناول معنى الاستواء اثنين. الثاني: أنه وإن كان معطوفاً على مستخف، إلا أن (مَنْ) هنا في معنى التثنية كقوله:

\* نَكُنْ بِمَثَلٍ مَّنْ يَأْذُنُ بِضَطِّجَانٍ \*

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها» لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

قلنا: هو كلام جرى مجرى التعجب من قولهم، لأن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيها رسول الله (ص) لم يؤتتها نبي قبله، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية؛ فإذا جحدوا آياته ولم يعتدوا بها، وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط، كان موضعاً يتعجب منه؛ فكانه قيل لهم: ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم.

فإن قيل: كيف المطابقة بين قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الآية ٣٣] وقوله سبحانه بعد ذلك في الآية نفسها: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾.

قلنا: فيه محذوف تقديره: أفمن هو رقيب على كل نفس صالحة وطالحة، يعلم ما كسبت من خير وشر، ويعتد لكل جزاء، كمن ليس كذلك وهو الصنم؟ ثم ابتدأ السياق بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أو تقديره: أفمن هو بهذه الصفة لم يوخده وجعلوا له شركاء، أو التقدير: أفمن كان بهذه الصفة يغفل عن أهل مكة وأقوالهم وأفعالهم، وجعلوا لله شركاء.

فإن قيل: كيف اتصل قوله تعالى في الآية نفسها: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ أَنَا أَعْبُدُ اللَّهَ﴾ بما قبله، وهو قوله تعالى ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمُ﴾ [الآية ٣٦].

قلنا: هو جواب للمنكرين، معناه: قل إنما أمرت فيما أنزل إلي بأن أعبد الله ولا أشرك به. فإنكارهم لبعضه إنكار لعبادة الله تعالى وتوحيده، كذا أجاب به الزمخشري، وفيه نظر.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أثبت لهم مكرراً، ثم نفاه عنهم، بقوله تعالى في الآية نفسها: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الآية ٤٢]؟

قلنا: معناه أن مكر الماكرين مخلوق له، ولا يصير إلا بإرادته؛ فبهذه الجهة، صحت إضافة مكرهم إليه سبحانه. الثاني: أنه جعل مكرهم كلاً مكر بالإضافة إلى مكره، لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون، فيعكس مكرهم عليهم، فإثباته لهم باعتبار الكسب، ونفيه عنهم باعتبار الخلق.

## المعاني المجازية في سورة «الزهد» (\*)

استعارة. والمراد بها مضي المثلثات، وهي «العقوبات» للآم السالفة من قبلهم، وتقدمها أمامها. وقولهم: خَلَّت الدار. أي مضى سكانها عنها. وَخَلَّوْا هم. أي مَضَوْا عن الدار وتركوها. وقولهم: القرون الخالية، أي الماضية.

والعقوبات على الحقيقة لم تَمْضِ<sup>(٢)</sup>، وإنما مضى المعاقبون بها. فكانهم ذُكِرُوا بالعقوبات الواقعة قبلهم، ليعتبروا بها.

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَمْلِكُ مَا تَحْمِلُ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (الآية ٥). و(جديد) استعارة. لأن أصله ههنا مأخوذ من الجد، وهو القطع. يقال: قد جَدَّ الثوب، فهو جديد بمعنى مجدود. إذا قطع من منسجه، أو قطع لاستعمال لابس. والمراد، والله أعلم، إِنَّا لَفِي خلق جديد، أي قد تُرِغ من استثنائه، وأعيد إلى موضع ثوابه وعقابه، فصار كالثوب الذي قطع<sup>(١)</sup> منسجه بعد الفراغ من عمله.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَسْتَعِزُّوهُ بِالَّذِينَ قَبْلَ الْكَافِرِينَ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَنُكَةُ﴾ (الآية ٦). وهذه

(١) انشقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشيخ الشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرخ.

(٢) هكذا بالأصل ولعلها. قطع من منسجه.

(٣) في الأصل: لم يمض وهو تحريف من الناسخ. والعقوبات هي المثلثات التي قال الله فيها إنها قد خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ.

كُلُّ أَشْءٍ وَمَا تَقِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴿[الآية ٨]﴾. وهذه استعارة عجيبة. لأن حقيقة الغيظ إنما يوصف بها الماء دون غيره. يقال: غاض الماء وغيضته<sup>(١)</sup>، ولكن النطفة لما كانت تسمى ماء، جاز أن توصف الأرحام بأنها تغيضها في قرارها، وتشتمل على نفاعاتها<sup>(٢)</sup>. فيكون ما غاضته من ذلك الماء سبباً لزيادة، بأن يصير مضغة، ثم علقه ثم خلقه مصورة. فذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾. وقيل أيضاً: معنى ﴿وَمَا تَقِيصُ الْأَرْحَامُ﴾. أي ما تنقص بإسقاط العلق، وإخراج الخلق. ومعنى: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي ما تلده لتمام، وتؤدي خلقه على كمال. فيكون الغيظ ههنا عبارة عن نقصان، والازدياد عبارة عن التمام.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْجُدُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الأنبياء ١٣]. وهذه استعارة. لأن التسبيح في الأصل تنزيه الله سبحانه عن شبه

المخلوقات، وتبرئته من مدانس الأعمال، وقبائح الأفعال. وهذا لا يتأتى من الرعد، الذي هو إصكاك أجرام السحاب بعضها ببعض. فالمراد، والله أعلم، أن أصوات الرعد تقوى بها الدلالة على عظيم قدرة الله سبحانه، وبعده عن شبه الخليفة المقدرة، وصفات البرية المدبرة. إذ كان الرعد كما قلنا إنما تغلظ أصواته، وتعظم هزاته على حسب تعاضم صفحات السحاب الممتدة، وتراكم الغيوم المطبقة. وهي مع هذه الأحوال، من ثقل أجرامها، وتكاثف غمامها معلقة بمناطات الهواء الرقيق، لولا دعائم القدرة وسماكها، وعلائق الجبرية وسماكها، لما حمل عشر معشارها، ولا استقل ببعض أجزائها.

ومن عجيب أحواله أنه أيضاً مع ما ذكرنا من تشاغل أردافه، وتعاضل<sup>(٣)</sup> التفافه بنفسه<sup>(٤)</sup> انفشاش الهباء

(١) غاض الماء: نقص. وغيض أنا أي نقصته.

(٢) النفاعات: جمع نفاع وهو الشيء الذي يتفنع به.

(٣) التعاضل: هو تكاثر الشيء وركوب بعضه فوق بعض. ومنه المعاضلة في الكلام أي تعقيد وموالاته بعضه فوق بعض.

(٤) انفش: أي سكن ولان بعد شدة.

المتداعي، والغناء المتلاشي. إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار.

ومعنى تسبيح الرعد بحمده سبحانه: دلالة على أفعاله التي يستحق بها الحمد، كما يقول القائل: هذه الدار تنطق بفناء أهلها. أي تدل على ذلك بخلاء ربوعها، وتهديم عروشها.

وقد يجوز أن يكون معنى: ﴿وَسُبِّحَ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ أن الرعد يضطر الناس إلى تسبيح الله سبحانه عند سماعه، فحسَن وصفه بالتسبيح لأجل ذلك، إذ كان هو السبب فيه. وهذا معروف في كلامهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ تَسْبِيحٌ مِّن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَّهُم بِالْقُدْرَةِ وَالْأَصَالِ ۝٦٧﴾. وهذه استعارة. لأن أصل السجود في اللغة الخضوع والتذلل. إما باللسان الناطق عن الجملة أو بآثار الصنعة وعجائب الخلقة. ثم نقل فصار اسماً لهذا العمل المخصوص الذي هو من أركان

الصلاة، لأنه يدل على تذلل الساجد لخالقه، بتطامن شخصه، وانحناء ظهره. وقد ذكر في بعض الأخبار أن جدنا جعفر<sup>(١)</sup> بن محمد عليهما السلام سئل عن العلة فيما كلف الله سبحانه من أعمال الصلاة وسائر العبادات، فقال: أراد الله سبحانه بذلك إذلال الجبارين. فإذا تمهد ما ذكرنا، كان في ذكر «الظلال» فائدة حسنة، وهو أن الظل الذي هو في سجود الشخص وهو غير قائم بنفسه، إذا ظهرت فيه أعلام الخضوع للخالق تعالى، بما فيه من دلائل الحكمة وعجائب الصنعة، كان ذلك أعجب من ظهور هذه الحال في البنية القائمة بنفسها، والمعروفة بشخصها.

وقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَذَهِبْ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَنَكُتْ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝٦٨﴾. وهذه استعارة. والمراد بضرب الأمثال، والله أعلم، معنيان: أحدهما أن يكون تعالى أراد

(١) جعفر بن محمد، هو أبو عبدالله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهم. وهو سادس الأئمة الاثني عشر. وكان واسع العلم، أخذ عنه أبو حنيفة ومالك وجابر بن حيان. ولقب بالصادق لأنه لم يمهّد عليه كذب قط. توفي سنة ١٤٨ هـ بالمدينة.

بضربها تسييرها في البلاد، وإدارتها على السنة الناس. من قولهم: ضَرَبَ فلان في الأرض. إذا توغل فيها وأبعد في أقاصيها. ويقوم قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (٧) مقام قوله ضَرَبَ بها في البلاد.

والمعنى الآخر في ضرب المثل، أن يكون المراد به نَضْبَةُ للناس بالشهرة، لتستدل عليه خواطرهم، كما تستدل على الشيء المنسوب نواظرهم. وذلك مأخوذ من قولهم: ضربت الخبأة؛ إذا نصبته، وأثبت طنبه<sup>(١)</sup>، وأقامت عمده، ويكون قوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ [الآية ١٧]. السى هذا الوجه. أي ينصب منارهما، ويوضح أعلامهما، ليعرف المكلّفون الحق بعلاماته فيقصده، ويعرفوا الباطل فيجتنبوه.

وقوله سبحانه: ﴿أَفَنَنْتَ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الآية ٣٣] وهذه استعارة. والمراد به أنه تعالى مُخَصِّصٌ على كل نفس ما كسبت، ليجازيها به.

وشاهد ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ يَسِيْرَ لَا يُوْذَوْنَ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِمْ قَائِمًا﴾ [آل عمران/ ٧٥]. أي ما دمت له مطالباً، ولأمره مراعيّاً، لا تمهله للحيلة، ولا تنظره لليلة<sup>(٢)</sup>.

وإذا لم يصح إطلاق صفة القيام على الله سبحانه حقيقة، فإن المراد بها قيام إحصائه على كل نفس بما كسبت، ليطالبها به، ويجازيها عنه بحسبه. والقيام والدوام ههنا بمعنى واحد. والماء الدائم هو القائم الذي لا يجري.

وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الآية ٤١]. وهذه استعارة. وقد اختلف الناس في المراد بها، فقال قوم: معنى ذلك نقصان أرض المشركين، بفتحها على المسلمين. وقال آخرون: المراد بنقصانها موت أهلها، وقيل موت علمائها.

وعندي في ذلك قول آخر، وهو أن يكون المراد بنقص الأرض، والله

(١) الطُّب: جبل طويل يشد به سراق البيت. والجمع أطباب.

(٢) الغيلة بكسر الغين: الخديعة والاحتيال.

أعلم، موت كرامها. وتكون الأطراف  
ههنا جَمَعَ طَرْف. لا جمع طَرْف،  
والطَّرْف هو الشيء الكريم. ومنه سُمِّيَ  
الْفَرْسُ طَرْفًا، إذ كان كريماً. وعلى  
ذلك قول أبي الهندي<sup>(١)</sup> الرياحي:

شربنا شربةً من ذاتِ عَرْقٍ  
بأطرافِ الزجاجِ من العصيرِ  
أي بكرائم الزجاج. ولم يمض في  
هذا القول لأحد.

---

(١) في الأصل: أبو الهند وهو تحريف من التاسخ. واسمه عبد المؤمن بن عبد القدوس، وهو من بني زيد بن رباح. وقد ترجم له ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» ص ٦٦٣ من طبعة عيسى الحلبي، بتحقيق الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر، وذكر صاحب «المعتمد الفريد» خبراً له، وطُرفاً من أقواله ونوادر شرابه. جزء ٦ ص ٣٤٢.



# سورة ابراهيم





## أهداف سورة «إبراهيم» (\*)

وتنقص أطرافاً. فيحسبها القارئ جديدة بما وقع فيها من تجديد، وذلك من الإعجاز القرآني في طريقة الأداء.

ويبدو أنه كان لأسلوب السورة من اسمها نصيب. . إبراهيم: أبو الأنبياء، المبارك، الشاكر، الأواب، المنيب. وكل الظلال التي تخلعها هذه الصفات ملحوظة في جو السورة وفي الحقائق التي تبرزها، وفي طريقة الأداء، وفي التعبير والإيقاع.

ولقد تضمنت السورة حقائق رئيسية عذّة في العقيدة، ولكن حقيقتين كبيرتين تظهران أكبر من غيرهما في سورة إبراهيم:

الحقيقة الأولى: وحدة الرسالة

سورة إبراهيم سورة مكتبة. موضوعها الأساسي هو موضوع السور المكتبة الغالب، وهو العقيدة في أصولها الكبيرة. وتشمل الرسالة والتوحيد والبعث والحساب والجزاء.

ولكن السياق في هذه السورة يسلك نهجاً خاصاً في عرض هذا الموضوع وحقائقه الأصلية، نهجاً مفرداً يميزها عن غيرها من السور، يميزها بجوها، وطريقة أدائها، والحقائق الكبرى التي تتضمنها، ولون هذه الحقائق التي قد لا تفترق موضوعياً عن مثيلاتها في السور الأخرى، ولكنها تعرض من زاوية خاصة. كما تختلف مساحتها في رقعة السورة وجوها، فتزيد أطرافاً

(\*) انتهى هذا الفصل من كتاب «أهداف كل سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ - ١٩٨٤.

والرسل ووحدة دعوتهم . ووقفتم أمة واحدة في مواجهة الفرقة المكذبة بدين الله على اختلاف الأمكنة والأزمنة .

والحقيقة الثانية : بيان نعمة الله على البشر وزيادة النعمة بالشكر ومقابلة أكثر الناس لها بالجحود والكفران .

تبدأ السورة ببيان وظيفة الرسول وبيان هدف القرآن . وهذه الوظيفة هي هداية الناس ، وإبطال عادات الجاهلية وقيمها . وإرساء معالم التوحيد والعدالة والمساواة . قال تعالى :

﴿الرَّ كُتِبَ عَلَيْكَ إِلَيْكَ تَخْرُجَ  
أَنفَاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ  
إِلَّا صِرَاطَ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (١)

وتختتم السورة بهذا المعنى وبالحقيقة الكبرى التي تتضمنها الرسالة ، حقيقة التوحيد في قوله تعالى :

﴿هَذَا بَلَّغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا  
أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو  
الْأَلْبَابِ﴾ (٥٦)

وفي أثناء السورة نجد أن موسى (ع) قد أرسل يمثل ما أرسل به محمد (ص) وللهدف نفسه ، وهو إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا  
أَن أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى  
النُّورِ﴾ (الآية ١٥) .

وتذكر السورة أن وظيفة الرسل عامة ، هي بيان الحق وتوضيح طريق الهداية إلى الله ، قال تعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ  
قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (الآية ٤) .

وتبين السورة أن الرسول بشر يوحى إليه ، وأن بشريته هي التي تحدد وظيفته ، فهو مبلغ ومنذر وناصح ومبين ولكنه لا يملك أن يأتي بخارقة أو معجزة إلا بإذن الله ، وحين يشاء الله ، لا حين يشاء هو أو قومه ؛ ولا يملك الرسول أن يهدي قومه أو يضلهم ؛ فالهدى والضلال متعلقان بسنة الله التي اقتضتها مشيئته المطلقة . ولقد كانت بشرية الرسل موضع الاعتراض من الأقوام جميعهم في جاهليتهم . والسورة هنا تحكي قولهم مجتمعين :

﴿قَالُوا إِن آتَيْنَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ  
أَن نَّصُدُّوكُمْ عَمَّا كَانَتْ يَمِينُكُمْ  
فَأَنزَلْنَا سُلَاطِينَ مُبِينِينَ﴾ (١٦) .

وتحكي رد رسلهم كذلك مجتمعين :  
﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ

يُنْشِئُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. وَمَا كُنَّا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾.

ويتضمن السياق كذلك، أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور إنما يكون ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وكل رسول يبين لقومه

﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ بَشَرٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١١﴾.

وبهذا أو ذاك تتحدد حقيقة الرسول، فتتحدد وظيفته في نطاق هذه الحقيقة ولا تشبه حقيقة الرسل البشرية وصفاتهم، بشيء من حقيقة الذات الإلهية وصفاتها. وكذلك يتجرد توحيد الله بلا ظل من مماثلة أو مشابهة، كذلك تتضمن السورة تحقق وعد الله للرسل والمؤمنين بهم إيماناً حقاً، ويتحقق ذلك الوعد في الدنيا بالنصر والاستخلاف، وفي الآخرة بعذاب المكذبين ونعيم المؤمنين.

ويصور السياق هذه الحقيقة الكبيرة في نهاية المعركة بين الرسل مجتمعين وقومهم مجتمعين.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ

لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي بِلَدِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾ وَلَنَخْرِجَنَّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٣﴾ وَلَنَسْتَفْتَحُنَّ خِزْيَانًا كُلَّهُ وَلَنَسْجُرَّ بَسْجُرًا عَنِيذِ رَبِّي ﴿١٤﴾.

## وحدة الرسائل السماوية

### في سورة إبراهيم

الظاهرة البارزة في سورة إبراهيم أنها تتحدث عن الرسل جميعاً كأنهم أصحاب فكرة واحدة وهدف واحد، وكان جواب قومهم كان جواباً موخداً، في العصور والأحوال جميعها.

وتعرض السورة هذه الفكرة بطريقة فريدة في الأداء. لقد أبرزها سياق بعض السور الماضية في صورة توحيد الدعوة التي يجيء بها كل رسول، فيقول كلمته لقومه ويمضي ثم يجيء رسول ورسول. كلهم يقولون الكلمة ذاتها، ويلقون الرد ذاته ويصيب المكذبين ما يصيبهم في الدنيا، وينظر بعضهم ويمهل إلى أجل في الأرض أو إلى أجل في يوم الحساب. ولكن السياق هناك، كان يعرض كل رسول في مشهد، كالشريط المتحرك منذ

مُيَسَّرٌ ﴿١٦﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴿١٦﴾

فهنا تتجمع الأجيال من لدن نوح (ع)، وتتجمع الرسل ويتلاشى الزمان والمكان وتبرز الحقيقة الكبرى: حقيقة الرسالة وهي واحدة واعتراضات المكذبين وهي واحدة، وحقيقة نصر الله للمؤمنين وهي واحدة، وحقيقة استخلاف الله للصالحين وهي واحدة، وحقيقة الخيبة والخذلان للمتجبرين وهي واحدة، وحقيقة العذاب الذي ينتظرهم هناك وهي واحدة.

\* \* \*

ولا تنتهي المعركة بين الكفر والإيمان هنا، بل يتابع السباق خطواته بها إلى ساحة الآخرة فتبرز معالمها في مشاهد القيامة المتنوعة التي تتضمنها السورة وهي تشير إلى أنها معركة واحدة تبدأ في الدنيا وتنتهي في الآخرة ولا انفصال بينهما، ولكن تكمل إحداها الأخرى.

وتكمل الأمثال التي تبدأ في الدنيا وتنتهي في الآخرة إبراز معالم المعركة

الرسالات الأولى، وأقرب مثل لهذا النسق سورة هود، فأما سورة إبراهيم - أبي الأنبياء - فتجمع الأنبياء كلهم في صف، وتجمع المكذبين كلهم في صف، وتجري المعركة بينهم في الأرض، ثم لا تنتهي هنا، بل تتابع خطواتها كذلك في يوم الحساب.

ونبصر مشهد أمة الرسل، وفرقة المكذبين في صعيد واحد على تباعد الزمان والمكان. فالزمان والمكان عَرَضَانِ زائِلَانِ، أما الحقيقة الكبرى في هذا الكون - حقيقة الإيمان والكفر - فهي أضحى وأبرز من عَرَضِي الزمان والمكان.

قال تعالى:

﴿إِنَّا بَاتِكُمْ لَيْلًا ظُلُمَاتٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ فَأَنزَلْنَا نُوحًا وَعَاوَنَاهُ عَلَىٰ سَفِينَةٍ لَّدُنَّا وَبَدَوْنَاهُم بَحْرًا مَّعْجُونًا إِلَّا نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا فِي الْغُلْفَةِ وَقُلْنَا لَهُمْ إِنَّا هِيَ الْغُلْفَةُ فَاسْقُوا وَأَنزَلْنَا مُوسَىٰ بِرُحْمَىٰ رَبِّنَا إِتَّخَذَ الْكُفْرُ لَكُمْ مَصْرُوفًا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ يُكَفِّرُ عَنْكَ سَيِّئَاتِكَ إِنَّكَ فَجَاءَ نَصْرَكَ فَانصَلَ إِلَيْكُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ وَجَاءَ الْغُلَامُ أَنصَرَ فَلَتَنَالِ الْعِاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾

## المقطع الثاني من سورة إبراهيم

تنقسم سورة إبراهيم الى مقطعين  
متناسكي الحلقات:

المقطع الأول: يتضمن بيان حقيقة  
الرسول، ويصور المعركة بين أمة الرسل  
وفرقه المكذبين في الدنيا والآخرة،  
ويعقب عليها بمثل الكلمة الطيبة  
والكلمة الخبيثة، وقد تحدثنا عن هذا  
المقطع.

والمقطع الثاني: من سورة إبراهيم  
يتحدث عن نِعَم الله على البشر،  
والذين كفروا بهذه النعم وبطروا،  
والذين آمنوا بها وشكروا، ونموذجهم  
الأول هو إبراهيم (ع) ويصور مصير  
الظالمين الكافرين بنعمة الله، في  
سلسلة من أعنف مشاهد القيامة  
وأجملها، وأحفلها بالحركة والحياة.

### نِعَم الله

لقد عَدَّ الله سبحانه نعمه على البشر  
كافة، مؤمنهم وكافرهم، صالحهم  
وطالحهم، برهم وفاجرهم، طائعهم  
وعاصيهم؛ وإنها لرحمة من الله  
وسماحة وفضل، أن يتيح للكافر

بين الفريقين، ونتائجها الأخيرة، مثل  
الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة: شجرة  
النُور وشجرة الإيمان، وشجرة التوحيد  
والخير، والكلمة الخبيثة كالشجرة  
الخبيثة: شجرة الباطل والتكذيب والشر  
والطغيان. فالتوحيد وكلمته: شهادة أن  
لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.  
أصله ثابت موصل بالله وفرعه مرتفع  
إلى السماء ويؤتي ثماره كل حين  
بالصلاة والزكاة وسائر العبادات  
والأعمال النافعة في الدنيا والآخرة. أما  
شجرة الكفر فلا أصل لها تعتمد عليه،  
فهي تمثل الباطل في الدنيا، والخيبة  
في الآخرة.

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً  
طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ  
وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١١﴾ تَأْتِي مِنْهَا  
كُلُّ شَيْءٍ يَافِئٍ رِزْقًا وَيُضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ  
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ  
خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ  
الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿١٣﴾ يَتَّبِعُ اللَّهُ  
أَنفُسَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُغْنِي اللَّهُ  
الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿١٤﴾﴾

والفاجر والعاصي نعمة في هذه الأرض  
كالمؤمن والبار والطائع، لعلمهم  
يشكرون: ويعرض هذه النعم في  
أضخم مجالي الكون وأبرزها، ويضعها  
داخل إطار من مشاهد الوجود  
العظيمة:

﴿أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ  
وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ  
الْأَشْجَارِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ  
لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ  
الْأَنْهَارَ ﴿١٣١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ  
دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿١٣٢﴾  
وَاتَّخَذَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ  
تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ  
الْإِنْسَانَ لَقَلِيلٌ مِّنْ شَاكِرٍ ﴿١٣٣﴾﴾

وفي إرسال بعث الرسل نعمة تعدل  
تلك أو تربو عليها:

﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ بِإِذْنِكَ لِلْخُرُوجِ النَّاسِ  
مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الآية ١٠].

والنور أجلى نعم الله في الوجود،  
والنور هنا هو النور الأكبر، النور الذي  
يشرق به كيان الإنسان، ويشرق به  
الوجود في قلبه وحسه. وكذلك كانت  
وظيفة موسى (ع) في قومه، ووظيفة  
الرسل كما بيّنها السورة.

وفي قول الرسل مجتمعين:

﴿يَدْعُوكُمْ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ مِنْ دُؤْبِكُمْ﴾  
[الآية ١٠].

والدعوة لأجل الغفران نعمة تعدل  
نعمة النور، وهي منه قريب:

وفي هذا الجو يذكر وعد الله  
لِلرسل.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا رُسُومَهُمْ لَتُبْلَغُنَّ  
الظَّالِمِينَ ﴿١٣٤﴾ وَلَتَحْجُنَّكَ الْأَرْضُ مِنْ  
بَعْدِهِمْ﴾.

وهي نعمة. ويبرز السياق حقيقة  
زيادة النعمة بالشكر:

﴿وَإِذَا نَادَا رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ  
لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي  
لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾.

مع بيان أن الله غني عن الشكر وعن  
الشاكرين:

﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا  
فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

ويقرر السياق، أن الانسان في  
عمومه لا يشكر النعمة حق الشكر.

﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا  
إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَلِيلٌ مِّنْ شَاكِرٍ ﴿٧٦﴾﴾.

ولكن الذين يتدبرون آيات الله،

وتتفتح لها بصائرهم، يصبرون على  
البأساء ويشكرون على النعماء.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ  
شَكُورٍ﴾.

ويتمثل الصبر والشكر في شخص  
إبراهيم (ع) حين يقف خاشعاً، ويدعو  
ربه عند البيت الحرام، دعاء مخلصاً،  
كله حمد وشكر، وصبر وإيمان:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا  
الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ  
الْأَصْنَامَ ﴿٢٥﴾ رَبِّ إِنِّي أَخْلَصْتُكَ مِنَ  
النَّاسِ مَنْ يَتَّبِعُنِي فَاقْتُلْهُمْ مَعِيَ وَمَنْ عَصَانِي  
فَأِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَتُكِّتُ  
مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ  
الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً  
مِنْ النَّاسِ يَهْوَى إِلَىٰ إِلَهُهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ  
الْفَرَثِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ  
مَا نَخْفَىٰ وَمَا نَعْلُنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ  
شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٨﴾ الْحَمْدُ  
لِلَّهِ الَّذِي هَدَىٰ لِي عَلَى الْكَبَرِ إِسْتِغْفِرُ  
وَلِإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ ﴿٢٩﴾ رَبِّ  
اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا  
وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٣٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ

وَالْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٣١﴾﴾.

ولأن النعمة والشكر عليها والكفر  
بها، تطبع جو السورة؛ فإن التعبيرات  
والتعليقات تجيء فيها متناسقة مع هذا  
الجو، في قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ  
شَكُورٍ﴾.

وقوله سبحانه:

﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾  
[الآية ٦].

وفي رد الأنبياء على اعتراض  
المكذابين بأنهم بشر، يجيء قوله  
سبحانه:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ  
عِبَادِهِ﴾ [الآية ١١].

فيبرز منه الله، تنسيقاً للرد مع جو  
السورة كله، جو النعمة والمنة والشكر  
والكفران؛ وهكذا يتساقط التعبير  
اللفظي مع الفكرة العامة للسورة، على  
طريقة التناسق الفني في القرآن.

\*\*\*



## ترابط الآيات في سورة «إبراهيم» (\*)

لذكر قصة إبراهيم (ع) بمكة فيها،  
وتبلغ آياتها اثنتين وخمسين آية.

### الغرض منها وترتيبها

يقصد من هذه السورة بيان الغرض  
من نزول القرآن، وهو هداية الناس  
بالتروغيب في الثواب والترهيب من  
العقاب. وقد افشحت هذه السورة ببيان  
هذا الغرض، ثم انتقل من هذا إلى بيان  
موافقة القرآن للكُتُب المُنزلة قبله في  
هذا الغرض، ثم انتقل من هذا إلى  
تحذير مشركي مكة من تكذيبه بما  
حصل للمكذِّبين قبلهم؛ وبهذا ينقسم  
سياق هذه السورة إلى هذه الأقسام  
الثلاثة.

وقد جعلت بعد سورة الرعد لأنها

### تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة إبراهيم بعد سورة نوح،  
وهي من السور التي نزلت بمكة بعد  
الإسراء، فيكون نزولها مثلها بعد  
الإسراء وقبيل الهجرة، وعلى هذا  
تكون من السور المكيّة. وقيل إنها من  
السور المدنية، وقد قال الإمام فخر  
الدين الرازي: أعلم أن الكلام في أن  
هذه السورة مكية أو مدنية طريقه  
الآحاد، ومتى لم يكن في السورة ما  
يتصل بالأحكام الشرعية فنزلها بمكة  
والمدينة سواء. إنما يختلف الغرض  
في ذلك إذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ،  
فيكون فيه فائدة عظيمة.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب «النظم الفتي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجميزة -  
المطبعة التوضيحية بالحكمة الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

تشبهها في غرضها، وفي افتتاحها بالحروف التي افتتحت بها.

## نزول القرآن للترغيب في الإيمان والتحذير من الكفر الآيات [ ١ - ٣ ]

قال الله تعالى: ﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝﴾، فأقسم، بهذه الحروف، على أنه كتاب أنزله إليه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهذا هو طريق الترغيب. ثم حذر الذين يكفرون به من عذاب شديد. وهذا هو طريق التهيب؛ ثم ذكر سبحانه أن الذين يكفرون به هم ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝﴾.

## اتحاد الغرض من الكتب المنزلة الآيات [ ٤ - ١٨ ]

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ. لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ فذكر أن إنزال

القرآن لأجل هداية الناس هو شأن الكتب المنزلة قبله، وفصل هذا الإجمال بما كان من إرسال موسى (ع) إلى بني إسرائيل لإخراجهم من الظلمات إلى النور، فذكرهم بأيام العذاب التي مرت على الأمم قبلهم، وبنعمة الله عليهم إذ أنجاهم من آل فرعون، وأخبرهم بأنهم إن شكروا الله زادهم من نعمته، وإن كفروا به عاقبهم بشديد عذابه، وبأنهم إن يكفروا هم ومن في الأرض جميعاً، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ تَنَزَّلُ فِي حَيْدٍ ۝﴾.

ثم ذكر جلّ وعلا، أن هذا كان أيضاً شأن قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم، وأن رسلهم جاءتهم بالبينات فكفروا بهم، وشكوا فيما يدعونهم إليه من الإيمان بالله وحده، وأن رسلهم ردوا عليهم بأنه لا يصح الشك في الله سبحانه، وهو فاطر السماوات والأرض، إلى غير ذلك من الجدل الذي دار بينهم؛ ثم ذكر أنهم لجأوا، بعد هذا الجدل، إلى تهديد رسلهم بأن يخرجوهم من أرضهم أو يعودوا في ملتهم، وأنه أوحى إلى رسلهم، أنه سيهلكهم ويُسْكِيْهُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ، ثم ذكر ما عاقبهم به في الدنيا

تحتها الأنهار، على سُنَّتِه في ذكر وغده  
بَعْدَ وعيده.

ثم ضرب، في ترغيبهم وترهيبهم،  
مثلاً لحال المؤمنين وحالهم، فَشَبَّهَ  
الإيمان به جلَّ شأنه، بشجرة طِينَةٍ  
أصلها ثابت وفرعها في السماء،  
وثمرها دائم لا ينقطع. وشَبَّهَ الكفر به  
بشجرة خبيثة ليس لها أصل ولا عِرْقٌ  
ولا ثمر؛ ورَتَّبَ على ذلك أن صاحب  
الحال الثابت، يُثَبِّتُهُ اللهُ في الدنيا وفي  
الآخرة، وصاحب الحال الذي لا ثبات  
له يُضِلُّهُ اللهُ فلا يَهْتَدِي.

ثم ذكر تبديلهم نعمته عليهم بسكنى  
حَرَمِهِ كَفَرًا به، وجَعَلَهُمْ له أُنْدَادًا  
لِيُضِلُّوْا عن سبيله؛ وَأَمَرَهم أَمْرَ تَهْدِيدٍ  
أن يَتَمَتَّعُوا بنعيم الدنيا فإن مصيرهم إلى  
النار، وَأَمَرَ المؤمنين أن يخالِفُوهم في  
ذلك فيقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقهم  
من قبل أن يَأْتِيَهُمْ يوم لا ينفعهم فيه إلا  
ما قدمت أيديهم؛ ثم ذكر من نعمه  
العامة عليهم وعلى غيرهم بعد تلك  
النعمة الخاصة، أن خلق السماوات  
والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج  
به من الثمرات رزقاً لهم، إلى غير هذا  
من نِعَمِهِ التي لا تُحصى ولا تعد، ولا

والآخرة، وَضَرَبَ مثلاً لِحُبُوطِ أَعْمَالِهِمْ  
في الآخرة، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ  
كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ  
الْزُلْجَمُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا  
كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَافُ  
الْبَعِيدُ﴾.

### ترهيب المشركين وترغيبهم الآيات [١٩ - ٥٢]

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَأَتْهُ أَفْئِدَةُ  
الْحَمْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ  
يُدْهِكْكُمْ وَيَأْتِ بِحُلِيِّ جَدِيدٍ﴾ فذكر  
في ترهيبهم أنه خلق السماوات  
والأرض بالحق، فهو قادر على أن  
يهلكهم كما أهلك أولئك الأقوام ويأتي  
بخلق غيرهم يؤمنون به، ثم ذكر ما  
يكون من إعادتهم بعد هلاكهم  
وبروزهم له، وما يكون من سؤال  
الضعفاء للمستكبرين أن يُغْنُوا عنهم  
شيئاً من عذابه، وما يجيب المستكبرون  
من أنه لا مَفْرَءَ منه جَزَعُوا أو صبروا،  
وما يكون من تَبَرُّؤِ الشيطان منهم  
وإيقاعه اللوم عليهم لسماعهم لإغوائه  
وإعراضهم عن نُصْحِ اللهِ لهم، ثم ذكر  
ما أعدّه للمؤمنين من جنات تجري من

يَصْخُ أَنْ يَقَابِلُوهَا بِاتِّخَاذِ أَنْدَادٍ لَهُ،  
سَبْحَانَهُ .

ثم عاد السياق إلى ذكر تلك النعمة  
الخاصة فشرحها وَتَيَّنَ كَيْفَ بَدَّلُوا فِيهَا؛  
فذكر أن إبراهيم دعا ربه أن يجعل مكة  
بلداً آمناً، وَأَنْ يُجَنِّبَهُ وَبَنِيهِ عِبَادَةَ  
الْأَصْنَامِ، وأنه شكاه لربه أنه أسكن ذريته  
من ابنه إسماعيل بؤادٍ غير ذي زرع عند  
بيته الْمُحَرَّمِ ليعبدوه فيه، وأنه سأله أن  
يجعل أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ  
بِالْحَجِّ وَغَيْرِهِ، إلى غير هذا مما حكاه  
عنه .

ثم عاد السياق إلى ترهيبهم، فذكر  
أنه سبحانه، ليس بغافل عما يفعلون،  
وأنه يُؤَخِّرُ عَذَابَهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ  
أَبْصَارُهُمْ مِنْ شِدَّتِهِ، وأنه إذا أتاهم  
يسألونه أن يؤخروهم إلى أجلٍ قريبٍ

ليجيئوا دعوته ويتبعوا رسله، وأنه  
يجيبهم بتذكيرهم بأنهم كانوا يُقْسِمُونَ  
من قبل: مَا لَهُمْ مِنْ زَوَالٍ إِلَى حَيَاةٍ  
أُخْرَى؛ وبأنهم سكنوا في مساكن الذين  
كذبوا قبلهم، وَتَيَّنَ لَهُمْ مَا فَعَلَ بِهِمْ،  
فلم يعتبروا بما حصل لهم. ثم ذكر  
أنهم قد مكروا مَكْرَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ سَكَنُوا  
فِي مَسَاكِنِهِمْ، وأنه ليس بغافل عن  
مكرهم؛ ونهى النبي (ص) أن يظن أنه  
مُخْلِفٌ وعده بعذابهم؛ ثم ذكر أنه  
سيأتي يوم تُبَدَّلُ فِيهِ الْأَرْضُ غَيْرَ  
الْأَرْضِ، ويبرزون إليه مُقَرَّنِينَ فِي  
الْأَصْفَادِ، سرايلهم من قِطْرَانٍ وَتَغْشَى  
وُجُوهَهُم النَّارُ؛ وأنه سبحانه يعيدهم  
في ذلك اليوم لِيَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ مَا  
كَسَبَتْ، إنه سريع الحساب ﴿هَذَا بَلَاغٌ  
لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ. وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ  
وَكَدُّهُ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٥١﴾ .

## أسرار ترتيب سورة «إبراهيم» (\*)

أقول: وجه وضعها بعد سورة الرعد، أن قوله تعالى في مطلعها: ﴿كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام ١] مناسب لقوله: في مقطع تلك: ﴿وَمَنْ عِنْدَ عَلَّمَ الْكِتَابِ﴾ [الرعد ٥٢]. على أن المراد به (من) هو: الله تعالى جل جلاله.

وأيضاً ففي الرعد: ﴿وَلَقَدْ أَسْمَيْنَا

رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ [الرعد/٣٢]. وذلك مجمل في أربعة مواضع: الرسل، والمستهزئين، وصفة الاستهزاء، والأخذ. وقد فصلت الأربعة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيَكُم بَبْؤًا أَلْزَمَ مِنْ بَقْلِكُمْ قَوْمٌ تُوْجِعُونَ وَكَافُوهُمْ وَسْخَعًا مِنْ مَالِهِمْ﴾ [الأنعام ٩٠] إلى قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ لِلنَّارِ مِيزَانٌ عَدْلٌ﴾ [الأنعام ٩١].

(\*) انقضي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.



مكنونات سورة «إبراهيم» (\*)

قال علي بن أبي طالب: هم كفار قريش. أخرجه الثسائي<sup>(١)</sup>. وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن دينار قال: هم قريش؛ ومحمد النعمة.

٤ - ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾  
[الآية ٣٧].

هو إسماعيل.

١ - ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [الآية ٢٤].  
هي النخلة<sup>(١)</sup>.

٢ - ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [الآية ٢٦].  
هي الحنظلة<sup>(٢)</sup>.

وقيل: الثوم. حكاه ابن عسكـر.

٣ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [الآية ٢٨].

(\*) انتهى هذا البحث من كتاب «مفجبات الأقران في منبهات القرآن» للسيوطي، تحقيق إباد خالد الطباع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) روى البخاري [١٢] في العلم (٤٦٩٨) في التفسير، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «كنا عند رسول الله (ص) فقال: أخبروني بشجرة تشبه، أو كالرجل المسلم لا يتحات ورقها ولا تؤذي أكلها كل حين؟ قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلّم. فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله (ص): هي النخلة. فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. فقال: ما منعك أن تتكلم؟ قال لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلّم أو أقول شيئاً. قال عمر: لأن تكون فلنّها أحب إلي من كذا وكذا».

(٢) أخرج الحاكم من حديث أنس: «الشجرة الطيبة النخلة، والشجرة الخبيثة الحنظلة». انظر «فتح الباري» ٣٧٨/٨ و«المستدرک» للحاكم ٣٥٢/٢.

(٣) والحاكم: وقال: صحيح عال ٣٥٢/٢، وانظر «الدر المشوّ» ٨٥/٤، و«مجمع الزوائد» ٤٤/٧. وفي البخاري (٤٧٠٠) عن ابن عباس: أنهم كفار أهل مكة.

٥ - ﴿يُونَا﴾ [الآية ٣٧].

هو مَكَّة<sup>(١)</sup>.

٦ - ﴿وَلَوْلَاذِي﴾ [الآية ٤١].

تقدم اسم أبيه في سورة الأنعام<sup>(٢)</sup>.

وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق

عكرمة، عن ابن عباس قال: أبو  
إبراهيم: آزر؛ وأمه اسمها: مشاني؛  
وامراته اسمها: سارة، وأم إسماعيل  
اسمها: هاجر؛ وقيل: اسم أمه نوحا،  
وقيل: ليوثا.



(١) انظر الدر المنثور ٨٧/٤.

(٢) عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ [الأنعام/٧٤].

## لغة التنزيل في سورة «إبراهيم» (\*)

١ - قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِنْ مَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الآية ٦].

قالوا: سامه الأمر سوءاً: كلفه إياه، وقال الزجاج: أولاه إياه، وأكثر ما يستعمل في العذاب والشر والظلم.

وجاء في كتاب العين: السوم أن تُجسَّم إنساناً مشقة، أو سوءاً، أو ظلماً.

أقول: وأصل السوم من قولهم: سامت الناقة سوماً، والسوم عرض السلعة على البيع، والسوم في المبايعه.

غير أن ما في لغة التنزيل هو ضرب من المجاز اللطيف؛ وهو من لطفه،

كأنه يتعد عن الأصل.

٢ - وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوسُكُمُ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [الآية ١٧].

قوله تعالى: ﴿تَأَذَّتْ رُءُوسُكُمْ﴾، أي: أذن ربكم، ونظير تأذن: توعذ وأوعد وتفضل وأفضل.

أقول: الغالب في بناء «تَفْعَل» مجيئه لازماً، نحو تَكْسِرُ، وَتَحْطُمُ، وَتَسْتُرُ، وغيره كثير، وهو في هذا قد يأتي مطاوعاً للمتعدي، نحو: هَدَمَهُ فَهَدَمَ.

غير أنه قد يأتي متعدياً، وليس مجيئه متعدياً من النذور، نحو تَعْلَمُ وَتَعَجَّلُ، وغير ذلك.

٣ - وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

أقول: والأصل «وعيدي» واجتزئ

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

أقول: المحييص هو المنجى والمهروب، والفعل حاصّ يَحِيصُ. وهو اسم مكان أو مصدر كالمغيب والمشيّب.

ومن المفيد أن نشير إلى أن الفعل من هذا الاسم لم يبق شيء منه في العربية المعاصرة، بل احتفظت به العامية في العراق ولا سيما في الحواضر، يقال: هو لا يحيص أو ما يحيص، أي: ما يتحرك وليس له أن يقلت.

٦ - وقال تعالى: ﴿قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاةً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي الْبُيُوتِ وَالْحُرُوفِ فَلَا يَكُونُوا مِمَّنْ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

قال الزمخشري<sup>(١)</sup>:

أي: أن الناس يُخرجون في ذلك اليوم أموالهم في عقود المعاوضات، فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها؛ وأما الإنفاق لوجه الله خالصاً كقوله تعالى:

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نَفْسٍ تُجْرَىٰ بِهَا وَلَا لِيُؤْتِيَهُمَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الليل]، فلا

بالكسرة عن ياء المتكلم لأن «وعيدي» نهاية الآية التي يوقف عليها، فإذا وقف كان الوقف بالسكون، وطبى الكسرة لأجل الوقف أسهل من طبى المذ الطويل الذي يكون بإثبات الياء.

وقد مر بنا شيء من هذا في آيات أخرى.

٤ - وقال تعالى: ﴿وَرَوُّا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا فَقَالُوا الصَّمْعُ وَالَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا﴾ [الأنبياء].

أقول: جاء رسم «الضعفاء» في المصحف الشريف ﴿الصَّمْعُ﴾ بواو قبل الهمزة، وهذا الرسم يشير إلى من يُفخّم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو.

ونظيره: ﴿عَلَّمُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء].

وفي هذا فائدة، في أن رسم المُصَحِّف يهْدِي إلى فوائد تاريخية تتصل بأصوات القرآن، وكيف أعرب عنها لدى طائفة من أهل التلاوة.

٥ - وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنَ الْحِسَابِ﴾.

(١) «الكتاب» ٥٥٦/٢.

يفعله إلا المؤمنون الخُلص، فبِعثوا عليه، ليأخذوا بذلك، في يوم لا بيع فيه ولا خلال؛ أي: لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخاللة، ولا بما ينفقون به أموالهم من المعاولات والمكارات.

٧ - وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا يُفِئُوا السَّالَةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (الآية ٣٧).

وقوله تعالى: ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: تُسرِع إليهم، وتطير نحوهم شوقاً ونزاعاً، كقول أبي كبير الهذلي:

وَإِذَا زَمَيْتَ بِهِ الْفَجَاجَ رَأَيْتَهُ  
يَهْوِي مَخَارِمْهَا هَوِي الْأَخْذَلِ  
وَقُرِّي: تَهْوِي إِلَيْهِمْ، على البناء للمفعول.

أقول: واستعمال «تهوي» في الآية استعمال في المجاز، ذلك أن الأفئدة تميل وتجنح إليهم شوقاً، وليس «الهوي» على حقيقته، وهو السقوط. والذي بقي من استعمال هذا الفعل، هو المعنى الحقيقي.

٨ - وقال تعالى: ﴿مُهْطِئَاتٍ مُّقْنِبَاتٍ رُّؤُوسُهُنَّ لَا يَرَوْنَ إِلَيْهِمْ مَرْفَعَهُنَّ وَأَقْدِمُهُنَّ هَوَاءً﴾ (٢٢).

والإهطاع أن تُقبل ببصرك على المرئي، تُدِيمُ النظر إليه لا تطرف.

و«مُقْنِبَاتٍ رُّؤُوسُهُنَّ» أي: رافعيها.

«وَأَقْدِمُهُنَّ هَوَاءً»، أي: خلاء لم تشغله الأجرام، فوصف به فقيل: قلبُ فلان هواء، إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جراءة، قال حسان يهجو أبا سفيان:

أَلَا أَبْلِغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي  
فَأَنْتَ مُجْرُوفٌ نَخْبُ هَوَاءَ  
فَكُونُ الْأَفْنَدَةِ هَوَاءَ أَي: صفراً من الخير.

٩ - وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُؤُهُمْ لَيَرْزُقُنَّ مِنَ الْجِبَالِ﴾ (٢١).

«إِنْ» هنا في الآية نافية، واللام مؤكدة لها.

والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بمكرهم.

وهذه الآية شاهد آخر في مجيء «إِنْ» النافية التي أشرنا إليها، وبسطنا فيها القول.



## المعاني اللغوية في سورة «إبراهيم» (\*)

مَلِكٌ ﴿الكهف/ ٧٩﴾ في هذا المعنى .  
أي: كَانَ وراء ما هُمْ فيه <sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾  
[الآية ١٨] أي: «وَمِمَّا نَقُصُّ عَلَيْكُمْ مَثَلُ  
الَّذِينَ كَفَرُوا» ثم فُسِّرَ سبحانه كما في  
قوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَّ  
الْمُتَّقُونَ﴾ [الزهد/ ٣٥ ومحمد/ ١٥] وهذا  
كثير .

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْكُمْ﴾ [الآية  
٢٢] وهذا استثناء خارج، كما تقول:  
«ما ضَرَبْتُهُ إِلَّا أَنَّهُ أَحْمَقُ» وهو الذي في  
معنى «لكن» .

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ﴾  
[الآية ٢٢] فُتِيحت ياء الإضافة لأن قبلها  
ياء الجميع الساكنة التي كانت في

قرئ قوله تعالى: ﴿يَسْتَجِيبُونَ الْحَيَاةَ  
الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [الآية ٣] بوصل  
الفعل بـ «على» كما قالوا «ضَرَبُوهُ فِي  
السَّيْفِ» يريدون «بالسيف» . وذلك أن  
هذه الحروف بوصل بها كلها، وتحذف  
نحو قول العرب: «نَزَلْتُ زَيْدًا» تريد  
«نَزَلْتُ عَلَيْهِ» .

وقال تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الآية ١٦]  
أي: من أمامه . وإنما قال: ﴿وَرَاءَ﴾  
أي: أنه وراء ما هو فيه، كما تقول  
للرجل: «هذا مِنْ ورائِكَ» أي: «سيأتي  
عَلَيْكَ» و«هُوَ مِنْ ورائِ مَا أَنتَ فِيهِ» لأنَّ  
ما أَنتَ فِيهِ قد كان مثل ذلك، فهو  
وراءه . وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمُ

(\*) اتفقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة  
العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ .

(١) ورد في مجاز القرآن ٣٢٧/١ .

«مُضْرَجِي»، فلم يكن من حَزَنَتِهَا بَدْ  
لَأَنَّ الْكُسْرَ مِنَ الْيَاءِ.

وقرأ ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾  
[الآية ٢٤] منصوبة على ﴿ضَرَبَ﴾ كأن  
الكلام «وَضَرَبَ اللَّهُ كَلِمَةً طَيِّبَةً مَثَلًا».

وقال تعالى: ﴿لَا يَبِغُ فِيهِ وَلَا  
خِلَلٌ﴾ وفي موضع آخر ﴿وَلَا  
خُلَّةٌ﴾ [البقرة/٢٥٤] وإِنَّمَا «الْخِلَالُ»  
لجماعة «الْخُلَّةُ» كما تقول: «جُلَّةٌ»  
و«جِلَالٌ»، و«قُلَّةٌ» و«قِلَالٌ». وقال  
الشاعر [من المتقارب، وهو الشاهد  
الخامس والعشرون]:

وكيف ثَوَّاجِلُ مَنْ أَصْبَحَتْ

خِلَالُهُ كَأَبِي مَرْحَبٍ  
ولو شئت جعلت «الْخِلَالُ» مصدرًا  
لأنها من «خَالَلْتُ» مثل «قَاتَلْتُ»  
ومصدر هذا لا يكون إلا «الْفِعَالُ» أو  
«المُفَاعَلَةُ».

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَتَيْنَكُم بِكُلِّ مَا  
سَأَلْتُمُوهُ﴾ [الآية ٣٤] أي: أتاكم من كُلِّ

شَيْءٍ سَأَلْتُمُوهُ شَيْئًا» بإضمار الشيء،  
كما في قوله تعالى ﴿وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ  
شَيْءٍ﴾ [النمل/٢٣] أي: «أُوتِيتَ مِنْ كُلِّ  
شَيْءٍ فِي زَمَانِهَا شَيْئًا»<sup>(١)</sup> قال بعضهم:  
«إِنَّمَا ذَا عَلَى التَّكْثِيرِ» نحو قولك: «هُوَ  
يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ» وَأَنَاهِ كُلُّ النَّاسِ» وهو  
يعني بعضهم: وكذلك ﴿فَتَحَنَّنَّا عَلَىٰ هَذِهِ  
أَيُّوبَ كُلِّ ثَمَةٍ﴾ [الأنعام/٤٤]. وقال  
بعضهم: «لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَقَدْ سَأَلَهُ  
بَعْضُ النَّاسِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَتَيْنَكُم  
بِكُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أَي: فَمِنْ كُلِّ  
مَا سَأَلْتُمُوهُ قَدْ أَتَى بَعْضُكُمْ مِنْهُ شَيْئًا،  
وَأَتَى آخَرُ شَيْئًا مِمَّا قَدْ سَأَلَ».

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَتُكِنُّ  
مِنْ ذُرِّيَّتِي يُوَادُّ﴾ [الآية ٣٧] أي: «أَتُكِنُّ  
مِنْ ذُرِّيَّتِي أَنَا»<sup>(٢)</sup> ودخلت الباء على  
«وَادُّ» كما تقول: «هُوَ بِالْبَصَرَةِ» وهو  
في البصرة».

وَنُورٌ بَعْضُهُمْ ﴿مِنْ كُلِّ﴾ [الآية  
٣٤]<sup>(٣)</sup> فقرأ (مِنْ كُلِّ) ثم قال «لَمْ

(١) نقله في زاد المسير ٣٦٤/٤، وإعراب القرآن ٥٤٤/٢، والجامع ٣٦٧/٩.

(٢) نقله في إعراب القرآن المنسوب للزجاجي ٤٧٥/٢.

(٣) في الطبري ٢٢٦/١٣ إلى الضحَّاك بن مزاحم وقتادة، وفي الشواذ ٦٨ إلى ابن عباس والحسن وجعفر بن محمد  
وسلام بن المنقر، وفي المحتسب ٣٦٣/١ إلى ابن عباس والضحَّاك والإمام محمد بن علي والإمام جعفر بن  
محمد وعمر بن خالد ويعقوب، وفي الجامع ٣٦٧/٩ إلى ابن عباس والضحَّاك والحسن وقتادة، وفي البحر ٥/  
٤٢٨ إلى ابن عباس والضحَّاك والحسن والإمام محمد بن علي والإمام جعفر بن محمد وعمر بن خالد وقتادة  
وسلام ويعقوب ونافع في رواية.

تَسْأَلُوهُ إِنَاءً كَمَا تَقُولُ: «قَدْ سَأَلْتُكَ مِنْ كُلِّ» وَ«قَدْ جَاءَنِي مِنْ كُلِّ» لِأَنَّ «كُلَّ» قَدْ تَفَرَّدَ وَحْدَهَا.

وقال تعالى: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [الآية ٢٥] ومثل ذلك ﴿أَكْلُهَا دَائِمٌ﴾ [الرعد/ ٣٥] و«الْأَكْلُ» هو: الطَّعَامُ وَالْأَكْلُ هو: «الْفِعْلُ».

وقال تعالى: ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [الآية ٣٧] منصوب، زعموا أنه في التفسير «تَهْوَاهُمْ».

وقوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ [الآية ٤٣] على الحال وكذلك ﴿مُتَعَبِينَ﴾ [الآية ٤٣] كَأَنَّ السِّيَاقَ: «تَشْخَصُ أَبْصَارُهُمْ مُهْطِعِينَ»؛ وَجُعِلَ «الطَّرْفُ»<sup>(١)</sup>

لِلْجَمَاعَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿سَبِّحْهُمْ لِمَجْمُوعِ اللَّحْمِ وَيُولُونَ الذُّبُرَ﴾ [١٥] [القمري].

وقرئ قوله تعالى: ﴿تُخَلِّفَ وَغَدِ» رُسُلَهُ﴾ [الآية ٤٧] بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْأَوَّلِ وَنَصَبِ الْآخِرِ عَلَى الْفِعْلِ، وَلَا يَخْسُنُ أَنْ نُضِيفَ إِلَى الْآخِرِ لِأَنَّهُ يَفْرُقُ بَيْنَ الْمُضَافِ وَالْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَهَذَا لَا يَخْسُنُ. وَلَا بَدَ مِنْ إِضَافَتِهِ لِأَنَّهُ قَدْ أُلْقِيَ الْأَلْفَ، وَلَوْ كَانَتْ «مُخَلِّفًا» نَصَبَهُمَا جَمِيعًا، وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي الْكَلَامِ. وَمِثْلُهُ «هَذَا مُعْطِي زَيْدٍ دِرْهَمًا» وَ«مُعْطِي زَيْدًا دِرْهَمًا».

وواحد ﴿الْأَصْفَادِ﴾ [١١] صَفَدَ.

(١) من قوله تعالى في الآية نفسها ﴿لَا يَرْنَدُ إِلَيْهِمْ طَرَفُهُمْ﴾.



## لكل سؤال جواب في سورة «إبراهيم» (\*)

العرب حجة، أن لو نزل القرآن بلسان غير العرب يكن للعرب الحجة.

قلنا: نزوله على النبي (ص) بلسان واحد كاف، لأن الترجمة لأهل بقية الألسن تغني عن نزوله لجميع الألسن، ويكفي التطويل كما جرى في القرآن العزيز. الثاني: أن نزوله بلسان واحد أبعد عن التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والخلاف. الثالث: أنه لو نزل بألسنة كل الناس وكان معجزاً في كل واحد منها، وكلّم الرسول العربي كلّ أمة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها لكان ذلك أمراً قريباً من القسر والإلجاء؛ وبعثة الرسل لم تبين على القسر والإلجاء، بل على التمكين من الاختيار، فلما كان نزوله بلسان واحد

إن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ. لِيُتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ [الآية ٤] هذا في حق غير النبي (ص) من الرسل مناسب، لأن غيره لم يبعث إلى الناس كافة بل إلى قومه فقط، فأرسل بلسانهم ليفقهوا عنه الرسالة ولا تبقى لهم الحجة بأننا لم نفهم رسالتك. فأما النبي (ص) فإنه بعث إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿قَدْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف/١٥٨]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا/٢٨].

فأرسله بلسان قومه إن كان لقطع حجة العرب، فالحجة باقية لغيرهم من أهل الألسن الباقية، وإن لم يكن لغير

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

كافياً، كان أولى الألسنة لسان قوم الرسول، لأنهم أقرب إليه وأفهم عنه.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في سورة البقرة ﴿يَذَّبَحُونَ﴾ [الآية ٤٩] وفي سورة الأعراف ﴿يُقْتَلُونَ﴾ [الآية ١٤١] بغير واو فيهما، وقال هنا ﴿يَذَّبَحُونَ﴾ [الآية ٦] بالواو، والقصة واحدة؟

قلنا: حيث حذف الواو جعل التذبيح والتقتيل تفسيراً للعذاب وبياناً له، وحيث أثبتتها جعل التذبيح كأنه جنس آخر غير العذاب، لأنه أوفى على بقية أنواعه، وزاد عليها زيادة ظاهرة، فعلى هذا يكون إثبات الواو أبلغ.

فإن قيل: ما معنى التبعيض في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الآية ١٠]؟

قلنا: ما جاء هذا إلا في خطاب الكافرين، كقوله تعالى في سورة نوح عليه السلام: ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الآية ٤] وقوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿بِقَوْمَنَا أَيْبُورًا دَائِي اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الآية ٣١] وقال تعالى في خطاب المؤمنين في سورة الصف: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ

آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَغْزَزٍ﴾ [الآية ١٠] إلى قوله تعالى من الآية نفسها: ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف/١٢] وقال تعالى في آخر سورة الأحزاب: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَعُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [٧٥] يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وكذا باقي الآيات في خطاب الفريقين إذا تتبعتهما، وما ذلك إلا للترقية بين الخطابين لثلاث يسوى بين الفريقين في الوعد مع اختلاف رتبتهما، لا لأنه يغفر للكفار مع بقائهم على الكفر بعض ذنوبهم؛ والذي يؤيد ما ذكرناه من العلة، أنه في سورة نوح عليه السلام، وفي سورة الأحقاف، وَعَدَهُمْ مغفرة بعض الذنوب بشرط الإيمان مطلقاً. وقيل معنى التبعيض أنه يغفر لهم ما بينهم وبينه، لا ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها. وقيل «مِنْ» زائدة.

فإن قيل: لِمَ كرر تعالى الأمر بالتوكل، وَلِمَ قال أولاً ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [١١] وقال ثانياً: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [١٢]؟

قلنا: الأمر الأول لاستحداث التوكل، والثاني لتثبيت المتوكلين على ما استحدثوا من توكلهم؛ فلهذا كرره،

وقال أولاً «المؤمنون» وثانياً «المتكولون».

فإن قيل: لِمَ قالوا لرسولهم كما ورد في التنزيل: ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الآية ١٣] والرسول لم يكونوا على ملة الكفار قط؛ والعود هو الرجوع إلى ما كان فيه الإنسان؟

قلنا: العود في كلام العرب يستعمل كثيراً بمعنى الصيرورة، يقولون: عاد فلان يكلمني، وعاد فلان مال وأشباه ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ [يس]. الثاني: أنهم خاطبوا الرسل بذلك بناء على زعمهم الفاسد واعتقادهم أن الرسل كانوا أولاً على ملل قومهم ثم انتقلوا عنها. الثالث: أنهم خاطبوا كل رسول ومن آمن به فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد، ونظير هذا السؤال ما سبق في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الآية ٨٨] وفي سورة يوسف (ع) من قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية ٣٧].

فإن قيل: كيف طابق الجواب السؤال في قوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقُوا إِلَهُ جَمِيعًا فَقَالَ الصَّامِتُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا

كُنَّا لَكُمْ نَبَاً فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَوُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ [الآية ٢١].

قلنا: لما كان قول الضعفاء توبيخاً وتقريعاً وعتاباً للذين استكبروا على استتباعهم إياهم واستغوانهم، أحالوا الذنب على الله تعالى في ضلالهم وإضلالهم، بقولهم كما ورد في التنزيل: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا﴾ [الأنعام/١٤٨]، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل/٣٥] يقولون ذلك في الآخرة، كما كانوا يقولونه في الدنيا، كما حكى الله تعالى عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَقَعُ اللَّهُ حَبْماً فَتَقُولُونَ لَمْ كُنَّا بِمُحَلِّقِينَ لَكُمْ﴾ [المجادلة/١٨]. وقيل معنى جوابهم: لو هدانا الله في الآخرة طريق النجاة من العذاب، لهدينّاكم: أي لأعطينّا عنكم وسلكنّا بكم طريق النجاة، كما سلكنّا بكم طريق الهلكة في الدنيا.

فإن قيل: كيف اتصل وارتبط القول ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَخَّرَنَا﴾ [الآية ٢١] بما قبله؟

قلنا: اتصاله به من حيث إن عتاب الضعفاء للذين استكبروا كان جزعاً مما هم فيه وقلقاً من ألم العذاب، فقال

الْأَمْرُ ﴿٢٦﴾ لَأَنْ قَضَاءُ الْأَمْرِ إِنَّمَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [الآية ٢٧] وقد رأينا كثيراً من الظالمين هداهم الله بالإسلام وبالتوبة وصاروا من الأنبياء؟

قلنا: معناه أنه لا يهديهم ماداموا مصرين على الكفر والظلم، معرضين عن النظر والاستدلال. الثاني: أن المراد منه، الظالم الذي سبق له القضاء في الأزل، أنه يموت على الظلم؛ فالله تعالى يشبهه على الضلالة لخدلانه، كما يشبه الذين آمنوا بالقول الثابت وهو كلمة التوحيد. الثالث أن معناه: أن يضل المشركين عن طريق الجنة يوم القيامة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الآية ٣٠] والضللال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد وهي الأصنام، وإنما عبدوها ليقربهم إلى الله تعالى، كما حكى الله تعالى عنهم ذلك، بقوله: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر/ ٢٣]؟

قلنا: قد شرحنا ذلك في سورة «يونس» عليه السلام، إذ قلنا هذه لام

لهم رؤساؤهم كما ورد في التنزيل: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ مَكَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجْبِئِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ يريدون أنفسهم وإياهم، لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين عليها في الدنيا، كأنهم قالوا للضعفاء: ما هذا الجزع والتوبيخ، ولا فائدة فيه كما لا فائدة في الصبر، فإن الأمر أعظم من ذلك وأعم.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [الآية ٢٢] عبر عنه بلفظ الماضي، وذلك القول من الشيطان لم يقع بعد، وإنما هو مترقب متظر، يقوله يوم القيامة؟

قلنا: يجوز وضع المضارع موضع الماضي، ووضع الماضي موضع المضارع إذا أمن اللبس، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا نَتْلُوا الشَّيْطَانِ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَنَ﴾ [البقرة/ ١٠٢] أي ما تلت، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾ [البقرة/ ٩١]. قال الحطيطه الشاعر:

شَهِدَ الْخَطِيطَةُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ  
أَنَّ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعَذْرِ  
فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَنَ﴾  
نَفْيٌ لِلْإِسْبَاسِ، وَكَذَا قَوْلُ الْحَطِيطَةِ «يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ»، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمَّا قُضِيَ

العاقبة والصبرورة، وليست لام الغرض، والمقصود كما في قوله تعالى: ﴿فَالْفَقْلَةُ أَلْ رِزْقُكَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [التقصص/ ٨]؛ وقول الشاعر:

\* لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْتُوا لِلْخَرَابِ \*  
وقول الآخر:

فَلِلْمَوْتِ تَعْدُو الْوَالِدَاتُ بِخَالِهَا  
كما لخرابِ الدُّفْرِ تُبْنِي الْمَسَاكِينُ  
والمعنى فيه أنهم لما أفضى بهم اتخاذ الأنداد إلى الضلال، أو الإضلال، صاروا كأنهم اتخذوها لذلك؛ وكذا الالتقاط والولادة والبناء، ونظائره كثيرة في القرآن العزيز، وفي كلام العرب.

فإن قيل: كيف طابق الأمر بإقامة الصلاة وإنفاق المال، وُصفَ اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خِلال؟

قلنا: معناه قل لهم يقدموا، من الصلوات والصدقة، مَتَجَرًّا يجدون ربحه يوم لا تنفعهم متاجر الدنيا من المعاولات والصدقات التي يجلبونها بالهدايا والتحف، لتحصيل المنافع الدنيوية، فجاءت المطابقة.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿لَا يَبِيعُ

فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ أي لا صداقة، وفي يوم القيامة خلال، لقوله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف/ ١٧] ولقوله (ص) «المرء مع من أحب»؟

قلنا: لا خلال فيه لمن لم يقيم الصلاة ولم يؤد الزكاة؛ فأما المقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة فهم الأنقياء، وبينهم خلال يوم القيامة لما تلونا من الآية.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾؟ والمسخر للإنسان هو الذي يكون في طاعته يصرفه كيف شاء في أمره ونهيه كالداية والعبد والفلك، كما قال تعالى: ﴿وَنَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ [الزخرف/ ١٣] وقال تعالى: ﴿لِنَسْخَرَنَّ مِنْهُمْ بَعْضًا سَخِرَ لَكُمْ﴾ [الزخرف/ ٣٢] وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ﴾ [الأنبياء/ ٣٢] ويقال فلان مسخر لفلان إذا كان مطيعاً له، وممثلاً لأوامره ونواهيه؟

قلنا: لما كان طلوعهما وغروبهما وتعاقب الليل والنهار لمنافعنا متصلاً مستمرّاً، اتصالاً لا تنقطع علينا فيه المنفعة ولا تنخرم، سواء أشاءت هذه المخلوقات أم أبت، فقد أشبهت

المسخر المقهور في الدنيا كالعبد والفلك ونحوهما.

والثاني: أن معناه أنها مسخرة لله لأجلنا ومنافعنا: فإضافة التسخير إلى الله تعالى: بمعنى أنه فاعل التسخير، وإضافة التسخير إلينا بمعنى عود نفع التسخير إلينا؛ فَصَّحْتُ الإِضافَتانِ.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ كُنْزٍ مَّا سَأَلْتُمُوهُ﴾ (الآية ٣٤) والله تعالى لم يعطنا كل ما سألناه، ولا بعضاً من كل فرد، مما سألناه؟

قلنا: معناه: وآتاكم بعضاً من جميع ما سألتموه لا من كل فرد.

فإن قيل: لا يصح هذا المحمل لوجهين: أحدهما: أنه لا يَحْسُنُ الامتنان به. الثاني: أنه لا يناسبه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ (الآية ٣٤)؟

قلنا: إذا كان البعض الذي أعطانا هو الأكثر من جميع ما سألناه، وهو الأصلح والأفنع لنا في معاشنا ومعادنا، بالنسبة إلى البعض الذي منعه عنا لمصلحتنا أيضاً، لا يَحْسُنُ الامتنان به ويكون مناسباً لما بعده.

وجواب آخر: عن أصل السؤال: أنه

يجوز أن يكون قد أعطى جميع السائلين بعضاً من كل فرد مما سألهم جميعهم، وبهذا المقدار يصح الإخبار في الآية، وإن لم يُعْطِ كُلُّ واحد من السائلين بعضاً من كل فرد مما سألهم؛ وإيضاح ذلك أن يكون هذا قد أعطي شيئاً مما سألهم ذاك، وأعطى ذاك شيئاً مما سألهم هذا على ما اقتضته الحكمة والمصلحة في حقهما؛ كما أعطي النبي (ص) الرؤية ليلة المعراج، وهي مسؤول موسى عليه السلام، وما أشبه ذلك.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ (الآية ٣٤) والإحصاء والعَدُّ بمعنى واحد، كذا نقله الجوهري؛ فيكون المعنى وإن تعدوا نعمة الله لا تعدوها، وهو متناقض كقولك: إن تَزِيدُوا لا تَنْبُذُوا، إذ الرؤية والإبصار واحد؟

قلنا: بعض المفسرين فسر الإحصاء بالحصر، فإن صح ذلك لغتاً اندفع السؤال، ويؤيد ذلك قول الزمخشري لا تحصوها: أي لا تحصرها ولا تطبقوا عُدَّها وبلوغ آخرها، وعلى القول الأول فيه إضمار تقديره: وإن تريدوا عد نعمة الله لا تعدوها.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿لَا تَخْشَوْهُمْ﴾، وهو يوهم أن نعم الله غير متناهية، وكل نعمة ممتن بها علينا فهي مخلوقة، وكل مخلوق متناه؟

قلنا: لا نُسلم أنه يوهم أنها لا تتناهى، وذلك لأن المفهوم منه منحصر في أننا لا نطبق عددها أو حصر عددها، ويجوز أن يكون الشيء متناهياً في نفسه، والإنسان لا يطبق عدده، كرمل القفار وقطر البحار وورق الأشجار، وما أشبه ذلك.

فإن قيل: لِمَ قال إبراهيم عليه السلام كما ورد في التنزيل ﴿وَأَجَبْتَنِي﴾ وَوَيْتَ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٢٥﴾ وعبادة الأصنام كفر، والأنبياء معصومون عن الكفر بإجماع الأمة، فكيف حسن منه هذا السؤال؟

قلنا: إنما سأل هذا السؤال في حالة خوف أذهله عن ذلك العلم. لأن الأنبياء (ع) أعلم الناس بالله تعالى، فيكونون أخوفهم منه، فيكون معذوراً بسبب ذلك. وقيل إن في حكمة الله تعالى وعلمه، أن لا يُبتلى نبياً من الأنبياء بالكفر، بشرط أن يكون متضرعاً إلى ربه طالباً منه ذلك؛

فأجرى على لسانه هذا السؤال لتحقيق شرط العصمة.

فإن قيل: قال تعالى: ﴿وَرَبِّ إِلَهَيْنِ أَضَلَّنَا كَيِّدًا مِنَ النَّاسِ﴾ [الآية ٣٦] فجعل الأصنام مضلة؛ والمضلل ضار. وقال في موضع آخر: ﴿وَتَبَدُّوهُ مِنَ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْقُصُهُمْ﴾ [يسر/ ١٨] ونظائره كثيرة، فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: إضافة الإضلال إليها مجاز بطريق المشابهة. ووجهه، أنهم، لما ضلوا بسببها، فكأنها أضلتهم، كما يقال فتنتهم الدنيا وغرتهم: أي افتتوا بسببها واغترؤا، ومثله قولهم: دواء مسهل، وسيف قاطع، وطعام مشبع، وماء مُرَو، وما أشبه ذلك. ومعناه: حصول هذه الآثار بسبب هذه الأشياء، وفاعل الآثار هو الله تعالى.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿أَفْتَدَا مِنْ النَّاسِ﴾ [الآية ٢٧] ولم يقل أفتداه الناس، وقوله قلوب الناس أظهر استعمالاً من قوله قلوباً من الناس؟

قلنا: قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، لو قال إبراهيم عليه السلام في دعائه «أفتداه الناس»، لحجّت جميع الملل وازدحم عليه الناس، حتى لم

يبق للمؤمن فيه موضع، مع أن حج غير  
الموخذين لا يفيد، والأفئدة هنا  
القلوب في قول الأكثرين، وقيل  
الجماعة من الناس.

فإن قيل: إذا كان الله تعالى قد ضمن  
رزق العباد، فَلِمَ سأل إبراهيم عليه  
السلام الرزق لذريته، فقال كما ورد في  
التنزيل: ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنْكَ ذُرِّيَّتَ﴾ الآية  
[٣٧]؟

قلنا: الله تعالى ضمن الرزق والقوت  
الذي لا بد للإنسان منه ما دام حياً،  
ولم يضمن كونه ثمرأً أو حبأً أو نوعاً  
معيناً؛ فالسؤال كان لطلب الثمر عيناً.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ  
الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ  
وَإِسْحَاقَ﴾ [الآية ٣٩] شكر على نعمة  
الولد، فكيف يناسبه بعده في الآية  
نفسها: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [٣٨]؟

قلنا: لما كان قد دعا ربه لطلب  
الولد بالقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ  
الضَّالِّينَ﴾ [الصفات] فاستجاب له  
ناسب قوله بعد الشكر: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ  
الدُّعَاءِ﴾ [٣٨] أي لمجيبه من قولهم:  
سمع الملك قول فلان إذا أجابه وقبله،  
ومنه قولهم في الصلاة «سمع الله لمن  
حمده» أي أجابه وأثابه.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿رَبِّ

أَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [نوح/٢٨] استغفر  
إبراهيم لوالديه وكانا كافرين،  
والاستغفار للكافرين لا يجوز، ولا  
يقال إن هذا موضع الاستثناء المذكور  
في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ اسْتَغْفَارُ  
لِإِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ [النسوة/١١٤]، لأن  
المراد بذلك استغفاره لأبيه خاصة،  
بقوله ﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِّ اللَّهِ كَانَ مِنْ  
الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء/٨٦] والموعدة  
التي وعدا إياه إنما كانت له خاصة،  
بقوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ  
رَبِّي﴾ [يوسف/٩٨] ولهذا قال الله تعالى:  
﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾  
[المنحة/٤]؟

قلنا: هذا الاستغفار لهما كان  
مشروطاً بإيمانهما تقديراً، كأنه قال  
ولو الذي إن آمن. الثاني: أنه أراد بهما  
آدم وحواء صلوات الله عليهما، وقرأ  
ابن مسعود وأبي والنخعي والزهري  
رضي الله عنهم (ولولدي) يعني  
إسماعيل وإسحاق، ويعضد هذه القراءة  
سبق ذكرهما، ولا إشكال على هذه  
القراءة، وقيل إن هذا الدعاء على  
القراءة المشهورة، وإلى ذلك أشير  
بقوله تعالى ﴿وَالَّذِي أَلْطَمَ أَنْ يُغْفَرَ لِي  
خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء].

## المعاني المجازية في سورة «إبراهيم» (\*)

وإسباغ النعماء. ألا ترى أن أيام العرب التي هي عبارة عن الوقائع يكون فيها لبعضهم الظهور على بعض، فذلك من النعم، وعلى بعضهم السوء والدائرة، وتلك من النقم؟ فالأيام إذن تذكرة لمن أراد التذكرة بالإنعام والانتقام.

وقوله سبحانه: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْرَابِهِمْ﴾ [الآية ٩] وهذا استعارة، على وجه واحد من وجوه التأويلات التي حُمِلت عليها هذه الآية. وذلك أن يكون المعنى ما ذهب إليه بعضهم من أن الأيدي ههنا عبارة عن حجج الرسل عليهم السلام،

قوله سبحانه: ﴿وَذَكَّرْتَهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وهذه استعارة. والمراد بها - والله أعلم - التذكير بأيام نقم الله التي أوقعها بالماضين، كعادٍ وثمود ومن جرى مجراهم. وهذا كقولنا: أيام العرب. وإنما تريد به الأيام التي كانت فيها الوقائع المشهورة والملاحم العظيمة. وقد يجوز أن تكون الأيام ههنا عبارة عن أيام النعم، كما قلنا إنها عبارة عن أيام النقم. فيكون المعنى: فذكرهم بالأيام التي أُنعم الله فيها عليهم وعلى الماضين من آبائهم بوقم<sup>(١)</sup> الأعداء، وكشف اللأواء<sup>(٢)</sup>،

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشرif الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) وقَمَ العدو: قهره وأذله، وقَمَ الرجل: رذه عن حاجته أفتح رذ.

(٢) اللأواء: ضيق المعيشة، وشدة المرض.

المراد بذلك أنهم كانوا يعضّون أناملهم  
تغيظاً على الرسل عليهم السلام، كما  
يفعل المغيظ المحنق، والواجم  
المفكر.

وقال بعضهم: المراد بذلك أن  
المشركين أَوْمَأُوا إلى أفواه الأنبياء،  
بالتشكيت لهم، والقطع لكلامهم.

وقال بعضهم: بل المراد بذلك  
ضرب من الهزء يفعلهُ الْمُجَان  
والسفهاء، إذا أرادوا الاستهزاء ببعض  
الناس، وقصدوا الوضع منه، والإزاء  
عليه. فيجعلون أصابعهم في أفواههم  
ويُتَّبِعُونَ هذا الفعل بأصوات تشبهه  
وتجانسه، يُسْتَدَلُّ بها على قصد  
السخر، وتعمد الفحش. وهذا عندي  
بعيد من السداد، وغيره من الأقوال  
أولى منه بالاعتماد.

وقد يجوز أيضاً أن يكون المراد  
بذلك أن الكفار كانوا إذا بدأ عليهم  
الرسل بالكلام سدّوا بأيديهم أسماعهم  
دفعاً، وأفواههم دفعاً، إظهاراً منهم لقلّة  
الرغبة في سماع كلامهم وجواب  
مقالتهم، ليدلّوهم - بهذا الفعل - على  
أنهم لا يُصَنِّغُونَ لهم إلى مقال، ولا

والبيّنات التي جاؤوا بها قومهم،  
وأكدوا بها شرعهم. لأن ذلك يتم لهم  
السلطان عليهم والتدبير لهم، وقد  
سَمُوا السلطان بدأ في كثير من  
المواضع، فقالوا: ما لفلان على فلان  
يَدُّ، أي سلطان. ويقولون: قد زالت  
يد فلان الأمير إذا عزل عن ولايته،  
بمعنى زال سلطانه عن رعيته.  
ويقولون: أخذت هذا الأمر باليد، أي  
بالسلطان. فالحجج التي جاء بها  
الأنبياء أممهم قد تُسَمَّى أيدياً على ما  
ذكرناه، فلما وصف الكفار على هذا  
التأويل بأنهم ردّوا أيدي الأنبياء -  
عليهم السلام - في أفواههم، كان  
المراد بذلك ردّ حججهم من حيث  
جاءت، وطريق مجيئها أفواههم؛  
فكانهم ردّوا عليهم أقوالهم، وكذبوا  
دعواهم.

وفي هذا التأويل بُغْذُ وتعسف، إلا  
أننا ذكرناه لحاجتنا إليه، لمّا ذهبنا  
مذهب من حمل قوله سبحانه:  
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَكْبَرُ ذُنُوبًا﴾  
على الاستعارة لا على الحقيقة.

فإذا حملت الآية على حقيقة الأيدي  
التي هي الجوارح كان المراد بها  
مختلفاً فيه. فمن العلماء من قال:

يجيبونهم عن سؤال، إذا قد أبهموا  
طريقي السماع والجواب، وهما الآذان  
والأقواء. وشاهد ذلك قوله سبحانه  
حاكياً عن نوح عليه السلام، يعني  
قومه: ﴿وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُوهُمْ لَتَغَيِّرَ لَهُمْ  
جَمَلُوا أَسْمِعُكُمْ فِي مَا ذَاتِهِمْ وَاسْتَشْهَرُوا بِهَا  
وَأَسْرَأُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (نوح)  
فيكون معنى رد أيديهم في أفواههم  
على القول الذي قلنا، أن يمسكوا  
أفواههم بأكفهم، كما يفعل المظهر  
الامتناع عن الكلام. ويكون إنما ذكر  
تعالى رد الأيدي ههنا - وهو يفيد فعل  
الشيء ثانياً بعد أن فُعل أولاً - لأنهم  
كانوا يُكثرون هذا الفعل عند كلام  
الرسول عليهم السلام. فوصفوا في هذه  
الآية بما قد سبق لهم مثله، وألف منهم  
فعله، فحسُن ذكر الأيدي بالرد على  
الوجه الذي أومأنا إليه. وأيضاً فقد  
يقول القائل لغيره: أرؤذ إليك يدك.  
بمعنى اقبضها وكفها. لا يريد غير  
ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ  
مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (٧). وهذا  
استعارة. لأن المقام لا يضاف إلا إلى  
من يجوز عليه القيام. وذلك مستحيل

على الله سبحانه، فإذا المراد به يوم  
القيامة، لأن الناس يقومون فيه  
للحساب، وعرض الأعمال على  
الثواب والعقاب، فقال سبحانه في  
صفة ذلك اليوم: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ  
الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين).

وإنما أضاف تعالى هذا المقام إلى  
نفسه في هذا الموضع، وفي قوله:  
﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (الرحمن)  
لأن الحكم في ذلك اليوم له خالصاً،  
لا يشاركه فيه حكم حاكم، ولا يحاذيه  
أمرٌ أمر. وقد يجوز أن يكون المقام  
ههنا معنى آخر، وهو أن العرب تسمي  
المجامع التي تجتمع فيها لتدارس  
مفاخرها، وتذكر مآثرها «مقامات»  
و«مقاوم». فيجوز أن يكون المراد  
بالمقام ههنا الموضع الذي يقص فيه  
سبحانه على برئته محاسن أعمالهم،  
ومقابح أفعالهم، لاستحقاق ثوابه  
وعقابه، واستيجاب رحمته وعذابه.  
وقد يقولون: هذا مقام فلان ومقامته،  
على هذا الوجه، وإن لم يكن الإنسان  
المذكور في ذلك المكان قائماً، بل  
كان قاعداً أو مضطجعا. ومن الشاهد  
على ذلك قوله تعالى في قصة سليمان  
عليه السلام: ﴿أَنَا مَلِكٌ يَوْمَ ذَلِكَ لَنْ نَقُومَ

يُنْ مَقَائِكَ ﴿[النمل/٣٩] أي من مجلسك. سَمَاءَ مَقَاماً - مع ذِكْرِهِ أَنَّ سليمان عليه السلام كان جالساً فيه - لأنه قال: ﴿قَبْلَ أَنْ نَقُومَ مِنْ مَقَائِكَ﴾. وإنما سَمَاءَ مَقَاماً، لأن القاعد إذا قام بعد قعوده ففيه يكون قيامه. وهذا من غرائب القرآن الكريم.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِثٍّ وَمِنْ دَرَائِهِ. عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ فهذه استعارة. لأن المراد بذلك لو كان الموت الحقيقي ولم يكن <sup>(١)</sup> سبحانه ليقول: ﴿وَمَا هُوَ بِمَحِثٍّ﴾، وإنما المعنى أن غواشي الكروب، وحواذب الأمور تطرقه من كل مَطَرٍ، وتطلّع عليه من كل مطلع. وقد يوصف المغموم بالكرب، والمضغوط بالخَطْبُ بأنه في غمرات الموت، مبالغة في عظيم ما يَغْشَاهُ، وأليم ما يلقاه.

وقوله سبحانه: ﴿أَعْمَلْتُمْ كُرْماً إِشْدَدْتَ فِي الرِّيحِ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [الأنبياء/١٨] في هذه الآية استعارتان إحداهما قوله تعالى: ﴿أَشْدَدْتَ فِي الرِّيحِ﴾ <sup>(٢)</sup>.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَجْمَلْ أَقْدَةَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء/٣٧]. وهذه من محاسن الاستعارة. وحقيقة الهوي النزول من علو إلى انخفاض كالهبوط. والمراد به ههنا المبالغة في صفة الأقدة بالتزوع إلى المقيمين بذلك المكان. ولو قال سبحانه: تحن إليهم، لم يكن فيه من الفائدة ما في قوله سبحانه: تهوي إليهم، لأن الحنين قد يوصف به مَنْ هو مقيم في مكانه، والهوي يفيد انزعاج الهوي من مستقره.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَزِدُّهُمْ عُقُوبَةً وَأَقْدَتُهُمْ هَوَاءً﴾ [الأنبياء/١٧] وهذه استعارة. والمراد بها صفة قلوبهم بالخلو من عزائم الصبر والجَلْدِ، لعظيم الإشفاق والوجل. ومن عادة العرب أن يُسموا الجبان براعة جوفاء، أي ليس بين جوانحه قلب.

وعلى ذلك قول جرير، يهجو قوماً وَيَصِفُهُمْ بِالْجَبِينِ:

(١) هذه العبارة غير واضحة كما هي، والمقصود أن الموت هنا مجاز لا حقيقة، ولو كان الموت هنا حقيقة لم يكن سبحانه ليقول: (وما هو بمحيت) . ولعل الواو زائدة في قوله «ولم يكن» .

(٢) هنا ورقة ضائعة من الأصل. من الآية ١٨ إلى الآية ٣٧.

قل لخفيف القصبات الجوفان

جيشوا بمثل عامر والعلهان<sup>(١)</sup>

وإنما وصف الجبان بأنه لا قلب له، لأن القلب محل الشجاعة، وإذا نفى المحل فأولى أن ينتفي الحال فيه. وهذا على المبالغة في صفته بالجبن. ويسمون الشيء إذا كان خالياً «هواء»، أي ليس فيه ما يشغله إلا الهواء.

وعلى هذا قول الله سبحانه: ﴿وَأَسْبَحَ قُودًا أَرْمُ مَوْسَىٰ قَرِيحًا﴾ [القصر/ ١٠] أي خالياً من التجلّد، وعاطلاً من التصبّر. وقيل أيضاً: إن معنى ذلك أن أفئدتهم منحرفة لا تعي شيئاً، للرعب الذي دخلها، والهول الذي استولى عليها. فهي كالهواء الرقيق في الانحراف، وبطلان الضبط والامتناع.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَتْ مَكْرُمُهُ لَقَرُولَ مِنْهُ الْجَبَالُ﴾<sup>(٢)</sup>. وهذه

استعارة على إحدى القراءتين. وهما: لتزول. بكسر اللام الأولى وفتح اللام الأخرى، ولتزول، بفتح اللام الأولى وضم الأخرى. وقرأنا بهذه القراءة للكسائي<sup>(٣)</sup> وخذه، وقرأنا لبقية السبعة القراءة الأولى.

فمعنى القراءة الأولى أن يكون موضع «إن» فيها موضع نعم، لأنها قد ترد بهذا المعنى مثقلة: كقوله: [إن] وراكبها<sup>(٤)</sup>.

ويجوز أن ترد مخففة. لأن «إن» على أصلها قد تأتي مخففة ومثقلة. ويكون المعنى واحداً. وكذلك «أن» المفتوحة. قال الشاعر<sup>(٥)</sup>:

أَكْثَرُهُ وَأَعْلَمُ أَنَّ كَلَانَا  
على ما ساءَ صاحِبُهُ حَرِيصُ  
وأراد «أَنَّ كَلَانَا» فخفف. فإذا تقرر ذلك صار تقدير الكلام في الآية:

(١) ورد هذا البيت في ديوان جرير هكذا:

ويلكموا يا قصبات الجوفان جيشوا بمثل قعنب والعلهان

(٢) الكسائي: هو علي بن حمزة الكوفي، أحد القراء السبعة. وإمام مدرسة في النحو واللغة مشهورة. وكان مؤيداً للرشيد العباسي وابنه الأمين. توفي سنة ١٨٩ هـ بمدينة الري.

(٣) هذا هو ما ردّه ابن الزبير رضي الله عنه لمن قال له: لعن الله ناقّة حملتني إليك. فقال ابن الزبير: إن وراكبها. أي: نعم! ولعن وراكبها. وهو من شواهد كتب معاني الحروف. انظر «معنى اللبيب» ج ١ ص ٣٦.

(٤) قيل هو غولي بن زيد؛ وقيل هو عمرو بن جابر الحنفي.

راجع [إميل يعقوب]: المعجم المفضل في شواهد اللغة العربية ١٢٣/٤؛ فيه إحالات إلى مظان هذه.

الكبراء لرخيص. فيكون المراد: إن الجبال تزول من مكرهم استعظماً واستفظاعاً، لو كانت ممّا يعقل الحال، ويقدر على الزوال. وهذه اللام ههنا تومي إلى معنى «تكاد»<sup>(٣)</sup>....

ونعم كان مكرهم لتزول منه الجبال. وقد وردت هذه اللام في موضع ليس، لأن الخفيفة فيه تحمل<sup>(١)</sup>.

قال الفراء<sup>(٢)</sup>: سمعت العرب تقول: الكبراء حينئذ لرخيص. ولم يقل: إن

---

(١) هنا الكلام ناقص، ولعل الناسخ أراد أن يكتب «لأن الخفيفة فيه تحمل محمل ما، وتكون اللام للجحود». وبعبارة القرطبي في هذا المقام واضحة دالة على الغرض، حيث يقول في الجزء ٩ ص ٣٨٠: (إن بمعنى ما. أي ما كان مكرهم لتزول منه الجبال. لضعفه ووهته). ثم زاد القرطبي خمسة مواطن في القرآن جاءت فيها «إن» بمعنى «ما» وهذا هو أحدها.

(٢) الفراء هو يحيى بن زياد أبو زكريا إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة والأدب. وكان فوق علمه باللغة والنحو فقيهاً متكلماً مفسراً. وقد عهد إليه الخليفة المأمون بتربية ولديه. توفي سنة ٢٠٧هـ. وهناك فراء آخر اسمه الحسين بن مسعود البغوي اشتهر بالفقه والحديث والتفسير، وتوفي سنة ٥١٠هـ وليس هو المقصود هنا، فقد ولد بعد وفاة الشريف الرضي بثلاثين عاماً.

(٣) هنا قطعة مفقودة من الكتاب تبلغ ورقة تقريباً.

# سورة الحجر





## أهداف سورة «الحجر» (\*)

بالإنذار ثم ورد فيها قصة آدم وإبليس،  
ويلي القصة عَرْضٌ لبعض مشاهد  
الكون في السماوات والأرض، والليل  
والنهار، والشمس والقمر والنجوم،  
والرياح والسحاب، يلي ذلك قِصَصُ  
قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب  
وموسى.

وهنا، في سورة الحجر، يجيء  
الإنذار كذلك في مطلعها، ولكن مُلْفَعاً  
بظُلٍّ من التهويل:

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ  
إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ  
أَمْرٍ أَجَلًا وَمَا يَسْتَفْهِرُونَ ﴿٣﴾﴾.

ثم يعرض السياق بعض مشاهد  
الكون: السماء وما فيها من بروج،  
والأرض الممدودة، والرواسي

سورة الحجر سورة مَكِّيَّة. ومحور  
هذه السورة الأول هو إبراز المصير  
المخيف الذي ينتظر الكافرين  
المكذِّبين.

وحول هذا المحور يدور السياق في  
عدة جولات متنوعة الموضوع  
والمجال، ترجع كلها إلى ذلك المحور  
الأصيل، سواء في ذلك القصة،  
ومشاهد الكون ومشاهد القيامة،  
والتوجيهات والتعقيبات التي تسبق  
القِصَص، وتخلله، وتعقب عليه.

وإذا كان جزؤ سورة الرعد يذكر بجو  
سورة الأنعام، فإن جزؤ هذه السورة،  
سورة الحجر، يُذَكِّرُ بجزؤ سورة  
الأعراف.

لقد كان ابتداء سورة الأعراف

(\*) انقضى هذا البحث من كتاب «أهداف كل سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحانه، الهيئة العامة للكتاب،  
القاهرة، ١٩٧٩ - ١٩٨٤.

الراسخة، والنبت الموزون والرياح اللواقيح، والماء والسُّفْيَا، والحياة والموت والحشر للجميع. يلي ذلك قصة آدم وإبليس، منتهية بمصير أتباعه ومصير المؤمنين. ومن ثم لمحات من قصص إبراهيم ولوط وشعيب وصالح عليهم السلام، منظور فيها، إلى مصائر المكذبين.

ويمكن تقسيم سياق السورة هنا إلى عدة جولات، أو عدة مقاطع يتضمن كل منها موضوعاً أو مجالاً:

تتضمن الجولة الأولى بيان سُنة الله تعالى التي لا تتخلف في الرسالة والإيمان بها والتكذيب، مبدوءةً بذلك الإنذار الضمني المُلقَّع بالتهويل:

﴿ذَرَهُمْ يَآكُلُوا وَيَسْتَمْعُوا وَيَلْهَبُوا  
الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

ومنهيّة بأن المكذّبين إنما يكذبون عن عناد لا عن نقص في دلائل الإيمان، وأنهم جميعاً من طراز واحد:

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ  
الْأَوَّلِينَ﴾ (١٧).

وتعرض الجولة الثانية بعض آيات الله في الكون، في السماء وفي الأرض وما بينهما؛ وقد قدرت بحكمة، وأنزلت

بقدر، وإلى الله مرجع كل شيء وكل أحد في الوقت المقدر المعلوم، حيث يقول سبحانه:

﴿وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا  
نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (١١).

وتعرض الجولة الثالثة قصة البشرية، وأصل الهدى والغبوة في تركيبها وأسبابها الأصلية، ومصير الغاوين في النهاية والمهتدين، وذلك في خلق آدم (ع) من صلصالٍ من حمأ مسنون، والنفخ من روح الله في هذا الطين. ثم غرور إبليس واستكباره وتوليّه الغاوين دون المخلصين.

والجولة الرابعة في مصارع الغابرين من قوم لوط وشعيب وصالح، مبدوءة بقول الله سبحانه:

﴿يَقِمْ عِبَادِي آتِي أَنَا الْعَفْوَ  
الرَّجِيمُ﴾ (٨) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ  
الْأَلِيمُ (١٥).

ثم يتتابع القصص يجلو رحمة الله مع إبراهيم ولوط، وعذابه لأقوام لوط وشعيب وصالح.

أما الجولة الخامسة والأخيرة، فتكشف عن الحق الكامن في خلق السماوات والأرض والملتبس بالساعة

تنتقل فيها بمدارها. وهي في كلتا الحالتين شاهدة بالقدرة وشاهدة بالدقة، وشاهدة بالإبداع الجميل. قال تعالى:

﴿وَرَزَقْنَاهَا لِّلنَّظِيرِينَ ١٦﴾

وهي لفتة إلى جمال الكون، وبخاصة أن تلك السماء تشي بأن الجمال غاية مقصودة في خلق هذا الكون، فليست الضخامة وحدها وليست الدقة وحدها، إنما هو الجمال الذي ينظم المظاهر جميعاً، وينشأ من تناسقها جميعاً.

وإن نظرة مُبصرة إلى السماء في الليلة الحالكة، وقد انتشرت فيها الكواكب، والنجومُ توصوص بنورها ثم تبدو كأنما تحبو، ريثما تنتقل العين لتلبي دعوةً من نجم بعيد، ونظرة مثلها في الليلة القمرية والبدْرُ حالم، والكون من حوله مهموم كأنما يمسك أنفاسه حتى لا يوقظ الحالم السعيد.

إن نظرةً واحدة شاعرة، لكفيلةٌ بإدراك الحقيقة في الجمال الكوني، وعمق هذا الجمال في تكوينه، وإدراك معنى هذه اللفتة العجيبة: ﴿وَرَزَقْنَاهَا لِّلنَّظِيرِينَ ١٦﴾.

وما بعدها من ثواب وعقاب، المتصل بدعوة الرسول (ص) فهو الحق الأكبر الشامل للكون كله، والشامل للبدء والمصير.

## الآيات الكونية في سورة الحجر

عرضت سورة الحجر لألوان المكابرة والعناد التي يلجأ إليها الكافرون ثم انتقلت إلى معرض الآيات الكونية مبدوءاً بمشهد السماء فمشهد الأرض، فمشهد الرياح اللواقيح بالماء، فمشهد الحياة والموت، فمشهد البعث والحشر. كل أولئك، آيات يكابر فيها المعاندون. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَزَقْنَاهَا لِّلنَّظِيرِينَ ١٧ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ١٨ إِلَّا مِنْ أَسْفَلِ السَّمَاءِ قَٰلَتِمْ يٰهَٰبِئُمِينَ ١٩﴾

إنه الخط الأول في اللوحة العريضة، لوحة الكون العجيب الذي ينطق بأثار اليد المبدعة، ويشهد بالإعجاز، ويكشف عن دقة التنظيم والتقدير كما يكشف عن عظمة القدرة على هذا الخلق الكبير. والبروج قد تكون النجوم والكواكب بضخامتها، وقد تكون منازل النجوم والكواكب التي

والخط الثاني في اللوحة العريضة الهائلة، هو خط الأرض الممدودة أمام النظر، المبسوطة للخطو والسير، وما فيها من رواسٍ وما فيها من نبت وأرزاق للناس، ولغيرهم من الأحياء. قال تعالى:

﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ مَوْزُونٍ﴾.

إن ظل الضخامة واضح في السياق، فالإشارة في الأرض إلى الرواسي، ويتجسم ثقلها في التعبير بقوله سبحانه:

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾.

والى النبات موصوفاً بأنه (موزون) وهي كلمة ذات ثقل، وإن كان معناها أن كل نبت في هذه الأرض في خلقه دقة وإحكام وتقدير.

والآية الكونية هنا تتجاوز الآفاق إلى الأنفس، فهذه الأرض الممدودة للنظر والخطو، وهذه الرواسي الملقاة على الأرض تصاحبها الإشارة إلى النبت الموزون، ومنه إلى المعاش التي جعلها الله للناس في هذه الأرض، وهي الأرزاق المؤهلة للعيش والحياة فيها، وهي كثيرة شتى.

\*\*\*

وهذه الأرزاق، ككل شيء، مقدرة في علم الله تابعة لأمره ومشيته، يُصَرِّفُهَا حيث يشاء وكما يريد، في الوقت الذي يريد، وفق سنته التي ارتضاها وأجراها في الناس والأرزاق، قال تعالى:

﴿وَلَيْدٌ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾.

فما من مخلوق يقدر على شيء أو يملك شيئاً، ولكن خزائن كل شيء مصادره وموارده عند الله سبحانه، في علاه، ينزله على الخلق في عوالمهم:

﴿بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾. فليس من شيء

ينزل جزافاً، وليس من شيء يتم اعتباطاً، بل كل شيء يتم بحكمة العليم الخبير، وتقدير السميع البصير. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [الفر].

\*\*\*

## قصة آدم في سور البقرة والأعراف والحجر

ذكرت قصة آدم في القرآن مرتين من قبل، في سورة البقرة، وفي سورة الأعراف، ولكن مساقها في كل مرة كان لأداء غرض خاص في معرض خاص وفي جو خاص؛ ومن ثم

اختلفت الحلقات التي تعرض منها في كل موضع، واختلفت طريقة الأداء.

في سورة البقرة كانت نقطة التركيز استخلاف آدم (ع) في الأرض التي خلقها الله سبحانه للناس جميعاً:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة/ ٣٠].

ومن ثم عرض الأسرار في هذا الاستخلاف، وبين قدرة الإنسان على الاستنباط والاستنتاج وتمتعه بالإرادة والاختيار، ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره، وسُكْنَى آدم وزوجه الجنة وإذلال الشيطان لهما عنها وإخراجهما منها، ثم الهبوط إلى الأرض للخلافة فيها بعد تزويده بهذه التجربة القاسية، واستغفاره وتوبة الله عليه.

وفي سورة «الأعراف»، كانت نقطة التركيز في السياق هي الرحلة الطويلة من الجنة والبهائم، وإبراز عداوة إبليس للإنسان منذ بدء الرحلة إلى نهايتها، حتى يعود الناس مرة أخرى إلى ساحة العرض الأولى، ففريق منهم يعود إلى الجنة التي أخرج الشيطان أبويهم منها لأنهم عادوه وخالفوه، وفريق ينتكس إلى النار لأنه اتبع خطوات الشيطان

العدو اللدود... ومن ثم عرض السياق حكاية سجود الملائكة، وإباء إبليس واستكباره، ثم إسكان آدم وزوجه الجنة يأكلان من ثمرها كله إلا شجرة واحدة، وهي رمز المحذور الذي تبشئ به الإرادة والطاعة؛ ثم وسوسة الشيطان لهما بتوسع وتفصيل، وأكلهما من الشجرة وظهور سواتهما لهما، وعتاب الله لآدم وزوجه وإهباطهما إلى الأرض جميعاً للعمل في أرض المعركة الكبرى.

فأما هنا في سورة الحجر، فإن نقطة التركيز في السياق هي سر التكوين في آدم وسر الهدى والضلال، وعواملهما الأصلية في كيان الإنسان. ومن ثم نص ابتداء على خلق الله آدم من صلصال من حمأ مسنون، ونفخه فيه من روحه المشرق الكريم، وخلق الشيطان من قبل من نار السموم، ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس استكافاً من السجود لبشر من صلصال من حمأ مسنون، وطرد إبليس ولعنته وطلبه الانتظار إلى يوم البعث وإجابته، وفي هذه السورة، إشارة إلى أن إبليس الملعون قرر على نفسه أن ليس له سلطان على عباد الله

قال مقاتل بن سليمان في تفسيره  
الكبير:

«ويجمع بين هذه الآيات على أنها دليل على تدرُّج الخلقة، فقد بدأ خلق آدم من أديم الأرض وهو التراب، ثم تحول التراب إلى طين، وتحول الطين إلى سلالة، ثم تغيرت رائحة الطين فتحول إلى حمأ مسنون، ثم لصق فتحول الى طين لازب، ثم صار له صوت كصوت الفخار، ثم نفخ فيه الروح فأراد أن ينهض قبل أن تتم الروح فيه فذلك قوله خلق الإنسان من عَجَلٍ، ثم جعل ذريته من النطفة التي تنسل من الإنسان ومن الماء المهيمن وهو الضعيف».

### الربع الاخير من سورة الحجر

يتضمن الربع الأخير من سورة الحجر نماذج من رحمة الله وعذابه ممثلة في قصص إبراهيم (ع) وبشارته على الكبر بغلام عليم، ولوط (ع) ونجاته وأهله إلا امرأته من القوم الظالمين، وأصحاب الأيكة وأصحاب الجُبُر وما حل بهم من عذاب أليم. هذا القصص يساق بعد مقدمة، هي:

المخلصين، إنما سلطانه على من يدينون له، ولا يدينون الله؛ وانتهى السياق بمصير هؤلاء وهؤلاء في غير حوار ولا عرض ولا تفصيل تبعاً لنقطة التركيز فيه، وقد استوفيت ببيان عنصرَي الإنسان، وبيان مجال سلطة الشيطان.

### خلق الانسان

تفيد الآيات الواردة في سورة الحجر أن الإنسان قد خلق:

﴿مِنْ صَلَافٍ يَزِجُ حَمَلُ مَسْنُونٍ﴾.

والصلصال: هو الطين اليابس الذي يصلصل أي يصوت إذا نقر.  
والحمأ: هو الطين الذي تغير واسود من طول مجاورة الماء.

المسنون: هو المصور أو المصبوب ليس من سته إذا صبه، أي أن الإنسان مخلوق من طين يابس قد اختلط بالماء وصور على هيئة الإنسان ثم نفخ الله فيه من روحه فصار بشراً سوياً.

وتفيد آيات القرآن الأخرى، أن الله سبحانه خلق آدم (ع) من تراب ومن طين، ومن حمأ مسنون، ومن طين لازب، ومن صلصال كالفخار، ومن عَجَلٍ، ومن ماء مهيمن.

﴿ نَحْنُ نَدْعُوهُ أَتَىٰ أَنَا أَلْفُورُ  
الرَّجِيمِ ٨١ ﴾ وَأَذَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ  
الْأَلِيمُ ٨٢ ﴾ .

فيجيء بعضه مصداقاً لنبا الرحمة،  
ويجيء بعضه مصداقاً لنبا العذاب،  
كذلك هو يرجع إلى مطالع السورة،  
فيصدق ما جاء فيها من نذير:

﴿ ذَرَهُمْ يَاسْكُتُوا وَرَتَمَتُوا وَيَتِيمُ  
الْأَمَلِ فَسَوْفَ يَمُوتُونَ ٢ ﴾ وَمَا أَفْلَحْنَا مِنْ  
قَرِينَةٍ إِلَّا وَلَمَّْا كَانَتْ مَعْلُومٌ ١ ﴾ مَا تَسْبِقُ  
مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَنْزِلُونَ ٥ ﴾ .

فهذه نماذج من القرى المهلكة بعد  
النذر، حل بها جزاؤها بعد انقضاء  
الأجل.

### الحَجَر

سميت هذه السورة الحجر، إشارة  
إلى أصحاب الحجر وهم قوم  
صالح (ع). والحجر تقع بين الحجاز  
والشام إلى وادي القرى، وهي ظاهرة  
إلى اليوم، فقد نحتوها في الصخر، في  
ذلك الزمان البعيد، مما يدل على القوة  
والحضارة:

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ  
الْمُرْسِلِينَ ٨٥ ﴾ .

وهم لم يكذبوا سوى رسولهم  
صالح. ولكن صالحاً ليس إلا ممثلاً  
للمسل أجمعين، فلما كذبه قومه قيل:  
إنهم كذبوا المرسلين، توحيداً للرسالة  
وللمرسل وللمكذبين في كل أعصار  
التاريخ وفي كل جوانب الأرض، على  
اختلاف الزمان والمكان والأشخاص  
والأقوام:

﴿ وَمَا يَنْتَهُم مَّا بَيْنَنَا وَكَانُوا عَنْهَا  
مُعْرِضِينَ ٨٦ ﴾ .

آية صالح (ع) كانت الناقية. ولكن  
الآيات في هذا الكون كثيرة، والآيات  
في هذه الأنفس كثيرة. وكلها معروضة  
للأنظار والأفكار. وليست الخارقة التي  
جاءهم بها صالح هي وحدها الآية التي  
أتاهم الله. وقد أعرضوا عن آيات الله  
كلها. ولم يفتحوا لها عيناً ولا قلباً،  
ولم يستشعروا فيها عقل ولا ضمير:

﴿ وَكَانُوا يَنْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي  
مَأْمُونٌ ٨٧ ﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ  
مُصْحِينَ ٨٨ ﴾ قَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا  
يَكْسِبُونَ ٨٩ ﴾ .

لقد اتخذ قوم صالح بيوتاً حصينة  
أمنية في صلب الجبال فأخذتهم  
الصيحة في وقت الصباح، وهم في  
ديارهم الحصينة آمنون، فإذا كل شيء

ذاهب، وإذا كل وقاية ضائعة، وإذا كل حصين واهن، ولم يَبْقَ لهم ممّا جمعوا وكسبوا، وممّا بنوا ونحتوا شيء يغني عنهم ويدفع الهلاك الخاطف.

وهكذا تنتهي الحلقات الخاطفة من القصص في سورة الحجر محققة سنة الله تعالى في أخذ المكذّبين عند انقضاء الأجل المعلوم، فتتناسق نهاية هذا الشوط مع نهايات الأشواط السابقة في تحقيق سنة الله سبحانه التي لا تتخلّف ولا تحيد.

وفي ختام السورة ذكر للسنن العامة التي لا تتخلّف والتي تحكم الكون والحياة، وتحكم الجماعات والرسالات، وتحكم الهدى والضلال، وتحكم المصائر والحساب والجزاء

والتي انتهى كل مقطع من مقاطع السورة بتصديق سنة منها؛ تلك السنن شاهد على الحكمة المكنونة في كل خلق من خلق الله وعلى الحقّ الأصيل الذي تقوم عليه طبيعة هذا الخلق.

ومن ثمّ يعقب السياق في ختام السورة، ببيان هذا الحق الأكبر الذي يتجلى في طبيعة خلق السماوات والأرض وما بينهما، وطبيعة الساعة الآتية لا ريب فيها، وطبيعة الدعوة التي يحملها الرسول (ص) وقد حملها الرسل قبله. ويجمع بينها كلها في نطاق الحق الأكبر الذي يربطها ويتجلى فيها، ويبين أن الله جلّ جلاله هو الخالق لهذا الوجود ولكل ما فيه:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾

## ترابط الآيات في سورة «الجبر» (\*)

بهذه الدعوى ومجادلتهم فيها، ثم انتقل السياق من هذا إلى ترهيبهم بذكر أخبار المكذبين قبلهم. ثم ختمت بما يناسب هذا الغرض المقصود منها.

### إثبات تنزيل القرآن الآيات [١ - ٢٧]

قال الله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ فاقسم بهذه الحروف، على أن ما أنزله من آيات الكتاب والقرآن المبين، وحذرهم من تكذيبه بأنهم سيندمون عليه، ويودون لو كانوا مسلمين. ثم أمر النبي (ص) أن يدعهم في لهوهم حتى يأتي وقت عذابهم، وأخبره بأنه لم يهلك قرية من

### تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الجبر بعد سورة يوسف، ونزلت سورة يوسف بعد الإسراء وقبيل الهجرة، فيكون نزول سورة الجبر في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم، لذكر قصة أصحاب الجبر فيها، وهم ثمود قوم صالح (ع). وتبلغ آياتها تسعاً وتسعين آية.

### الغرض منها وترتيبها

يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن مثل السور السابقة، ولكنه يأخذهم فيها بالترهيب والتحذير مما حصل للمكذبين قبلهم، وقد افتتحت

(\*) اتفق هذا المبحث من كتاب «النظم الفنى في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعدي، مكتبة الآداب بالجاميز - المطبعة النموذجية بالحكمة الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

القرى إلا في أجل معلوم، لا تتقدم عنه ولا تتأخر.

ثم ذكر استهزاءهم بالقرآن وأنهم قالوا عن النبي (ص) إنه لمجنون، لأنه يدعي أنه آية على نبوته. ثم طلبوا منه أن يأتيهم بالملائكة إن كان من الصادقين. وقد ردّ عليهم النبي (ص) بأن الله لا ينزل الملائكة إلا بالعذاب، فإذا نزلوا به لا يمهلونهم، وبأنه سبحانه هو الذي نزل القرآن وتولى حفظه مما حصل في الكتب المنزلة قبله، ثم ذكر تعالى للنبي (ص) أنه قد استهزئ بالرسول من قبله كما استهزئ به، ليصبر على استهزائهم به وطعنهم فيه، وأنه كذلك يسلك القرآن في قلوب المجرمين ليعاقبهم عليه كما عاقب المكذّبين الأولين، ثم رد عليهم بأنه لو فتح عليهم باباً من السماء فظلوا يعرجون فيه، لزعموا أن هذا سحر ولم يؤمنوا به.

ثم انتقل السياق من هذا إلى إثبات قدرته جل جلاله على ما يقترحون من الآيات، فذكر أنه سبحانه هو الذي جعل في السماء بروجاً وزينها للنظرين الخ، وأنه مذل الأرض وألقى فيها رواسي وأثبت فيها من كل شيء موزون

الخ، وأنه أرسل الرياح لواقع فأنزل من السماء ماء فأسقاهموه وما هم له بخازنين الخ، وأنه يحيي ويميت، وهو الوارث الباقي، وأنه يعلم المستقدمين منهم والمستأخرين: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

### ترهيب المشركين بأخبار المكذّبين قبلهم الآيات [٢٨ - ٨٤]

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَإِلَهِكَ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن مَّصْنُونٍ﴾، فذكر قصة آدم (ع) حين خلقه وأمر الملائكة بالسجود له، وأن إبليس كذّب وعصى فعوقب بما عوقب به من الطرد واللعن؛ وقد سبقت هذه القصة في سورتي البقرة والأعراف ولكنها هنا، تخالف ما سبق في سياقها وأسلوبها، وما فيها من زيادة ونقص.

ثم ذكر قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام، وقد سبقت قصتهما في سورة هود وغيرها، والفرق بينها في هذه المواضع كالفرق السابق في قصة آدم (ع).

ثم ذكر قصة أصحاب الأيكة وهم

قوم شعيب (ع)، وقد سبقت قصتهم في سورة هود وغيرها، والفرق بينها في هذه المواضع كالفرق السابق في قصة آدم.

ثم ذكر قصة أصحاب الجحجر وهم قوم صالح (ع)، وقد سبقت قصتهم في سورة هود وغيرها، والفرق بينها في هذه المواضع كالفرق السابق في قصة آدم؛ وقد ذكر في آخرها، أنه أهلكهم بالصيحة مصبحين: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٤).

### الخاتمة

#### الآيات [٨٥ - ٩٩]

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥) فذكر أنه لا بد من أن يعاقب أولئك الأولين، المشركين كما عاقب أولئك الأولين، لأنه لم يخلق ما خلقه عبثاً، ثم أمر النبي (ص) أن يصفح عن استهزائهم،

وأخبره بأنه سبحانه هو الخلاق العليم لِيَفْوَضَ أَمْرَهُ إِلَيْهِ، ثم نَوَّه بِشَأْنِ الْقُرْآنِ الَّذِي يُكَذِّبُونَ بِهِ، فذكر أنه آتاه سبعا من المثاني والقرآن العظيم، ونهاه أن يمدَّ عينيه إلى أموالهم أو يحزن عليهم، وأمره أن يخفض جناحه لمن آمن به، وأن يخبرهم بأنه هو النذير المبين، كما أنزل من الإنذار على المقتسمين، وهم الذين اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عنه، وجعلوا القرآن عِضِينَ؛ بعضه سحر، وبعضه شعر، وبعضه أساطير الأولين، ثم أقسم أنه سيسألهم أجمعين عما كانوا يعملون، وأمره أن يجهر بما أمر أن يبلغه لهم، وأن يعرض عنهم فلا يقابل استهزاءهم بمثله، ووعد أنه يكفيه المستهزئين منهم؛ ثم ذكر له أنه يعلم أن صدره يضيق بما يقولون في حقه، وأمره بما يشرح صدره ويصبره على أذاهم، فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٨) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩).



## أسرار ترتيب سورة «الحجر» (\*)

مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٥﴾ [السجدة]. وفي آخر الحواميم: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَوْ يَلْمِزُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَارٍ﴾ [الأحزاب/ ٣٥].

ثم ظهر لي وجه اتصال أول هذه السورة بآخر سورة إبراهيم، فإنه تعالى لما قال هناك في وصف يوم القيامة: ﴿وَيَرْزُقُوا لِلَّهِ الْوَلَدِ الْقَهَّارِ ﴿٢٥﴾ وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٦﴾ سَرَابِلُهُمْ مِنْ ظِلَافٍ وَقَتْنَ وَجُوهَهُمْ النَّارُ ﴿٢٧﴾﴾. قال هنا: ﴿زَيْبًا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُتْلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ فأخبر أن المجرمين المذكورين إذا طال مكثهم في النار، ورأوا عصاة المؤمنين

أقول: تقدّمت الأوجه في اقترانها بالسورة السابقة. وإنما أشرت عنها ليقصرها بالنسبة إليها، وهذا القسم من سور القرآن للأمين، فناسب تقديم الأطول، مع مناسبة ما ختمت به لبراعة الختام، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٢٩﴾﴾. فإنه مفسر بالموت<sup>(١)</sup>.

وقد وقع ذلك في أواخر السور المقترنة. ففي آخر آل عمران: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وفي آخر الطواسين: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْفَتْرُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [القصر]. وفي آخر ذوات (الر): ﴿وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطاء، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) أخرجه البخاري من سالم: ١٠٦/٦، والمعنى ونفسه أخرجه البخاري في الجنائز، وأحمد في المسند: ٦/٤٣٦.

بوصف الكتاب، وافتتاح هذه به<sup>(١)</sup>،  
وذلك من تشابه الأطراف.

الموخذين قد أخرجوا منها، نعمتوا أن  
لو كانوا في الدنيا مسلمين، وذلك وجه  
حسن في الربط، مع اختتام آخر تلك



---

(١) ختام إبراهيم: ﴿هَذَا بَلَدٌ قَدِيمٌ وَبَنَدُهَا يَوْمَ وَلَيْسَ لَنَا هَرٍ إِلَهٌ وَجَدَ وَيَذْكُرُ لَوْلَا الْأَنْبِيَاءُ﴾ وافتتاح هذه: ﴿الْحَرُّ بِكَ يَكُونُ السَّكَنُ وَفَرَاكَ تَجِيءُ﴾ فكانهما متصلتان.

## مكنونات سورة «الحجر» (\*)

مَقْشُورٌ ﴿١١﴾

قال الضحاك: بابٌ لليهود، وبابٌ للنصارى، وبابٌ للصابئين، وبابٌ للمجوس، وبابٌ للذين أشركوا - وهم كفار العرب - وبابٌ للمنافقين، وبابٌ لأهل التوحيد. أخرجه ابن أبي حاتم.

٣ - ﴿وَيَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾ [الآية ٦٧].

هي سدوم (٤).

١ - ﴿لَمَّا سَبَعَهُ أَبُوبَ﴾ [الآية ٤٤].

قال عبد الرزاق (١): أخبرنا مَعْمَرُ (٢)، عن الأعمش (٣): أسماء أبواب جهنم: الحُطَمَة، والهاوية ولَطَى، وسَقَر، والجحيم، والسعير، وجهنم.

وأخرج ابنُ أبي حاتم مثله عن ابن عباس، وزاد في الهاوية: وهي أسفلها.

٢ - ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب «مفجعات الأفران في منبهات القرآن» للشيوطي، تحقيق إياد خالد الطباع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري (١٢٦ - ٢١١هـ): من حفاظ الحديث، من أهل صنعاء. كان يحفظ نحو سبعة عشر ألف حديث. له «تفسير القرآن» لا يزال مخطوطاً و«المصنف». في (١١) جزءاً، وهو آثار مستندة، مرتبة على الأبواب الفقهية.

(٢) مَعْمَر بن راشد: ثقة ثبت فاضل، إلا أن في روايته عن الأعمش شيئاً. مات سنة (١٥٤هـ).

(٣) الأعمش: سليمان بن مهران، ثقة حافظ ورع، عارف بالقراءة، توفي سنة (١٤٧هـ) أو (١٤٨هـ) على قولين.

(٤) سدوم: مدينة من مدائن قوم لوط. وقال أبو حاتم في كتاب «المزال والمفسد»: إنما هو سدوم، بالذال المعجمة، قال والذال خطأ. قال الأزهري: وهو الصحيح، وهو أعجمي. وذكر الميداني في كتابه «الأمثال» أن سدوم هي سرمين بلدة من أعمال حلب، معروفة عامرة عندهم، «معجم البلدان» لياقوت الحموي ٣/ ٢٠٠.

٤ - ﴿سَبَّحًا مِنَ الْمَلَأَيْنِ﴾ [الآية ٨٧].

قال الرسول (ص): هي الفاتحة،  
أخرجه البخاري<sup>(١)</sup> وغيره. وقال ابن  
عباس: السبع الطُول<sup>(٢)</sup>. أخرجه  
الفيثابي.

وقال سعيد بن جبير، ومجاهد:  
البقرة، وآل عمران، والنساء،  
والمائدة، والأنعام، والأعراف  
ويونس.

وقال سفيان، بعد الأعراف: وبراءة،  
والأنفال سورة واحدة، أخرج ذلك ابن  
أبي حاتم.

٥ - ﴿الْمُتَّقِينَ﴾.

قال ابن عباس: اليهود والنصارى،  
أخرجه ابن أبي حاتم.

٦ - ﴿الْمُتَزَيِّنِينَ﴾.

قال سعيد بن جبير: هم خمسة:  
الوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل  
السهمي، وأبو زمعة، والحارث بن  
الطلائع<sup>(٣)</sup>، والأسود بن عبد يغوث.

أخرجه ابن أبي حاتم<sup>(٤)</sup>؛ وأخرج  
عن عكرمة مثله، وسنن الحارث بن  
قيس السهمي.

(١) برقم (٤٤٧٤) في التفسير عن أبي سعيد بن المعلى بلفظ ﴿الْعَبْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هو السبع المثاني  
والقرآن العظيم «الذي أوتيته»

(٢) السبع الطُول: هي السور المذكورة في رواية سعيد بن جبير التالية؛ وأثر ابن عباس أخرجه أيضاً الطبراني ورجاله  
رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» ٤٦/٧.

(٣) «سيرة ابن هشام» ٤٠٩/١. و(الطلاطة) لغة: الداهية، وقيل: هي اسم أمه، والذي في «السيرة الشامية»: أن  
اسمه مالك، وأن الطلائع أبوه. ووقع اسمه «الحارث بن قيس» في «الانفان» ١٤٧/٢.

(٤) «الطبراني في الأوسط» عن ابن عباس، وفيه محمد بن عبد الحكيم النيسابوري؛ قال الهيثمي في «مجمع  
الزوائد» ٤٧/٧: لم أعرفه.

## لغة التنزيل في سورة «الحجر» (\*)

تُرَكَّبُ إِلَّا مَعَ «لَا» وحدها للتحضيض،  
قال ابن مقبل:

لوما الحياء ولوما الدين عبثكما

يَبْغُضُ مَا فِيكُمَا إِذْ عَبَثَا عَوْرِي

والمعنى: هَلَا تَأْتِينَا بِالْمَلَأْنَكَةِ  
يشهدون بصدقك؟ ويعضدونك على  
إنذارك، كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْنَا  
مَلَكٌ فَبُكِّرْتُمْ مَعَهُ تَذِيرًا﴾ (٧)  
[الفرقان].

أقول: «لولا» و«لوما» من أدوات  
التحضيض من مواد العربية القديمة،  
التي لا نشعر بوجودها في اللغة  
المعاصرة، ولا سيما «لوما».

٣ - وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْأَلُكُمْ  
فِي قُلُوبِ الْمُتَجَرِّمِينَ﴾ (٧).

١ - قال تعالى: ﴿مَّا تَسْتَعِثُّ مِنْ أَنتَ  
أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعِثُّونَ﴾ (٩).

أقول: عوملت «الامة» في الآية على  
وجهين، الأول أنها مؤنث، بدلالة التاء  
في الفعل الذي يسبقها، والثاني جمع  
مذكر، بدلالة الفعل بعدها  
«يستأخرون».

وهذا من باب مراعاة اللفظ أولاً،  
ومراعاة المعنى ثانياً. ومثل هذا له  
نظائر في لغة القرآن.

٢ - وقال تعالى: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا  
بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ (٧).

«لو» رُجِّبَتْ مَعَ «لَا» و«مَا» لمعنيين:  
معنى امتناع الشيء لوجود غيره،  
ومعنى التحضيض، وأما «هل» فلم

(\*) انقضي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السافرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

وقوله تعالى: ﴿سَلَكَ﴾ من  
سَلَكَ الخِيطَ في الإبرة، وأسلكته إذا  
أدخلته فيها، ونظمته.

وَقُرئ: نُسَلَكه، للذكر، أي: مثل  
ذلك السلك، ونحو: نُسَلَك الذكر في  
«قلوب المجرمين» على معنى أنه يلقيه  
في قلوبهم مكذباً مستهزئاً به غير  
مقبول.

أقول: على أننا نعرف السلك في  
عصرنا لضربٍ من الخيط المعدني، إلا  
أننا لا نعرف الفعل «سلك» المتعدي  
بمعنى أدخل السلك «الخيط» في  
الإبرة، فالسلك في عصرنا غير السلك  
أي الخيط.

فأما الفعل «سلك» في عصرنا فهو  
متعدٍ وقاصر، فتقول من الأول سلكت  
السبيل المستقيم، ومن الثاني سلكت  
الرجل سلوكاً مقبولاً.

٤ - وقال تعالى: ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ  
أَبْصَارُنَا﴾ [الآية ١٥].

وقوله تعالى: ﴿سُكِّرَتْ﴾ أي:  
خُيِّرَتْ أو حُبِسَتْ من الإبصار، من  
السُّكْرِ أو السُّكْرِ.

وَقُرئ بالتخفيف «سُكِّرَتْ»  
بالتخفيف، أي حبست كما يحبس

النهر من الجُزْي، وقُرئ: «سُكِّرَتْ»  
من السُّكْرِ، أي حارت كما يحار  
السكران.

والذي قرأ بالتخفيف هو الحسن  
وفسرها: سُكِّرَتْ.

وقال أبو عمرو بن العلاء: معناها  
غَطِيَتْ وَغُشِيَتْ، وقيل: معناها سُدَّتْ  
بالسحر.

وقال أبو عمرو بن العلاء: سُكِّرَتْ  
أبصارنا، مأخوذ من سُكَّرَ الشراب،  
كَأَنَّ العينَ لِحَقِّها ما يلحق شارب  
المسكر إذا سَكِرَ.

وقال أبو عبيدة: سُكِّرَتْ أبصار القوم  
إذا دِيرَ بهم وَغُشِيَهُم كالسمادير فلم  
يبصروا، وقال الفراء: معناه حُبِسَتْ  
وَمُنِعَتْ من النظر.

أقول: وقولهم: حُبِسَتْ من الإبصار  
من السُّكْرِ كما يُحْبَسُ النهر من  
الجُزْي، هو المعنى الكثير في هذه  
المادة، وما زال يقام لحبس مجرى  
صغير أو كبير يُدْعَى «سُكْرًا» في لهجة  
الفلاحين في جنوبي العراق.

وقول طائفة من العرب في عصرنا  
بلهجتهم الدارجة «سُكَّرَ الباب» أي سُدَّ  
وأغلقه.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾.

قالوا: «مسنون» بمعنى متغير.

وقال الزمخشري: بمعنى مُصَوَّر، كأنه أفرغ الحَمَاءَ، فَصَوَّرَ منه تمثال إنسان أجوف فيبس؛ حتى إذا نُقِرَ، صَلْصَلَ.

أقول:

إن قول من قال: إن «المسنون» المتغير، كأنه أدرك أن «المسنون» جاءت عليه «السنون» فغيرته!

٦ - وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

الإنظار بمعنى الإمهال، وهذا يعني أن زيادة الهمزة أفادت خصوصية دلالية ليست في الأصل «نظر».

وجوابه سبحانه وتعالى على سؤال إبليس: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف/١٥].

٧ - وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِزْرِهِمْ﴾ ① إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ②.

أريد أن أشير إلى أن كلمة «ضيف» من الأسماء التي تكون مفرداً وجمعاً،

وهي في كلام الله قد وردت جمعاً في آيات عدة.

على أن من المفيد أن نُشير إلى أن «الضيف» في العربية المعاصرة، يدل على الأفراد، وجمعه ضيوف وأضياف.

٨ - وقال تعالى: ﴿إِلَّا أَمْرًا تُدْرِكُهُ يَوْمَ تَكُونُ الْأَنْفُسُ الْفَتِيرَ﴾ ③.

أريد بـ «الغابرين» الباقين في المدينة، أي قضى أن يهلكها كما يهلك الآخرين من أهل المدينة.

أقول والفعل غَبَر قد مر بنا، وأشرنا إليه بما فيه الكفاية، ولكننا عدنا ثانية لنشير إلى هذا المعنى وهو البقاء والمكوث.

٩ - وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ آخِصٌ إِلَيْكُمْ لَنُؤَيِّدَنَّكُمْ ④ فَإِنَّمَا أَتَيْنَا بِكُمْ لِيَمْلِكُوا الْمُلُوكَ وَلِيَنبِئُونَهُمْ ⑤﴾.

أصحاب الآية هم قوم شعيب (ع)، «وإنهما» يعني قوم لوط (ع) والآية. وقيل: الضمير للآية ومدين، لأن شعيباً كان مبعوثاً إليهما، فلما ذكر الآية دلّ بذكرها على مدين فجاء بضميرهما.

وقوله تعالى: ﴿لِيَمْلِكُوا الْمُلُوكَ ⑥﴾

أي: لطريق واضح. والإمام اسم لما يؤتم به فسمي به الطريق، ومطمر البناء واللوح الذي يكتب فيه، لأنه مما يؤتم به.

أقول: دلالة الإمام معروفة، وهو الرجل الذي يؤتم به في الصلاة، أو من يتخذ قائداً، ومرشداً، ودليلاً، فصاحب المذهب، الذي يتمذهب به جماعة، إمام لهم، والخليفة إمام، والرئيس إمام.

وكذلك يقال: المصحف الإمام، وهو المصحف الذي انتهى إليه عثمان بن عفان، ونسخت به كل المصاحف الأخرى.

و«الكتاب» الإمام وصفاً ونعتاً على المدح لـ «كتاب» سيويه.

١٠ - وقال تعالى: ﴿لَا تَدْنُ عَيْنُكَ إِلَّا مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا يَنْهَوْنَ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه مُتَمَنٍّ له.

والخطاب إلى الرسول (ص) أي: أنه قد أوتي النعمة العظمى، وهي القرآن العظيم فلا تمدد عينيك إلى متاع الدنيا.

أقول: ومد العين لمعنى طموح البصر من المجاز البديع، الذي قلما يرد في نثر المعربين في عصرنا، ولعله موجود في مجازات اللهجة العامية في العراق. وأمر اللغة عجيب فقد تلقى من فرائدها ولآلئها ما هو في نثر العامة ولا تلقاه في الفصح.

وقوله تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ استعارة جميلة، يراد بها أن يتواضع الرسول لمن معه من الفقراء المؤمنين وضعفائهم، وأن يطيب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء.

١١ - وقال تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ.

المقتسمون: هم أهل الكتاب ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾، فقد كانوا يقتسمون القرآن استهزاء فيقول بعضهم: سورة البقرة لي، ويقول الآخر: سورة آل عمران لي، ويجوز أن يراد بـ «القرآن» ما يقرأونه من كتبهم، وقد اقتسموه بتحريفهم.

وقوله تعالى: ﴿عِضِينَ﴾ أي: أجزاء، جمع عِضَّة، وأصلها عِصْوَةٌ «فِعْلَةٌ» من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء، قال رؤبة:

وليس دين الله بالمُعْضِي

وقيل : هي فَعْلَةٌ، من عَضَّهَتْ إِذَا  
بَهَتْ.

أقول: وقد وردت «عضة» في كتب  
النحو في باب ما يجمع جمع مذكر  
سالماً، وليس منه، وذلك جملة أسماء  
بعضها مؤنث وبعضها غير عاقل،  
وهي: مائة، ومسنة، وفنة، وقُلة،  
وكرة، ورثة، وابن، ووابل، وأرض،  
وعالم، وذو، وغير هذا.

وهي في حقيقة الأمر جموع بالواو  
والنون، ولعلها تدلّ على أن هذا  
الجمع كان عامّاً قبل أن يتقيّد بالعلم  
المذكّر العاقل الخالي من الثاء  
والتركيب، وصفة العلم المذكّر العاقل  
الخالية من الثاء، ولا من باب فعلان  
فَقَلَى...

وعلى هذا، فما نجده في اللغة مما  
ليس فيه الشروط المطلوبة، فهو من  
البقايا اللغوية القديمة.



## المعاني اللغوية في سورة «الحجر» (\*)

انصفت بالفاعلية . وقال بعضهم «الرياح تُلْقِح السُّحَابَ» فقد يدل على ذلك المعنى ، لأنها إذا أنشأته وفيها خير ، وَصَلَ ذلك إليه .

وقوله تعالى : ﴿رَبِّ يَا أَغْوَيْنِي﴾ (الآية ٣٩) أي : «ياغواينك إياي» ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ (الآية ٣٩) على القسم كما تقول : «بالله لأفعلن» .

وقوله تعالى : ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (٢٤) لأنه من «جزأته» و «منهم» يعني : من الناس .

وقوله تعالى : ﴿قَالُوا لَا تَوْحَلْ﴾ (الآية

في قوله تعالى : ﴿رُبَّمَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تَدْخُلُ مع «رُبَّ» (١) «ما» لِتَتَكَلَّمُ بالفعل بعدها . وإن شئت جعلت (ما) بمنزلة «شيء» فكانت قلت : «وَرُبَّ شَيْءٍ يَوْدُ» أي «رُبَّ وَدُ يَوْدُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» (٢)

وفي قوله سبحانه : ﴿إِلَّا مِنْ أَمْرٍ لَّسَمْعُ﴾ (الآية ١٨) استثناء خارج كما قال «ما أشتكي إلا خيراً» يريد «أذكر خيراً» .

وقوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ (الآية ٢٢) . كأن الرياح لَفَحَتْ لأن فيها خيراً ، فقد لَفَحَتْ بخير أي

(\*) انتهى هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش ، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد ، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب ، بيروت ، غير مؤرخ .

(١) النص المثبت في المصحف الشريف ورد بباء غير مشددة في قوله تعالى : ﴿رُبَّمَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .

(٢) نقله في المشكل ٤٠٩/١ ، وزاد المسير ٣٨٠/٤ ، وإعراب القرآن ٥٤٩/٢ ، والبحر ٤٤٢/٥ .

٥٣ من «وَجَلَّ» «يُوجَلُّ» وما كان على «فَعِلَ» فـ «هُوَ يَفْعَلُ» تظهر فيه الواو ولا تذهب كما تذهب من «يَزِنُ» لأن «وَزَنَ» «فَعَلَ» وأما بنو تميم فيقولون: «يَبْجَلُ»<sup>(١)</sup> لأنهم يقولون في فعل «تَفْعَلُ» فيكسرون التاء في «تَفْعَلُ» والألف من «أَفْعَلُ» والنون من «تَفْعَلُ» ولا يكسرون الياء لأن الكسر من الياء، فاستثقلوا اجتماع ذلك. وقد كسروا الياء في باب «وَجَلَّ» لأن الواو قد تحولت الى الياء مع التاء والنون والألف. فلو فتحوها استنكروا الواو، ولو فتحوا الياء لجاءت الواو، فكسروا الياء فقالوا «يَبْجَلُ» ليكون الذي بعدها ياء اذ كانت الياء أخف مع الياء من الواو مع الياء، لأنه يُفَرَّزُ الى الياء من الواو ولا يُفَرَّزُ الى الواو من الياء. قال

(١) اللهجات العربية ٤٥٩.

بعضهم (يَبْجَلُ) فقلبها ياء وترك التي قبلها مفتوحة كراهة اجتماع الكسرة والياءين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَصَبْنَا لِيٍّ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنْ دَايَرَ هَوْلًا﴾ [الأنبياء ٦٦] «أَنْ دَايَرَ» بدل من «الأمْر».

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾ [الأنبياء ٥٦] من «قَنِطَ يَقْنَطُ»<sup>(٢)</sup> مثل «عَلِمَ يَغْلُمُ»؛ وقال بعضهم «يَقْنَطُ» مثل «يَقْتُلُ»<sup>(٣)</sup>، وقال بعضهم «يَقْنَطُ».. مثل «يَنْزِلُ»<sup>(٤)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى قَوْمٍ مَجْرُومِينَ﴾ [آل مَالِ الْأُولَى] استثناء من المجرمين أي لا يدخلون في الاجرام.

وفي قوله سبحانه: ﴿لَمَّا تَرَكُوا مِثْقَالَ نَسِيءٍ﴾ [الأنبياء ٧٢] يعني بـ «لَمَّا تَرَكُوا» - والله أعلم

(٢) في الطبري ٤٠/١٣ الى عامة قراء المدينة والكوفة، وفي السبعة ٣٦٧ الى ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وحزمة، وفي الكشف ٣١/٢ والتيسير ١٣٦ الى غير أبي عمرو والكاسي، وفي البحر ٤٥٩/٥ الى السبعة غير النحوي والأعمش.

(٣) في الشواذ ٧١ نسبت إلى يحيى بن يعمر والأشهب العقيلي وأبي عمرو وعيسى، وفي المحتسب ٥/٢ إلى الأشهب وحده، وفي البحر ٤٥٩/٥ زاد عليه زيد بن علي.

(٤) في الطبري ٤٠/١٤ نسبت إلى أبي عمرو بن العلاء والأعمش والكاسي، وفي السبعة ٣٦٧ والكشف ٣١/٢، والتيسير ١٣٦، أسقط الأعمش، وذكره في البحر ٤٥٩/٥ معهما.

- «وَعَيْنَيْكَ» يريد به العُمر<sup>(٥)</sup>؛  
و«العُمر» و«العُمر» لغتان.

وقوله تعالى: ﴿عَيْنَ﴾ وهو من  
«الأعضاء» وواجهه «العضة» مثل  
«العزير» واحده «العيرة».

وقوله سبحانه: ﴿هَذَا يَرْتَأِ عَلَى  
مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: عَلَيَّ دَلَالَتُهُ. نحو  
قول العرب «عَلَيَّ الطريقُ الليلة» أي :  
علي دَلَالَتُهُ.



(٥) نقله في التهذيب ٢/ ٣٨٢ «عمر».



## كل سؤال جواب في سورة «الحج» (\*)

عُثِّي، وَنُيِّتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿١٣﴾ والوارث هو الذي يتجدد له الملك بعد فناء المورث، والله تعالى إذا مات الخلائق لم يتجدد له ملك، لأنه لم يزل مالكا للعالم بجميع ما فيه ومن فيه؟

قلنا: الوارث في اللغة عبارة عن الباقي بعد فناء غيره، سواء أتجدد له من بعده ملك أو لا، ولهذا يصح أن يقال لمن أخبر أن زيدا مات وترك ورثة: هل ترك لهم مالا أو لا؟ فيكون معنى الآية: ونحن الباقون بعد فناء الخلائق. الثاني أن الخلائق لما كانوا يعتقدون أنهم مالكون يسمون بذلك أيضاً، إما مجازاً أو خلافة عن الله تعالى، كالعبد المأذون المكاتب،

إن قيل: لِمَ قالوا كما ورد في التنزيل: ﴿وَقَالُوا يَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الَّذِي إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

اعترفوا بنبوته، إذ الذكر هو القرآن الذي نزل عليه، ثم وصفوه بالجنون؟

قلنا: إنما قالوا ذلك استهزاء وسخرية لا تصديقا واعترافا، كما روى القرآن الكريم أيضاً، حكاية على لسان فرعون لقومه: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء]، وكما روى القرآن الكريم حكاية على لسان قوم شعيب (ع): ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْخَلِيلُ الرَّشِيدُ﴾ [هود] ونظائره كثيرة. الثاني: أن فيه إضراراً وتقديره: يا أيها الذي تدعي أنك نزل عليك الذكر.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَلَا نَأْتِيَنَّ

(\*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمَلَأَكُ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران/ ٢٦] فإذا مات الخلائق كلهم سلمت الأملاك كلها لله تعالى عن ذلك القدر من التعلق، فهذا الاعتبار كانت الوراثة، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿لَئِنِ الْمَلَأُكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر/ ١٦] والملك له سبحانه أزلاً وأبداً.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿نَجِدَ الْمَلَأِكَةَ كُلَّهُمُ أَجْمَعُونَ﴾ دل على الشمول والاحاطة وأفاد التوكيد، فما الحكمة في قوله سبحانه: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

قلنا: قال سيبويه والخليل: هو توكيد بعد توكيد، فيفيد زيادة تمكين المعنى وتقريره في الذهن، ولا يكون تحصيل الحاصل بل تكون نسبة «أجمعون» كنسبة «كلهم» إلى أصل الجملة. وقال المبرد: قوله تعالى: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ يدل على اجتماعهم في زمان السجود، وكلهم يدل على حصول السجود من الكل، فكأنه قال: فسجد الملائكة كلهم معاً في زمان واحد. واختار ابن الأنباري هذا القول، واختار الزجاج وأكثر الأئمة قول سيبويه، وقالوا: لو كان الأمر كما

زعم المبرد لكان «أجمعون» حالاً لوجود حدّ الحال فيه؛ وليس بحال لأنه مرفوع، ولأنه معرفة، كسائر ألفاظ التوكيد.

فإن قيل: ما وجه ارتباط قوله تعالى ﴿وَنَبِّئَهُمُ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بمقابلته من قوله تعالى: ﴿يَقَعُ عِبَادِي﴾ [الآية ٤٩]؟

قلنا: لما أنزل الله عز وجل ﴿يَقَعُ عِبَادِي﴾ ولم يعين أهل المغفرة وأهل العذاب، غلب الخوف على الصحابة رضي الله عنهم، فأنزل الله تعالى بعد ذلك قصة ضيف إبراهيم (ع) ليزول خوف الصحابة وتسكن قلوبهم؛ فإن ضيف إبراهيم عليه السلام جاؤوا ببشارة للولي وهو إبراهيم، وبعقوبة للعدو، وهم قوم لوط (ع) وكذلك تنزل الآياتان المتقدمتان على الولي والعدو لا على الولي وحده. ووجه الارتباط كذلك، أن العبد، وإن كان كثير الذنوب والخطايا، غير طامع في المغفرة، فانه لا يبعد أن يغفر الله تعالى له على يأسه، كما رزق إبراهيم الولد على يأسه، بعد ماشاخ وبلغ مائة سنة أو قريباً منها.

فإن قيل: لم قال تعالى على لسان

قلنا: من كذب رسولاً واحداً فكأنما كذب الكل، لأن كل الرسل متفقون في دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى هنا ﴿وَرَبِّكَ لَسْتَأْتَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٧) عَنَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾، وقال في سورة الرحمن: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يَسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (١٩)؟

قلنا الجواب عنه من وجهين: أحدهما قد ذكرناه في مثل هذا السؤال في سورة هود. والثاني أن المراد هنا، أنهم يُسألون سؤال توبيخ وهو سؤال: لم فعلتم؟ أو المراد: أنهم لا يُسألون سؤال استعلام واستخبار وهو سؤال: هل فعلتم، أو يقال: إن في يوم القيامة مواقف، ففي بعضه يُسألون، وفي بعضها لا يُسألون، وتقدم نظيره.

الملائكة ﴿قَدَرْنَا لَهَا لَيِّنَ الْقُدْرِينَ﴾ (١٧) أي قضينا والقضاء لله تعالى لا لهم؟

قلنا: إسناد التقدير للملائكة مجاز، كما يقول خواص الملوك: دبّرنا كذا وأمرنا بكذا ونهينا عن كذا، ويكون الفاعل لجميع ذلك هو الملك وليس هم، وإنما يظهرون بذلك مزيد قربهم واختصاصهم بالملك.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ (١٨)؟

وأصحاب الحجر قوم صالح، والحجر اسم واديههم أو مدينتهم على اختلاف القولين، وقوم صالح لم يرسل إليهم غير صالح فكيف يكذبون المرسلين؟



**المعاني المجازية في سورة «الحجر» (\*)**

وقد طاش وقارُهُ؛ فإذا قيل: قد خفض جناحه، فإنما المراد به وصف الإنسان بـلين الكنف، والكُظْم عند الغضب. وذلك ضد وصفه بطيرة المغضب، ونزوة المتوقِّب.

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِشِينَ﴾ ﴿٢١﴾ وهذه استعارة على أحد التأويلين. وهو أن يكون المعنى أنهم جعلوا القرآن أقساماً مجزأة، كالأعضاء المعضاة<sup>(٢)</sup> فأمّنوا ببعض، وكفروا ببعض. وقيل: جعلوه أقساماً، بأن قالوا هو سحر وكهانة وكذب وإحالة.

وأما التأويل الآخر في معنى

قوله سبحانه: ﴿لَمَّا تَرَأَتْهُ لَفِي ضُكْرٍ مِّمَّهٖنَ﴾. وهذه استعارة. والمراد بها صفتهم بالتردد في غيهم، والتسكع في ضلالهم. فُسِّبَ تعالى المتلذذ<sup>(١)</sup> في غمرات الغي، بالمتردد في غمرات الضك.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢١﴾ وهذه استعارة. والمراد بها: إِنْ كُنْتُكَ لَهُمْ، وَدُمْ عَلَى لُطْفِكَ بِهِمْ. وَجَعَلَ سَبْحَانَهُ خَفَضَ الْجَنَاحِ، هُنَا، فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِ الْعَرَبِ إِذَا وَصَفُوا الرَّجُلَ بِالْحِدَّةِ عِنْدَ الْغَضَبِ: قَدْ طَارَ طَيْرُهُ، وَقَدْ هَفَا حُلْمُهُ

(\*) اشتمل هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشرif الرضي، تحقيق محمد عبد القني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) المتلدد في المكان: المثلث به. أو المتحجر المتلفط يميناً وشمالاً.

(٢) المعضة: أي المجرأة المفتحة.

«عُضِينَ» فيخرج به اللفظ عن أن يكون مستعاراً، وذلك أن يكون معناها على ما قاله بعض المفسرين معنى الكذب. قال: وهو جمع عِضَةٍ، كما كان في القول الأول، إلا أن العِضَةَ هُنا معناها الكذب والزور، وفي القول الأول معناها التجزئة والتقسيم. وقد ذكر ثقات أهل اللغة في العضة وجوهاً. فقالوا العضة النعيمَةُ، والعضة الكذبُ، وجمعه عِضُون. مثل عِزَّةٍ وعِزُون، والعضة السُخر، والعاضَةُ الساحر.

وقد يجوز أن يكون ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩١) جمع عضة، من السحر. أي جعلوه سحراً وكهانة، كما قال سبحانه حاكياً عنهم ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ (١٦) [المائدة] و﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧) [الأنعام، هود/٧، سبأ/٤٣، الصافات/١٥].

وقوله سبحانه: ﴿فَأَصْدَعُ يَمًا تَوَمَّرُ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٩). وهـ هذه استعارة. لأن الصَّدع على الحقيقة إنما يصح في الأجسام لا في الخطاب

والكلام. والفرق، والصدع، والفصل، في كلامهم بمعنى واحد. ومن ذلك قولهم للمصيب في كلامه: قد طُبِقَ المفصل. ويقولون: فلان يفصل الخطاب. أي يصيب حقائقه، ويوضح غوامضه. فكأن المعنى في قوله سبحانه: ﴿فَأَصْدَعُ يَمًا تَوَمَّرُ﴾ أي أظهر القول وبينه في الفرق بين الحق والباطل. من قولهم صَدَعَ الزدء، إذا شَقَّ شَقًّا بَيِّنًا ظاهراً. ومن ذلك صَدَعَ الزجاجة. إذا استطار فيها الشق، واستبان فيها الكسر. وإنما قال سبحانه: ﴿فَأَصْدَعُ يَمًا تَوَمَّرُ﴾ ولم يقل: فبلغ ما توامر، لأن الصدع هُنا أعم ظهوراً وأشد تأثيراً.

وقد يجوز أيضاً أن يكون المراد بذلك - والله أعلم - أن بالغ في إظهار أمرك، والدعاء إلى ربك، حتى يكون الدين في وضوح الصبح، لا يشكك نهجه، ولا يظلم فجه. مأخوذاً ذلك من (١) «الصَّديع» لشأنه ووضوح إعلانه.

(١) الصَّديع: الصبح. سُني بذلك، لانصداعه عن ظلمات الليل.

# الفهرس

## سورة يونس

### المبحث الأول

- ٣ أهداف سورة 'يونس' \_\_\_\_\_
- ٣ أهدافها الإجمالية \_\_\_\_\_
- الدرس الأول:
- ٤ مظاهر قدرة الله \_\_\_\_\_
- الدرس الثاني:
- ٥ الأدلة على وجود الله \_\_\_\_\_
- الدرس الثالث:
- ٧ قصص الأنبياء \_\_\_\_\_
- ٧ قصة نوح \_\_\_\_\_

### المبحث الثاني

- ١١ ترابط الآيات في سورة 'يونس' \_\_\_\_\_
- ١١ تاريخ نزولها ووجه تسميتها \_\_\_\_\_
- ١١ الغرض منها وترتيبها \_\_\_\_\_
- ١١ إبطال شبههم على القرآن \_\_\_\_\_
- ١٤ تحديهم بالقرآن \_\_\_\_\_
- ١٥ دعوتهم إلى تصديق القرآن بالترغيب والترهيب \_\_\_\_\_

|    |                                 |
|----|---------------------------------|
| ١٧ | الخاتمة                         |
|    | المبحث الثالث                   |
| ١٩ | أسرار ترتيب سورة «يونس»         |
|    | المبحث الرابع                   |
| ٢١ | مكتونات سورة «يونس»             |
|    | المبحث الخامس                   |
| ٢٣ | لغة التنزيل في سورة «يونس»      |
|    | المبحث السادس                   |
| ٣٣ | المعاني اللغوية في سورة «يونس»  |
|    | المبحث السابع                   |
| ٤١ | لكل سؤال جواب في سورة «يونس»    |
|    | المبحث الثامن                   |
| ٤٩ | المعاني المجازية في سورة «يونس» |

## سورة هود

### المبحث الأول

|    |                                  |
|----|----------------------------------|
| ٥٥ | أهداف سورة «هود»                 |
| ٥٥ | تمهيد عن الوحدة الموضوعية للسورة |
| ٥٥ | عناصر الدعوة الإلهية             |
| ٥٧ | ١ - العقيدة والإيمان بالله       |
| ٥٨ | ٢ - إعجاز القرآن                 |
| ٦٠ | ٣ - القَصص في سورة «هود»         |
| ٦١ | قصة نوح (ع)                      |
| ٦٢ | قصة هود                          |

## المبحث الثاني

- ٦٥ ..... ترابط الآيات في سورة «هود»  
٦٥ ..... تاريخ نزولها ووجه تسميتها  
٦٥ ..... الغرض منها وترتيبها  
٦٥ ..... إثبات تنزيل القرآن  
٦٧ ..... تثبيت النبي بالقصص على تكذيبهم  
٦٩ ..... الخاتمة

## المبحث الثالث

- ٧١ ..... أسرار ترتيب سورة «هود»

## المبحث الرابع

- ٧٣ ..... مكنونات سورة «هود»

## المبحث الخامس

- ٧٧ ..... لفة التنزيل في سورة «هود»

## المبحث السادس

- ٨٥ ..... المعاني اللغوية في سورة «هود»

## المبحث السابع

- ٩١ ..... لكل سؤال جواب في سورة «هود»

## المبحث الثامن

- ١٠٥ ..... المعاني المجازية في سورة «هود»

## سورة يوسف

## المبحث الأول

- ١١٧ ..... أهداف سورة «يوسف»

- ١١٩ ..... قصة يوسف

- يوسف بين إخوته وأبيه ..... ١٢٠
- رؤيا يوسف ..... ١٢١
- يوسف وامرأة العزيز ..... ١٢٢
- يوسف عزيز مصر ..... ١٢٤

### المبحث الثاني

- ترابط الآيات في سورة «يوسف» ..... ١٢٧
- تاريخ نزولها ووجه تسميتها ..... ١٢٧
- الغرض منها وترتيبها ..... ١٢٧
- المقدمة ..... ١٢٧
- قصة يوسف (ع) ..... ١٢٨
- الخاتمة ..... ١٣٢

### المبحث الثالث

- أسرار ترتيب سورة «يوسف» ..... ١٣٥

### المبحث الرابع

- مكتونات سورة «يوسف» ..... ١٣٧

### المبحث الخامس

- لغة التنزيل في سورة «يوسف» ..... ١٤٣

### المبحث السادس

- المعاني اللغوية في سورة «يوسف» ..... ١٦١

### المبحث السابع

- لكل سؤال جواب في سورة «يوسف» ..... ١٦٧

### المبحث الثامن

- المعاني المجازية في سورة «يوسف» ..... ١٧٧

## سورة الرعد

### المبحث الأول

- ١٨٥ ..... أهداف سورة «الرعد»  
١٨٥ ..... موضوع السورة  
١٨٦ ..... مشاهد الكون في سورة الرعد  
١٨٨ ..... أدلة الألوهية في سورة الرعد  
١٩٠ ..... النصف الثاني من سورة الرعد  
١٩٢ ..... التناسق الفني في سورة الرعد

### المبحث الثاني

- ١٩٥ ..... ترابط الآيات في سورة «الرعد»  
١٩٥ ..... تاريخ نزولها ووجه تسميتها  
١٩٥ ..... الغرض منها وترتيبها  
١٩٦ ..... المقدمة  
١٩٦ ..... رد شبهتهم الأولى على القرآن  
١٩٨ ..... رد شبهتهم الثانية على القرآن

### المبحث الثالث

- ٢٠١ ..... أسرار ترتيب سورة «الرعد»

### المبحث الرابع

- ٢٠٣ ..... مكنونات سورة «الرعد»

### المبحث الخامس

- ٢٠٥ ..... لغة التنزيل في سورة «الرعد»

### المبحث السادس

- ٢١١ ..... المعاني اللغوية في سورة «الرعد»

## المبحث السابع

٢١٥ \_\_\_\_\_ لكل سؤال جواب في سورة «الرعد»

## المبحث الثامن

٢١٧ \_\_\_\_\_ المعاني المجازية في سورة «الرعد»

## سورة إبراهيم

### المبحث الأول

٢٢٥ \_\_\_\_\_ أهداف سورة «إبراهيم»

٢٢٧ \_\_\_\_\_ وحدة الرسائل السماوية في سورة إبراهيم

٢٢٩ \_\_\_\_\_ المقطع الثاني من سورة إبراهيم

٢٢٩ \_\_\_\_\_ نَعَمْ الله

### المبحث الثاني

٢٣٣ \_\_\_\_\_ ترابط الآيات في سورة «إبراهيم»

٢٣٣ \_\_\_\_\_ تاريخ نزولها ووجه تسميتها

٢٣٣ \_\_\_\_\_ الغرض منها وترتيبها

٢٣٤ \_\_\_\_\_ نزول القرآن للترغيب في الإيمان والتحذير من الكفر

٢٣٤ \_\_\_\_\_ اتحاد الغرض من الكتب المنزل

٢٣٥ \_\_\_\_\_ ترهيب المشركين وترغيبهم

### المبحث الثالث

٢٣٧ \_\_\_\_\_ أسرار ترتيب سورة «إبراهيم»

### المبحث الرابع

٢٣٩ \_\_\_\_\_ مكنونات سورة «إبراهيم»

### المبحث الخامس

٢٤١ \_\_\_\_\_ لغة التنزيل في سورة «إبراهيم»

## المبحث السادس

٢٤٥ \_\_\_\_\_ المعاني اللغوية في سورة «إبراهيم»

## المبحث السابع

٢٤٩ \_\_\_\_\_ لكل سؤال جواب في سورة «إبراهيم»

## المبحث الثامن

٢٥٧ \_\_\_\_\_ المعاني المجازية في سورة «إبراهيم»

## سورة الحجّـر

## المبحث الأول

٢٦٥ \_\_\_\_\_ أهداف سورة «الحجّـر»

٢٦٧ \_\_\_\_\_ الآيات الكونية في سورة الحجّـر

٢٦٨ \_\_\_\_\_ قصة آدم في سورة البقرة والأعراف والحجر

٢٧٠ \_\_\_\_\_ خلق الإنسان

٢٧٠ \_\_\_\_\_ الربع الأخير من سورة الحجر

٢٧١ \_\_\_\_\_ الحجّـر

## المبحث الثاني

٢٧٣ \_\_\_\_\_ ترابط الآيات في سورة «الحجّـر»

٢٧٣ \_\_\_\_\_ تاريخ نزولها ووجه تسميتها

٢٧٣ \_\_\_\_\_ الغرض منها وترتيبها

٢٧٣ \_\_\_\_\_ إثبات تنزيل القرآن

٢٧٤ \_\_\_\_\_ تهيب المشركين بأخبار المكذّبين قبلهم

٢٧٥ \_\_\_\_\_ الخاتمة

## المبحث الثالث

٢٧٧ \_\_\_\_\_ أسرار ترتيب سورة «الحجّـر»

#### المبحث الرابع

٢٧٩ ..... مكنونات سورة «الحِجْرِ»

#### المبحث الخامس

٢٨١ ..... لغة التنزيل في سورة «الحِجْرِ»

#### المبحث السادس

٢٨٧ ..... المعاني اللغوية في سورة «الحِجْرِ»

#### المبحث السابع

٢٩١ ..... لكل سؤال جواب في سورة «الحِجْرِ»

#### المبحث الثامن

٢٩٥ ..... المعاني المجازية في سورة «الحِجْرِ»